محمد رضوان

غزليات العقاد

حياته وشعره وغرامياته المجهولة!



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اســـم الكتاب : غزليات العقاد
المـــــــؤلف : محمد رضوان
رقـــم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٨

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com



يوم الظنون صــــدعتُ فيك تجلدي وحملت فيك الضــــيم مغلول اليدِ

وبكيت كـالطفل الذليل ، أنـا الذي مالان في صـعب الحوادث مقودي

وغصـــصـــت بالماء الذي أعددته للريّ ، في قفر الحيـاة المجهـدِ

العقاد

تقديم

منهج محمد رضوان في أدب السير والتراجم:

يطيب لي وأنا مسترخ في برجي العالي الذي يرتفع فوق محفات من السنوات العديدة التي قطعتها من عمري أن أشاهد بمنظاري أدباء من الشباب اتخذوا من الأدب حرفة لهم ، وتنوعت ميولهم واتجاهاتهم في الدراسة والإنتاج ، لفروع هذا الأدب وألوانه .

ولا تختلف نظرتي إلى هؤلاء الأدباء الشبان المثابرين ، عن نظرتي إلى زهور حديثة النمو ، في حديقة ، تقاوم عوامي الطبيعة ، وتمتص مما حولها مقومات الحياة ، حتى يشتد عودها ، وتتفتح زهورها ، وتؤتي عطرها وشذاها فواحا ذكيا ، أو تهم بها ريح هوجاء ، تقتلعها من جذورها وتحرمها من مناعم الحياة .

والشبان من أدباء عصرنا الحالي ، يختارون من فروع الأدب ، ما تنزع إليه نفوسهم وما يتفق مع ميولهم ورغائبهم .

ولكل فرع من فروع الأدب ، مناهج تتباين بتباين طالبي هذا الفرع وتكوينهم وتأثرهم بما حولهم وبما حصلوه وما هضموه من هذا التحصيل .

والمنهج ، كما نعلم هو المسلك والمسار والسبيل الذي يسلكه طالب البحث حتى يصل إلى مبتغاه .

وتختلف المناهج باختلاف الطبائع والأذواق لدى أصحاب البحث ومواضيع البحث .

ونحن إذا نظرنا إلى مجموعة من المسافرين على طائرة تقطع بهم فيافي الأجواء ، حتى تصل إلى غايتها النائية ، وجدنا أن كل مسافر قد نهج منهجا مستقلا عن غيره من المصاحبين له في السفر ، في طريقة قطعه للوقت ، دفعا للملل ورتابة المنظر المحيط .

فبينما تجد أحدهم قد عكف على قراءة صحيفة أو كتاب ، إذا بك ترى غيره قد اخذ يكتب أو يرسم أو يلعب الورق أو يتحدث أو يعمل عملا يدويا للتسلية وإزجاء الوقت .

وهناك من يستعد لهذه الرحلة بتهيئة أسباب النوم ، حتى لا يحس وطأة الوقت طول الساعات ومخاطر المجهول !

كتابة السيرة أو الترجمة ، تعتبر في يقيني عملا جليلا ينطوي على مناحي الخير والصدق والجمال .

فهذا العمل ، يعمد إلى تسجيل أعمال فنان ، كيفما كان فنه الذي ولع به ، واتخذه غاية ومأربا .

ثم لا يلبث أن يجد القارئ إلى جانب تسجيل أعمال الفنان ، أن كاتب سيرته يعيد خلق شخصيته في سيرة أخرى ، غير التي كان يحياها كحياة فردية .

وذلك أن كاتب السيرة أو الترجمة ينصرف همه إلى الإخلاص للواقع الفني ولذلك كانت أعظم التراجم في العالم هي التي تقدم موضوع الفن على حقيقة وواقع الفنان ، ثم تتعدى ذلك إلى خلق صورة حية للفنان في إطار أعماله وفي ضوء ما أفاء به على إنتاجه من قدرة وتفرد وإحسان .

والترجمة لفنان من الفنانين ، لا تكون صادقة إلا إذا احتوت على تحليل عميق للمشاعر البشرية ، وتكشفت لها الدوافع والغايات الإنسانية التي تكون هاديا لكاتب السيرة ومنارا يقيه العثرات .

***

ويختلف كاتب الترجمة عن الناقد في أن الأول يكشف عن خير ما في أعمال المترجم له من نواحي الكمال والجمال ، لأنه تأثر به وملأت عينه أعماله ، وأكبر فيه ما أنتجه من آثار ، في حين أن الثاني لا يحرص إذا كان ما يكتبه عن الفنان الذي يتناول فنه بالنقد ، يفضي إلى هدم صاحبه ، ما دام هو ، في صدق وإخلاص ، قد أرضى ضميره ، وارتاح إلى حكمه واتبع مسلكا لا شبهة فيه لميل أو هوى .

وكتابة السيرة أو الترجمة لفنان من أهل الفن ، أمانة كبرى ، تستبد بالخاطر ، ولا تترك له مخرجا للراحة إلا أن يكون ذلك عن طريق التنفيذ الكامل لما حمل من أمانة ، وما آلى على نفسه من الوفاء بها .

ولقد عن للناقد الأديب محمد رضوان أن يحمل على عاتقه هذه الأمانة .

وقد تهيأ لي أن أطلع على مخطوط كان توفر على وضعه الأديب الناقد محمد رضوان عن الكاتب والشاعر والناثر الدكتور زكي مبارك ، الذي كان من فرط تنوع إنتاجه بين نثر ونقد وتحليل بالإضافة إلى حصوله على ثلاث شهادات للدكتوراه يتندرون بقولهم عنه «الدكاترة زكي مبارك» !

كما سنحت لي سانحة أخرى بالإطلاع على مخطوط يعده الأديب رضوان عن الشاعر أحمد فتحي ، أحسن اختيار عنوانه «اعترافات شاعر الكرنك» كما اطلعت علة مسودات لدراسات شاملة عن الشاعر على محمود طه والشاعر إبراهيم ناجي والشاعر صالح جودت والشاعر عبد الحميد الديب والشاعر كامل الشناوي ويجمل بي أن أرجئ الحديث عن العملين الكاملين اللذين أشرت إليهما إلى حين تناول وضع محمد رضوان من أدب التراجم ومنهجه فيه .

***

اختار الأديب محمد رضوان هذا اللون من الأدب بعد أن قر في ذهنه أنه مولع به متفان فيه ومخلص في الكشف عن خوافيه مهما كلفه البحث من جهد وعنت .

وإنك لتراه عندما يختار تمثاله الذي يريد أن يلقي عليه الضوء ، قد ملأ يديه وقلبه وعينيه وذهنه بكل ما كان يحيط بالشاعر في حياته إن كان قد قضى ، أو ما يزال يضطرب فيه إن كان من الأحياء .

ولست أغلو إذ أنا قلت أنه يكاد يتنسم نسيمه ويشاركه نبض قلبه وطرفة عينه .

ولدى أسباب تحملني على قولي هذا ، أوجزها فيما يلي من سطور :

(١) أن الأديب الناقد محمد رضوان مخلص في ميله لهذا الفن الذي تعلقت بـه نفســـه ، والـذي لم يزره كطيف خيـال في الكرى ، أو كحلم من أحلام الرغبات المكبوتة التي تغادره عند الصـــباح ، وكأن شـــيئا لم يكن ، بل أنه ليصبح ويمسي ولا شاغل له إلا هذا اللون من الكتابة ، ولا بديل له عنده مهما تنوعت الفنون والآداب من حوله أو فيما يقرأ أو يشاهد أو يطلع .

(٢) أنه صادق في رغبته من اتخاذ الشعراء الرومانسيين مسرحا لأعماله بعد أن شـغلته أعمالهم وأحب فيهم نزعاتهم وامتلأ قلبه إعجابا وإكبارا لفنهم ، وهو يريد مخلصـا أن يخرج أعمالهم على مسـرحه الذي أقامه لهم وحشـد له بجهد وتفان ومشـقة ، كل ما يضـمن لعمله النجاح ، ويلقي من المشـاهدين التصفيق والاستحسان .

(٣) أنه اختار «المنهج النفسـي» في كتابة التراجم ، بعد أن أيقن من حسـن معالجته لهذا اللون الذي يتطلب خصـــائص ذاتية ، يتعين توفرها في أول الطريق ، ثم لا يلبث أن يصـقلها المران من طول المعاناة والسـهر على هذا اللون في سبيل الإجادة والاستحسان .

على أن هذا اللون من أدب التراجم شـاق المأخذ ، وعر المسـالك ، عميق الغور ، فإن من يختاره أن تكون عدته من الإطلاع على خوافي شـعر المترجم له وافية ، ونفوذه إلى أسرار صناعته سليم المأخذ واضح الجادة .

والعثور على مفتاح شخصية الفنان أم عسير المأرب ولا يستجيب إلا لقلة من الكتاب .

وهذا المفتاح كالشفرة السرية التي تكتب بها البرقيات الخطيرة في السياسة أو في الحرب .

وعلى طالب هذا اللون أن يزود نفسـه إلى جانب مطالعاته العديدة في أدب المترجم له ، أقول أن يزود نفسـه بقراءات مسـتفيضـة في علم النفس، حتى يكون حكمه مسـتندا إلى قواعد من العلم ، إلى جانب ما يسـوقه في بحثه من شواهد هذا الفن .

وهو في هذا الشـأن كالطبيب الباطني المعالج ، على سـبيل المثال ، الذي ينجح في الوصول إلى سلامة تشخيصه ، كلما كان إلمامه بعلم النفس واسعا ومحيطا ، ودرايته بأساليب التعليل والتحليل وافية وسليمة .

(٤) كما أنه أحب أن يتخصص في الترجمة النفسـية لشـعراء لم ينصـفهم زمانهم لا لعلة أعمالهم ، ولكن لعلة في زمانهم وأهل زمانهم .

وهذا وفاء أقطع بأنه نادر المثال في وقت وزمن وحين تذهل كل مرضـعة فيه عمن أرضـعت من فرط اللهفة على تحصـيل ما تصـل إليه اليد من مادة ، وليذهب إلى الجحيم غيرها من الأيادي ، ولأم الواهن الهبل !

ومن الصعوبات التي تواجه كتاب هذا اللون من التراجم ، ما أسوقه فيما يلي كمثال فقد قضت محكمة استئناف باريس في شهر مايو عام ١٩٧٠ بتعويض على جريدة «فرانس ديمانش» لأن أحد محرريها نشر عنوان مغني كان يؤثر أن يبقى في الظل بعد أن عشى بصره من ضوء الشهرة ، كما نشرت رقم تليفونه وعنوان منزله الريفي واسمه الحقيقي قبل مزاولته فنه ، وذلك هو بسبيل عرض بعض أعمال الفنان وذكر ماضيه الفني .

وكان الحكم يستهدف إنقاذ الحياة الخاصة من ادعاء الحق في حرية التعبير التي لا يجوز أن تكون إلا بمقدار .

فمن حق المرء أن يكون في مأمن من أي تعد على حريته أو سمعته أو خصوصيته أو رغبته في النسيان .

ذلك أن كاتب الترجمة النفسية ، حرصا منه على استكمال صورة لمن يترجم له ، يغوص وراء ما يمكن أن يصل به إلى الكمال ، مهما كشف خلال بحثه عن جوانب لها خصوصيتها ، ولها احترامها وقداستها .

***

وأعود لأتحدث عن عمل الأديب محمد رضوان الذي تجسد بداية في الكتابة عن الكاتب الشاعر زكي مبارك ، والشاعر والأديب الرقيق أحمد فتحي وقد أغراه بالكتابة عنهما ، انتماؤهما للمدرسة الرومانسية التي خلبت لب المترجم واستأثرت باهتمامه .

وإذا تركنا أمر الوفاء لفنانين لم ينالا حظهما من الشهرة في حياتهما ، وبعد وفاتهما ، حتى لا نستجدي الاستحسان ، ونبتز عواطف الرضا عن فن الأديب رضوان ، بعرض هذه الواجهة الخلقية النادرة الكريمة ، فإنه يبقى أمامنا عمل الفنان خالصا لوجه الفن .

فهو حين يتولى ترجمة حياة الشاعر أحمد فتحي في كتابه «اعترافات شاعر الكرنك» ، نراه يدلف إلى روح هذا الشاعر ، ويتسرب إلى حياته وما اضطرب فيها من حال إلى حال ، ويتشح برداء عصره الذي عاشه ، ويتنسم ما كان يستنشقه ، فجاءت ترجمته كظل الغصن أو رجع الصدى .

وقد حشد محمد رضوان لبحثه كل ما يطمئن له من شتى المصادر والمراجع والمظان ، وقد لمست من لهفته على رد الاعتبار لشاعر قضى دون أن يذكر له أحد فضلا ، ما أشاع في نفسي اليقين من قدرته على ما أخذ نفسه به .

والشاعر أحمد فتحي جدير بأن تتناول شعره أقلام عديدة ، وبحوث فريدة ، يقود هو وشعره هذه الأقلام والبحوث إلى ما ينبغي من وضوح وإبانة .

لقد لمست الجهد الصادق والمشقة البالغة ، والتفاني في إحاطة بحثه بكل ما يعين القارئ على استيعاب ما أراده المترجم من الكشف عن المترجم له ، والأخذ بيد القارئ نحو مسالك سهلة ممهدة ، لا يلمس قاطعها كم من جهد بذله الكاتب في تمهيد هذه المسالك ، كالذي يعمل في صقل الماس ، حتى يراه الناظر في ثوبه الناصع اللألاء ، مبرءًا من كل شائبة ، دون أن يعيروا بالاً لمعاناة من صقل الماس الذي أخرجه فتنة للعيون .

ولعل اطمئناني إلى عمل محمد رضــوان مرده إلى إخلاصــه فيه وصــدقه فيما يروي ، وتكالبه على جميع مواده من أصـــدق المظان . وهذا في يقيني سـبيل قويم ، يتعين عليه أن يسـتزيد منه ، ويعتمد عليه ، ويمضــي على بركة الله .

والكاتب الصحفي الأديب محمد رضوان إذا لم يكن قد تخطى عتبة الشباب فإنه في أدب التراجم النفسـية الذي اختاره واختار التخصـص فيه ، قد جاوز مرحلة الشباب ودلف إلى رجولة تتنسم منها وضوح العبارة ، وحسن التبويب وبراعة العرض ، وصدق الاستنتاج ، إلى جانب الغنى والثراء في المادة التي يصنع منها تمثال عمله .

وأني أطالبه كأمل يبشر بأوفر المحاصيل الفنية ، بأن يداوم على اطلاعه ، وأن يسـتزيد من معارفه ، وأن يقرأ في كل علم أو فن يجده معوانا له في بحثه وأن يتابع ثمرات المطابع والأقلام ، وان يضـــم إلى كل ذلك بعدا عن الميل والهوى ، حتى يجيء عمله مبرءا من كل شبهة لتحيز أو انفعال .

أحمد عبد المجيد

القاهرة في ١٥ مارس ١٩٧١

مقدمة
غزليات الكاتب الجبار

لصقت بالمفكر العملاق ، والأديب الشاعر الناقد عباس محمود العقاد تهمة أنه رجل جامد حاد لا مجال للعواطف والمشـــاعر الرقيقة في حياته الجادة ، الحافلة بعشرات الأعمال الفكرية والفلسفية والشعرية .

وأصبحت هذه الصفة تهمة في حياته كما استمرت بعد رحيله عنا في ١٣ مارس ســـنة ١٩٦٤ ، فما مدى صـــحة ذلك الاتهام؟ وهل كانت حياة المفكر العملاق يبابا لا أثر للعواطف والمشاعر الإنسانية فيها ؟

إن هذا الكتاب جاء ليجيب عن هذه الاتهامات ويظهر لنا جوانب مجهولة من حياة العقاد القلب العاشق الرقيق الذي يذوب رقة وحنانا وضعفا يصل إلى حد البكاء ، وكيف لا وهو الحســاس المحب الذي لا يجد تناقضــا مع اعتزازه بكرامته كأديب وكبريائه كإنسان !

إذا طالعنا حياة العقاد ومسـيرته الأدبية فماذا نجد ؟ نجد أديبا عصــاميا بنى بنفســه بنفســه ، وصــعد السـلم من أوله حتى وصـل إلى أعلى ذرى الفكر في مصــر والعالم العربي والإســلامي وقد ولد عباس محمود العقاد في ٢٨ يونيه عام ١٨٨٩ بمدينة أسوان بصعيد مصر ، كان أبوه يعمل موظفا بسيطا بإدارة المحفوظات ، وقد نشــأ الطفل عباس العقاد وعقله أكبر من ســـنة ، والتحق عباس بإحدى المدارس الابتدائية وتعلم فيها اللغة العربية والحســاب والعلوم ، وحصل على شهادتها سنة ١٩٠٣ وألم عباس بقدر غير قليل من مبادئ اللغة الإنجليزية حتى نال الشــــهادة الابتدائية بتفوق فأتـاح لـه ذلك قراءة الأدب الإنجليزي مباشــــرة ، وبعد أن أتم تعليمه الابتدائي عمل في وظيفة كتابية ما لبث أن تركها ، وتكررت زياراته للقاهرة وقويت صـــلته بالأدب والفن ولم تستطع الوظيفة أن تشغله عنها البتة وأصبحت علاقته بالصحف علاقة الكتابة من منازلهم على حد تعبيره .

وإذا كان نتاج العقاد الفكري والأدبي متعدد الجوانب ما بين دراســـات إسلامية وفلسفية وأدبية ، وما بين مقالات أدبية وقصائد شعرية وقصة وحيدة هي «سـارة» فإني تركت كل هذه الجوانب للنقاد والباحثين الذين أوسعوا هذه الجوانب بحثًا ودراســـة ونقدا .. لكني اخترت الجانب العاطفي من حياة العقاد وبالأخص المرأة في حياة الكاتب العملاق الذي وصــفه سـعد زغلول بالكاتب الجبار حتى نلمس هذا الجانب الإنسـاني الدفئ ، وتلك العواطف الجياشـة التي تختفي وراء صـرامة الفكر ، وجهامة الفلسـفة ، وشـراسـة القلم الجبار الذي طالما صـال وجال في العديد من معارك الأدب والفكر والسياسـة والدين زودا عن قيمه الذي اعتز بها وأفكاره التي تمسك بها حتى آخر نسمة في حياته .

وقد آثرت الاسـتعانة بذكريات وشــهادات معاصــريه وتلاميذه من الأدباء الذين كشــفوا عن جوانب مجهولة من حياة العقاد ، والنســاء الملهمات اللائي دخلن حياته وتركن أثرهن في حياته وأدبه .

وكانت أشهر النساء في حياته ثلاث نساء هن :

مي زيادة ، وأليس داغر (التي سماها سارة) وهنومة خليل (الممثلة الشهيرة باسم مديحة يسري) وكان من نتاج ذلك كله العديد من الرسائل الأدبية والقصائد الشعرية وقصة طويلة تعد بحق قصته العاطفية مع سارة .

وفي مجال التعرف على غراميات العقاد المجهولة كانت لي لقاءات مع صديقه الأديب محمد خليفة التونسي بمكتبه بمجلة العربي الكويتية في صيف عام ١٩٨٥ وروى لي الكثير من الأسرار والجوانب الخفية في حياة العقاد التي أتيح له معرفتها بحكم صداقته الحميمة بالعقاد وثقته فيه باعتباره موضع أسراره .

كما روى لي الكاتب الكبير أنيس منصور تلميذ العقاد وأخلص تلاميذه ومريديه بعض تلك الجوانب والتي رواها الأستاذ أنيس في كتبه : يسقط الحائط الرابع ، في صالون العقاد ، شارع التنهدات ، ولم أشأ أن أتحدث مباشرة للقارئ عن كل ما عرفته ولم أذكر بعض الأسرار في كتابات بعض من اقتربوا من العقاد أو عرفوه أو عاصروه فتركتهم يتحدثون عن هذا الجانب الحساس من حياة هذا المفكر العملاق .

وأزعم أنني قدمت في هذا الكتاب لأول مرة شخصية «أليس داغر» الحقيقية التي أحبها العقاد ، واسمها الحقيقي وعائلتها من أم وأب وزوج ، وكيف كانت صحفية ومترجمة .

ومهما يكن الأمر فإن ما ألهمته هذه الغراميات للعقاد يظل من أجمل وأصدق ما أنتج كاتبنا الكبير في المجال العاطفي الوجداني شعرا ونثرا .

لقد عاش العقاد للفكر وأخلص لقلمه وعاش راهبا في محرابه يقرأ ويكتب لنا روائع آثاره الفكرية والأدبية وأصبح علما من أعلام الفكر العربي المعاصر ، وفي غمرة انغماسه في عالم الفكر والأدب نسى حياته الخاصة ، ورفض أن يشغله الزواج والأولاد عن إخلاصه لعالم الفكر والأدب الذي أحبه وملأ قلبه وكيانه .

***

وبعد ، فقد آثرت أن أقدم للقارئ قلب المفكر العملاق العقاد ، وكيف أحب وعشق وماذا فعلت به آلام الشك والغيرة والشوق والحنين .. وكيف منعته الكبرياء من الاستمرار في قصص حبه ، لأنه وضع كبرياءه فوق قلبه وعاطفته .. ومن هنا كانت مأساة هذا المفكر الكبير الحساس الذي أحب وعشق لكن كبرياءه وضعها قبل كل شيء حتى ولو داس فوق قلبه وعاطفته ! أنها محاولة للاقتراب من قلب هذا الكاتب الجبار :

ذلك القلب الحساس العاشق ، الذي أحب وبكى وتألم .. لكنه ظل في كل الأحوال محتفظا بصلابته وكبريائه وقوة روحه !

إنها قصة قلب الكاتب الجبار : عباس محمود العقاد !

***

وإذا كانت صــورة العقاد في فكره الفلســفي والنقدي والتاريخي تعطينا صــورة الجدية والعراقة والكبرياء والعناد والاعتزاز بكرامته ، فإن شــعره الوجداني يعكس عاطفته الجياشــة وقلبه الخفاق بالحب والوفاء ، وإحســاسـه الفياض بالحســن والخير والجمال ، فهو يناجي الطيور والزهور ومظاهر الطبيعة علها تشاركه مشاعره العاطفية وأحاسيسه المرهفة .

والأصــل عند العقاد الحياة الشــاعرة لا الحياة العاقلة ، والحقيقة الباطنة تدرك بوجدان الشاعر وقلبه لا بمنطق العلم ورأسه .

وفي رؤية د. عبده بدوي في العقاد ، يرى أن الشعر هو الفن الأول للعربية ، وأنه أسـبق من النثر لأنه فطرة والنثر تعليم ، ولأنه تناقض بين القدرة على العمل ، والقدرة على القول ، ثم إنه كان يملك أذنا مضبوطة على إيقاع الكلمة العربية ، ويرى أن الشعر ضرورة للإنسان الناطق مادام ينطق ويعقل ويتربى بالنطق في مدارج الكمال ، فهو تعبير عن النفس الإنسانية في الطبيعة والحياة ، ثم إنه يعمق الحياة فيجعل الســاعة من العمر ســاعات ، وهو لا يفنى إلا إذا فنيت بواعثه ، وما بواعثه إلا محاسن الطبيعة وخوالج النفس ، ولو كان للعقاد أن يختار الخلود في صفة واحدة من جملة صفاته لاختار منها الشاعر .

وقد اسـتعد لهذا بالقراءة المسـتوعبة في تراث الحركة الرومانتيكية شـعرا ونقدا ، وبالقراءة الجادة في العربية ، وبخاصـة الذين كتب عنهم كابن الرومي وأبي نواس، وعمر بن أبي ربيعة ، وجميل بثينة ، والمتنبي ، وأبي العلاء ، ودعبل ، وبشــار، وابن زيدون ، وابن حمديس .. إلخ ، واهتمامه الخاص كان بابن الرومي لأنه معبر عن وجهة نظره في الشعر ، فديوانه ترجمة باطنية له وفنه جزء من حياته ، فهو – كما جاء في التمهيد – الشــاعر من فرعه إلى قدمه ، والشــاعر جيده في رديئه، والشــاعر فيما يحتفل به ، وفيما يلقيه على عواهنه .

كان العقاد ذا طبيعة حســية ، لا نبغي بذلك القول بأنه كان ولوعا برغبات الحس، ولكن أنه كان يستطيع الإحساس بالأشياء ، وتبين الألوان والظلال ، وتشمم الروائح وتلمس الأشكال ، وتلك موهبة بعض الشعراء مثل جون كيتس ، وابن الرومي ، والشــعراء من هذا القبيل يوفقون حين يعتمدون على هذه الطبيعة الحسـية في بعث الحياة في الكائنات ، وفي إعادة خلقها خلقا شـعريا ، بحيث يستطيعون حين ينمون هذه الطبيعة ويتعهدونها أن يصلوا إلى مستوى من الرؤية الحيوية للكون ، فكأن الكون في تخلق مسـتمر وصـيرورة دائمة ، بل ومزاوجة ومقاربة وتوالد ، وكانت هذه الرؤية الحســية إحدى زاويتى رؤيته ، وهي التي كان يتحدث بها في أناشيد الصبوة والغرام .

ويرى صــلاح عبد الصـبور أنه إذا كان الشــاعر هو فن ، نعرفه بشـعره ، فالعقاد شاعر من شعراء العربية المتميزين . ذلك لأن الناقد يستطيع حين يقرأ شـعر العقاد أن يميزه عن شـعر سـابقيه ومعاصـريه ، وأن يدرك أن لهذا القلم المعبر رؤيته الخاصة ، ولغته المتميزة وموضوعاته الأثيرة .

وتلك ثلاث خلال هن من إمارات الشاعرية ولعل امتزاج العنصرين اللذين طمح العقاد إليه تحقيقهما وهما :

١-الرؤية الحسية التي كانت من طبعه .

٢-والفلسـفة التي كانت تطبعه لم يتم إلا في أعماله الشـعرية الفنية خاصـة مطولاته القصـصـية مثل قصـيدته «ترجمة شـيطان» التي عالجت بعض الأفكار الفلسفية .

وقد اختلف النقاد حول تصنيف شاعرية العقاد ، بين وصفه بالشاعر المفكر الفيلسوف ، وبين الشاعر الوجداني الفنان ، وإذا كان الشاعر الفيلسوف يحتاج إلى ملكة لا يحتاج إليها الشاعر الحساس ، فهو يحتاج إلى ملكة الرؤية الشاملة أولا ، ثم يحتاج بعدها إلى ملكة إدراك المفارقة والمشابهة .

لكن رؤية العقاد الحسية فتحت أمامه أوسع الآفاق ، فقد قدم لنا أجمل شعره الوجداني المفعم بالأحاسيس الإنسانية عندما تنبع من الغنائية العذبة ، وبساطة الرؤية وحسيتها .

لكن الشـاعر فاروق شـوشـة (١٩٣٦-٢٠١٦) يخالف بعض النقاد الذين يرون أن شـعر العقاد هو شـعر الفكرة لا شـعر التجربة بالمعنى الرومانسـي ، شـعر الخاطرة التي تصـل بالجزئي إلى الكلي ، وتعبر بالمسـافة بين المحدود واللامحدود، وتقبع في المسـافة بين المتناقضـات العَرَض الظاهر والجوهر الخبيء وتلعب على الجدل بين المتناقضات – مجال الولع الشديد عند العقاد – بمنطقه وقدرته على الجدل والمحاجّة .

حيث يرى فاروق شـوشـة أن للعقاد شـعرا عاطفيا كما اعتدناه من شـعراء العاطفة والخيال والتدفق الشـعري ، مؤكدًا أننا نجد في شـعر العقاد حديث الحب ، ومجالي الطبيعة وصـبوات القلب وجموح الريشـة المصـورة ، وهو الشـعر الذي تهزنا وفرته عند شـعراء أبوللو : إبراهيم ناجي ومحمود حسـن إسـماعيل وعلي محمود طه وأبي القاسـم الشـابي ، كما نجده غزيرا في شـعر المهجريين من أمثال إيليا أبي ماضـي وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة - أقربهم إلى روح العقاد الشعرية ؟

حيث نجد مساحة كبيرة من شعر العقاد تكاد تجعل منه شاعرا رومانسيا ، يحلق مع شعراء الرومانسية في آفاقهم الفسيحة .

وقد أصدر العقاد خلال مسيرته الأدبية عشرة دواوين هي :

يقظة الصـباح (١٩١٦) ، وهج الظهيرة (١٩١٧) ، أشـباح الأصـيل (١٩٢١) ، أشـجان الليل (١٩٢٨) ، هدية الكروان (١٩٣٣) ، عابر سـبيل (١٩٣٧) ، وحي الأربعين (١٩٤٢) ، أعاصـير مغرب (١٩٤٢) ، بعد الأعاصـير (١٩٥٠) ، ما بعد البعد (١٩٦٦) ، وكل هذه الدواوين تقدم الوجه الشعري للعقاد : شاعرا مفكرًا فيلسوفًا ، وشاعرًا وجدانيًا عاطفيًا .

***

وقد آثرت في هذا الكتاب أن أقدم للقراء العقاد الشـــاعر الوجداني العاطفي الذي استلهم شعره من تجاربه العاطفية ، ومشاعره الإنسانية الحساسة وحيث عكست قصائده في هذا المجال قلب ووجدان عباس العقاد الإنسان .

وإنني إذا أقدم هذه الدراســـة عن العقاد العاشـــق وتجاربه العاطفية العميقة فإنني أقدم معها هذه المختارات – من دواوين العقاد – محاولة لفتح الباب أمام قراء هذا الجيل ليعرفوا العقاد الشـــاعر على حقيقته ، وليقتربوا من نماذجه الجميلة وإبداعه الباقي ، وليصـــافحوا فيه لغة غير تلك التي عرفوها عنه في دراســـاته وترجماته وعبقرياته ، ندّية بماء الشـــعر ، مشـــتعلة بصـــهد الحياة ووقدها اللافح ، مبتلة – في أحايين كثيرة – بانهمار الدموع . على حد تعبير الشاعر فاروق شوشة .

***

وبعد ، فإن هذا الكتاب يجمع بين تجارب العقاد العاطفية من خلال النســـاء اللائي أحبهن العقاد وكانت له تجارب حب عميقة ألهمته شـــعره الوجداني العـاطفي الـذي عكس أعمـاق نفســـه ، وعـاطفتـه المتقـدة ، وقلبـه الرقيق ، ومشـــاعره الإنســـانية التي تذوب عشـــقا ورقة وعذوبة، وبين اعتزاز العقاد الأديب والمفكر والإنسان واعتداده بذاته وبكرامته حتى ولو كان الثمن ضياع الحب ، وتحطم القلب العاشق الهيمان!

في هذا الكتاب سنجد العقاد العاشق ، المحب ، الإنسان.

محمد رضوان

القاهرة يناير ٢٠١٨

الفصل الأول : حياته وثقافته

ظمـآن ظمـآن لا صـــوب الـغمـام

ولا عـذب المقـام ولا الأنـداء ترويني

حـيـران حـيـران لا نـجـم الســمـاء

ولا معـالم الأرض في الغمـاء تهـديني

يـقـظـان يـقـظـان لا طـيـب الـرقـاد

يـدانيني ولا ســمر الســمـار يلهيني

العقاد

في ٢٨يونيه سنة ١٨٨٩ ولد عباس في مدينة أسوان بصعيد مصر ، وكان أبوه يعمل موظفًا بسيطًا في إدارة المحفوظات ولكنه استطاع مع ذلك أن يدبّر شئون أسرته لما عرف به من التدبير والنظام .

نشأ الطفل عباس وعقله أكبر من سنه ، فعندما لمس حنان أبويه وعطفهما عليه قدّر لهما هذا الشعور وظل طوال عمره يكن لهما أعمق الحب .

وبادر أبوه – وعباس بعد طفل صـــغير – فتعهده حتى تعلم مبادئ القراءة والكتابة فراح يتصفح ما يقع تحت يديه من الصحف والمجلات ويستفيد منها ثم لحق بإحدى المدارس الابتدائية وتعلم فيها اللغة العربية والحساب ومشاهد الطبيعة وأجاد الإملاء ، وحصل على شهادتها سنة ١٩٠٣ .

وحدث أن زار المدرســة الإمام الشــيخ محمد عبده وعرض عليه مدرس اللغة العربية الشيخ فخر الدين كراسة التلميذ عباس العقاد ، فتصفحها باسمًا وناقش العقاد في موضـــوعاتها ثم التفت إلى المدرس وقال : «ما أجدر هذا الفتى أن يكون كاتبًا بعد ! » .

وألّم عباس بقدر غير قليل من مبادئ اللغة الإنجليزية حتى نال شـــهادة الابتدائية بتفوق فأتاح له ذلك قراءة الأدب الإنجليزي مباشــرة . وقال حينئذ عن نفسـه : «عرفت قبل أن أبلغ العاشـرة أني أجيد الكتابة وأرغب فيها ، ولم ينقطع عني هذا الشــعور بعد ذلك إلى أن عملت بها واتخذتها عملاً دائمًا مدى الحياة » .

وبعد أن أتم عباس تعليمه الابتدائي عمل في وظيفة كتابية لم يلبث أن تركها ، وتكررت زياراته للقاهرة وقويت صلته بالأدب والفن فيها ولم تستطع الوظيفة أن تشغله عنهما ألبتة وأصبحت علاقته بالصحف – على حد قوله – علاقة الكتابة من منازلهم . ولكنه أحس – بعد فترة – أن الوظيفة أضيق من أن تتسع لطاقاته فتركها وتفرغ لعمله في الصحافة ، وأقبل على تثقيف نفسه بنفسه ثقافة واسعة .

وفي سنة ١٩٠٥ عمل بالقسم المالي بمدينة قنا ، وبدأ العقاد إنتاجه الشعري مبكرًا قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وفي سنة ١٩٠٦ عمل بمصلحة البرق ، ثم ترك عمله بها واشترك سنة ١٩٠٧ مع المؤرخ محمد فريد وجدي في تحرير «مجلة البيان» ثم في «مجلة عكاظ» في الفترة بين سنة ١٩١٢ حتى سنة ١٩١٤ ، وفي سنة ١٩١٦ اشترك مع صديقه إبراهيم عبد القادر المازني بالتدريس في المدرسة الإعدادية الثانوية بميدان الظاهر . وظهرت ديوانه الأول «يقظة الصباح» عام ١٩١٦ ، ونشرت أشعاره في شتى الصحف والمجلات . وتوالى صدور دواوين شعره : وحي الأربعين – هدية الكروان- عابر سبيل ، وقد اتخذ فيها من البيئة المصرية ومشاهد الحياة اليومية مصادر إلهام . وخاض هو والمازني معارك شديدة ضد أنصار القديم في كتابهما «الديوان» هاجما فيه شوقي هجومًا متجنيًا . وفي إنتاجه النثري كتب : الفصول – مطالعات في الكتب والحياة – مراجعات في الأدب والفنون.

ثم كتب سلسلة سير لأعلام الإسلام : عبقرية محمد – عبقرية الصديق – عبقرية عمر – سيرة سعد زغلول ، كما اتجه إلى الفلسفة والدين فكتب : الله – الفلسفة القرآنية – إبليس .

توفي العقاد في الثاني عشر من مارس سنة ١٩٦٤ بعد أن ترك تراثًا كبيرًا .

ومن مؤلفاته :

ديوان العقاد – العبقريات – الشيوعية والإنسانية – أبو نواس – جحا الضاحك المضحك ونشر له بعد وفاته : حياة قلم – أنا - رجال عرفتهم .

وقد كان لرحيل العقاد أصداء واسعة في الوسط الأدبي والثقافي في مصر والعالم العربي ، فسارع صديق عمره الحميم الأديب والشاعر عبر الرحمن صدقي (١٨٧٩ – ١٩٧٣) بكتابة انطباعاته وذكرياته ثمرة خمسين عامًا من الصداقة والود المتبادل ، فقال :

« لا أذكر حين أذكر حداثتي الأولى أني كنت في يوم من الأيام خلو من الإعجاب ببطل من الأبطال ، كما لو كان إله في صورة إنسان ، فقد عشت في صباي مع ملاحم «أبو زيد الهلالي » وحكايات حمزة البهلوان وفيروز شاه ، وكان فكري شاردًا يحلم بهم على الدوام ، سيان كنت في البيت خاليًا بنفسي بين الجدران. أو كنت في المدرسة بين يدي المدرس وفي وسط الأقران ، بل إنني كنت أسير في الطريق العام أشبه ما أكون بالنائم الهائم أثناء نومه من فرط غشيان هذه الأحلام التي كنت أحلمها عن هذا البطل أو ذاك من أبطالي العظام ، فهو ماثل في خاطري لا يفارقه ، ماثل كأنه إله في صورة إنسان .

وقد مرت الأيام وكبرت على الخرافات ، فتركت بطبيعة الحال مطالعة هذه الحكايات ، وهكذا فارقت أبطالي ، ولكن عبادة البطولة لم تفارقني .

ومن ثم كنت سعيدًا حين أتيح لي ملاقاة العقاد في يوم من الأيام منذ نصف قرن من الزمان ، وكان ذلك في منزل صديقه إبراهيم عبد القادر المازني أستاذي في الترجمة أيام التلمذة في المدرسة الخديوية ، وكنت قد ذهبت أعوده حين رضت قدمه وهناك راعني من العقاد قامته الفارعة ، وسمت الوقار في مشيته وجلسته ، وسعة علمه وإحاطته وما يبدو ظاهرًا للعيان من اعتداده وقوة إرادته ، ولم ألق العقاد بعدها إلا لماما في فترات متباعدة عند أستاذي المازني دائمًا ، وأخيرًا قامت بنفسي رغبة ملحة في القراءة له . فأخذت أستخبر عما نشر له ، وقتئذ من نثر وشعر ، فكان كتيبًا صغيرًا هو خلاصة اليومية الذي صدر عام ١٩١٢ ، ويشتمل على خلاصة أفكاره في شبابه وهو اليوم في نظري بمثابة الأصول التي تفرعت منها سائر هذه الغابة الفكرية الفلسفية التي انتهى إليها نتاجه طوال السنين حتى وفاته ، ثم اتصلت أسباب المعرفة بيننا فأهداني كتيبًا آخر هو « الشذور » وهو من الطرائف ذات الطابع الأدبي الفني عام ١٩١٥ ، وبعدها ديوانه الأول عام ١٩١٦ ، يليه مجموعة لبحوثه الكبرى وهو الفصول عام ١٩٢٢ ، وهنا تجلت لي مواهب العقاد الشاعر والعقاد الباحث الناقد .

وقد كنت وأنا أقرأ شعره في الديوان الأول كأنني داخل في عالم مسحور ، بما يتقلب على عيني من المشاهد التي أضفى عليها خياله ما يعجز عنه الكثيرون غيره من رونق الجمال وروعة الخيال .

***

أما الفصول فقد وقفت حيالها وقفة المعجب المتعجب من متانة حججها وتماسك منطقها كأني بإزاء هرم من أهرام الجيزة يبدو من وثاقة التركيب كأنه كتلة واحدة ، حيث وضع كل حجر من حجارته بحساب سابق مقدور ، فلو أراد الباني إعادة بنيانها مرة ثانية لألفينا كل حجر مستقرًا في المقر الذي كان فيه ، وكل طبقة مرتكزة على الطبقة التي كانت تدعمها ، وذلك أن هذا الوضع دون غيره هو الأبلغ تعبيرًا عن المعنى ، والأوفى بالغرض المطلوب.

وعندها تعاظم العقاد في نفسي ، وصار منى بمثابة ما كنت أعبده في الصغر من أبطال الحكايات والسير وقد تمادى بي ذلك حتى اتخذته المعيار الصادق للتفرقة بين الناس ، فكان الناس عندي فريقين : الذين يعرفون قدر العقاد والذين لا يعرفون قدره ، ثم جعلت رسالتي في الحياة أن اكتب عن كل كتاب يظهر للعقاد ، وأن تكون حياتي الأدبية وقفًا على الدعوة له ، ولم يكن هذا بدافع من الصداقة ، ولكنه الإيمان بالرسالة .

***

ولقد وقعت النبوة بيني وبين العقاد أكثر من مرة ، ولكن ذلك لم يؤثر في حماستي للدعوة ، وأذكر أنه اتفق في أثناء نبوة من هذه النبوات أن ننشر للعقاد كتابًا له ، فتناولته على نحو ما كنت أتناول به رسائل كتبه من الحفاوة والتحليل والتبجيل ، فعجب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي لذلك . وكانت بينه وبين العقاد مناظرات وخصومات واتفق أن لقيني ، فقال بعد أن أثنى على مقالي : « فيم هذا التفاني وأنت فيما قرأته لك خير من العقاد » فصحت في وجهه معاتبًا «لا تخدعني عن نفسي» ولم أكن أعرف أن هذه الواقعة بلغ علمها إلى العقاد ، حتى ذكرها لي في مجلس من مجالسه قبل أشهر من وفاته لقد بلغ من دهشة الرافعي من أن يبلغ إخلاص أحد المريدين إلى هذا الحد ، أن بادر إلى العقاد من ساعته يروي له الواقعة ويقول : «الحق أقول يا عقاد أن أنصارك فئة قليلة ، ولكن واحدهم بمقام ألف » .

ولكنني أعود فأسجل على نفسي بعد هذه الظاهرة ، وهي أنه حين اتسعت شهرة العقاد وكثر الكاتبون عنه والمعجبون به ، انقطعت عن الكتابة عنه ، وقلت زياراتي له أما دفاعي عن ذلك فهو أني لم أذكر نفسي إلا بعد أن ذكره سائر الناس . ولا أقول هذا كالمدل بما كان مني ، فإن العقاد كان لا محالة غنيًا عني ، فإني أعتقد أن فضله كان كفيلاً بالذيوع على كل حال ، فهو ليس من فريق المستضعفين بل من فريق الأقوياء الذين يأخذون حقهم غصبًا وغلابًا . وأما عن السبب فيما ذكرته من وقوع النبوات بيني وبين العقاد ، فهو لا يعدو أهون الهنات ، ومن ذلك أني كنت أواعده على اللقاء في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه ، فإذا حل الموعد ولم أحضر ، ترك المقهى ، ولما كانت لم تحن ساعة انصرافه إلى البيت أو العمل ، فإنه يجلس في المقهى المقابل اثباتًا لتأخيري واحتجاجًا على تقصيري ، كان العقاد ينفعل بمثل هذه الصغائر انفعاله للكبائر ، ولكن كان يلطف من وقع هذه الانفعالات عندي أني كنت أنظر إليها نظرة فنية ، فأرى أعصابه حين ينفعل كأنها أوتار القيثار في يد العازف الموسيقار «باجانيني» ، الذي كانت أوتار قيثاره في انفعاله تتقطع الواحدة بعد الأخرى حتى لا يبقى غير وتر واحد ، ولكنه مع ذلك يزيد عن سائر الأوتار كل ما يفور من ثورة في نفس العازف الموسيقار من أجل هذا لم أكن أنصرف على أثر هذه الثورات وأنا مبغض للعقاد ، كما قد فعل غير واحد ، بل كنت أعود إلى لقائه ، بيد أنني في إحدى هذه الثورات آليت على نفسي الانقطاع عنه ، بعد أن أقنعت نفسي بأن الجوهر واللباب هو كتبه وما دمت عاكفًا على مطالعة ما ينشره والإفادة منه فلست من الخاسرين ومع ذلك لم تكد تعبر بي أسابيع حتى شعرت بنقص في غذائي الروحي ، فقد اكتشفت أن كتب العقاد لا تغني عن شخصه فالعقاد حين يتحدث تشترك في حديثه أسارير وجهه ، ويصاحب نبرات صوته ما يناسبها من خلجات الجسد وتلويحات اليد ، فضلا عن وميض العين ، ولا تزال هذه كلها متعاونة على توكيد الفكرة عند السامعين ، حتى أنني كنت أحس عند خروجي من مجلسه الأدبي أن رأسي الذي بين كتفي صار أثقل وزنًا وأنفي – وهو ليس بالصغير أكثر شموخًا وأنفة وقلبي – وهو ليس بالبارد – أشد اتقادًا ، وعالمي أبعد اتساعًا ، فلا أطيق العودة توا إلى البيت استكراهًا لضيق الجدران ، فأعمد إلى السير على الأقدام حتى يطول بي البقاء في رحاب الفضاء .

يضـــاف إلى ذلك أن العقاد ليس من ذلك النوع من الكتاب الذين لا تزيد معارفهم على ما تقرؤه في كتبهم لاقتصادهم في المطالعة على ما فيه سد الحاجة إليها في الموضوع الذي بين أيديهم ، أما العقاد فهو لا يطلع استيفاء لموضع بين يديه ، بل يدافع ما عنده من روح الاستطلاع والشوق – ذلك الشوق المنزه عني بالمصـــلحة – وإلى المعرفة في أعم معناها وأبعد مداها ومن ثمة كان حديثه في مجالســه يمتد إلى مواضـيع شـتى لم يتعرض لها في كتبه مثل الشـاعر الألماني هيني مثلا ، فهو لم يكتب عنه لا لشـــيء إلا أنه أعز على قلبه من أن يقنع في الكتابة عنه بالمجال الضـــيق والوقت المحدود ، أو لأنها موضـــوعات من قبيل المعارف التي يتزود بها لمعرفة نفســـه والكون الذي حوله ، وهي عند العقاد معارف لابد من معرفتها وإن كان لا حصـــر لها وقد كان يغني الجالس إليه عن الرجوع إلى أغني الموسوعات في سائر الموضوعات .

ويضيف عبد الرحمن صدقي:

وكثيرًا ما كان يقدم على مجلس العقاد علماء متخصـصـون في دراسـات بعينها ، كالمواريث في الشـــريعة الإســـلامية أو فلســـفة فيلســـوف بعينه من الفلاسفة الأقدمين والمحدثين ،أو في مدارس التصـوير على اختلافها ، أو في أحدث النظريات الجمالية ، أو في الأبحاث القضـــائية أو في حقبة بذاتها من الأحقاب التاريخية ، أو في نشأة الإنسان قبل التاريخ أو في التحليل النفساني على مذهب هذا أو ذاك من علمائه ، وغير ذلك كثير . فقد كان العقاد عند ذلك يدخل مع كل من هؤلاء في تفاصـيل ودقائق تدل على ما له من سـعة التحصـيل فيها جميعًا وهذه المزية العظمى للعقاد أســـعفته فيها قوة ذهنية جبارة ، مع قوة حافظة جبارة مثلها ، ولا أبالغ إذا قلت أن هذه المباحثات التي كانت تدور في المجلس لا يدور مثلها في أية قاعة من قاعات المحاضـــرات في الجامعات ، فقد كان البحث ينتقل بين موضـــوعات جد مختلفات ، كأنما المجلس ملتقى بحار ومحيطات من المعرفة يعتلج ويتضارب فيها من التيارات وأمام هذا الذي لمسته طول هذه السـنوات من العقاد على طلب المعرفة وما حققه من الإحاطة الشـاملة توارد هذان البيتان على خاطري في وصفه :

أســـتـاذنـا في كـل مـا يعقلـه   يقـل بين النـاس من يعـدلـه

ولا أحب أن يسبق إلى الأوهام أن العقاد كان ممن يسمونهم حضنة العلم ، بمعنى الجمع والتحصيل فحسب ، كلا ، إن هذا الجمع والتحصيل كله ، كان عند العقاد مادة الفكر المنفعل الفعال ، ومن هنا ما يتميز به من صفة الحياة والابتكار في كل ما يكتبه .

والعقاد لم يكن مفكرًا فحســـب ، بل هو قبل كل شـــيء فنان يحب الجمال في الطبيعة والإنســـان .. وقد لازمته عدة ســـنوات ، فكان خير رفيق في النزهة في الرياض والخلوات لا يمل النظر إلى وجه الطبيعة يطالع صـــورها الظاهرة ، ويلمس ما وراءها من المعاني والآيات ، وهو ممن يســـتحبون الصـــمت في محرابها ، فإذا تحدث فإنه يتحدث لماما، وبالذي يتفق مع المنظر المحيط ، فلا يكون حديثه شـــاغلا عنه بل مؤكدًا له ، والعقاد يأنس بكل شـــيء في الطبيعة ، حتى الصحراء الجرداء التي يقول فيها :

ومـا ســـكنتهـا الوحش إلا لأنهـا   أحـب إليهـا من جوار بني آدم

ومن هذا القبيل ما كان من سكنى العقاد «صحراء الإمام الشافعي» من المدرسة الإعدادية مع الأستاذ في وقت من الأوقات عندما استقال المازني لخلافهما مع ناظرها على الرغم مما كانا عليه من ضيق اليد ورقة الحال .

أما عبادة العقاد للجمال والإنسان فإنها لا تحتاج إلى بيان ، ومهما قيل عن شعراء الغزل ، فإن غزل العقاد يفوقهم جميعًا أو على الأقل يفوق معظمهم ، وهو في غزله يمزج بين الحسية والصوفية مزجًا يسكر به الحس وتسمو به الروح ، ومن أمثلة ذلك هذه الأبيات التي لا تسمعها وألا يخيل إليك أنك في حلقة من حلقات الذكر ، حيث يردد المنشد ترانيم الحب وقد غلب عليه الوجد الصوفي :

ناجني واذكر حبيب ... النفس يا خير ثقاتي

ودع التلميح واجهر ... باسمه دون تقات

آه لو تعلم ماذا ... في اسمه من عزمات

أترى الأحرف فيه ... غيرها في الكلمات!

أحرف من رقة الكهان ... أو شدو الصلاة

أحرف من نفحة الورد ... ومن روح السبات

تنكر السحر وهذا ... بعض أسرار اللغات!

ردد الاسم ، وكرر ... وصفه الحلو مئات

صفه لي ، صفه ، وما ... كان بمجهول الصفات

وهذا نشيد مفرغ في مقاطع قصيرة بديعة التقسيم حلوة التنغيم ولكن موسيقية هذا النشيد ليست في مبناه وحده ، بل في معانيه وأفكاره التي تحولت في نشوة الحب إلى معان وأفكار موسيقية تشهد للشاعر الفنان برهافة الحس ولطافة الوجدان .

والحب عند العقاد يمنح الفاني في دنياه الفانية نفحة من الخلود . وفي هذه المقارنة بين الحب والخلود يقول العقاد :

ما الحب ؟ ما الحب إلا أنه بدل ... من الخلود ، فما أغلاه من بدل!

نزهى به حين يزهى الخالدون بما ... نالوه من أبد باق ومن أزل

داموا ، فلما تقاضينا الدوام لنا ... قالوا لنا ، حسبكم بالحب من أمل

وما دام الحب كذلك عند العقاد ، فهو ليس من قبيل الحب الذي يعدو في سطحية ملامسة جلدين أو هو على الأكثر معانقة جسدين ، بل هو أبعد من ذلك وأسمى وما كان العقاد ليرضى بحب غير هذا الحب العميق الرفيع ، كما يدل على هذا رفضه ما عداه في قوله :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى وارتاد فيك اللهو بعد التعبد

وألقاك جسمًا مستباحًا، وطالما لقيتك جم الخوف جم التردد

إذا لم يكن بد من الحان والطلى ففي غير بيت كان بالأمس مسجدي

وإذا كنت قد أطلت القول في هذا الجانب العاطفي من العقاد ، فقد فعلت ذلك متعمدًا ، حتى تعرف المرأة عندنا خطأها الكبير في زعمها أن العقاد ممن يحطون من قدرها ، وهي عنده – كما رأينا – كعبة الوحي والإلهام .

كذلك كان من بواعث هذه الإطالة في تلك العاطفة عند العقاد اتجاه الكاتبين عن العقاد إلى التفكير عنده دون غيره من الصفات ولو كان ذلك اعتقادًا منهم بأن ذكر هذا الجانب الفعلي في العقاد هو المناسب لوقار السن في حياته ثم لجلال الموت بعد وفاته لسلمت بهذا والتمست العذر ولكن الواقع أنه لا يزال هنالك زعم ظل يروجه البعض وهو أن العقاد رجل عقل ، وليس بذي عاطفة وقلب ، وإلى هؤلاء نسوق هذه الأبيات للعقاد ، وليس يقدح في إيمانه بها أنها من ديوانه الأول ، أي من شعر الشباب :

كن بالخوائج حيا ، فالحجى جدث لربه ، ووقار الحلم أكفان

وإنما المرء يحيا في خوالجه وليس يحييه في الألباب رجحان

ونحن إذا أردنا – بعد ما قدمناه – مفتاح السر إلى شخصية العقاد ، وجدناه في عمق الشعور بالحياة في نفسه ، وبالسكون كله حوله ، وعلى هذا الشعور العميق الشامل بالحياة ، يقوم إيمان العقاد بالحياة وحرصه على تعميقها بالمعرفة والحب وما يتصل بهما ويتفرع عليهما ، فالمعرفة والحب هما في جوهرهما الدعامتان اللتان قامت عليهما شخصية العقاد ، فكانت تلك الشخصية العميقة الجبارة التي ملأت علينا الدنيا ، وكانت لهذا الجيل شاغلا ، ولن تزال على طويل الدهر شغلا لما بعده من الأجيال .

وعندما رحل العقاد في الثالث عشر من شهر مارس عام ١٩٦٤ كتب عنه تلميذه المحب الكاتب الصحفي الأديب طاهر الطناحي (١٩٠١- ١٩٦٧) مقالاً عنه في مجلة الهلال قال فيه :

ستغرب شمس هذا العمر يوما ويغمض ناظري ليل الحمام

فهل يسري إلى قبري خيال من الدنيا بأنباء الأنام

خلعت اسمي على الدنيا ورسمي فما أبكى رحيلي أو مقامي

هكذا قال العقاد ..

وهكذا غربت شمس حياته بعد أن أضاء نورها في الشرق والغرب وبعد أن خلع اسمه وشهرته ورسمه على هذا الجيل والأجيال القادمة .

وهكذا أغمض الموت هاتين العينين اللتين سهرتا الليالي الطوال في البحث والقراءة والتأليف منذ كان في الخامسة عشرة إلى أن هوى طودا شامخًا في الخامسة والسبعين مخلفًا وراءه تسعين مؤلفًا ، وأكثر من عشرة آلاف مقال.

حب العقاد للحياة:

وقد كان العقاد يحب الحياة على الرغم من متاعبها وأذاها وعلى الرغم مما عاناه فيها من أمراض وشدائد ، لأنه كان يحب المعرفة ويغرم بها ، ويحب أن يصل إليها وتصل إليه ، لو تحت التراب .

كنا وكان الناس يعرفون ذلك عنه فلما بلغ السبعين من عمره ، كنت أزوره فسألته :

هل تحب الحياة اليوم كما كنت تحبها بالأمس ؟

فقال : لم يتغير حبي للحياة ، ولم تنقضي رغبتي في طيباتها ، ولكني اكتسبت صبرًا على ترك ما لابد من تركه ، وعلما بما يفيد من السعي في تحصيل المطالب وما لا يفيد «وزادت حماستي الآن لما أعتقد من الآراء ونقصت حدتي في المخاصمة عليها لقلة المبالاة بإقناع من لا يذعن للرأي والدليل» .

«وارتفع عندي مقياس الجمال فما كان يعجبني قبل عشر سنين لا يعجبني الآن . فلست أشتهي منه أكثر مما أطيق .. كنت أحب الحياة كعشيقة تخدعني بزينتها الكاذبة وزينتها الصادقة ، فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها ، وتعرف عيوبي . لا أجهل ما تبديه من زينة وما تخفيه من قبح ودمامة ، إنه حب مبني على تعرف وفهم ».

«والحياة بمعناها ولفظها حياة سواء رضينا أم لم نرض ، وهي خير من الموت وقد نظمت أبياتًا غي هذا المعنى فقلت :

قالوا الحياة «قشورًا» قلنا فأين الصميم

قالوا الحياة «قشورًا» قلنا فأين الصميم

قالوا «شقاء» فقلنا نعم فأين النعيم

إن الحياة حياة ففارقوا أو أقيموا

ولم يكن «العقاد» يتشاءم من شيء في الحياة مطلقًا ، فقد كان يتحدى التشاؤم ولا يؤمن به ، حتى أنه كان يتحدى رقم ١٣ الذي يتشاءم منه الكثيرون ، فكان يسكن منزلاً بمصر الجديدة يحمل هذا الرقم . وكان الرقمان الأولان من تليفونه قبل التغيير الأخير هما ١٣ وقد بدأ بناء منزله بأسوان يوم ١٣ مارس ، وقسم كتبه ١٣ قسمًا واحتفظ بتمثال للبومة كان يضعه على مكتبه ومن الغريب أنه دفن في أسوان يوم ١٣ مارس ١٩٦٤ .

وقد سألته مرة هل ظفرت بما كنت تريده من الحياة ؟ .. وهل كان لك هدف خاص حاولت أن تبلغه فبلغته ؟ .. وهل تحب نفسك الآن أكثر مما كنت تحبها في أيام الشباب؟ .. وهل تشعر بأن هناك صفات معينة تفتقر إليها.وهل تجد في نفسك صفات تكرهها ويكرهها الناس ولا تستطيع التخلص منها ؟ .. وهل تحب أن تعيش حياتك الماضية مرة أخرى ؟ .. ثم ما هي فلسفتك في الحياة ؟ ..

فأجابني العقاد ، فقال :

كل ما كنت أريده وأطلبه من الحياة لم أبلغه ، ولا أرى أن أحدًا بلغ كل ما طلب. وأما هدفي في الحياة ، فكان في الصبا أن أتولى القيادة العسكرية ، ثم تحولت أو خيل إلي أنني أتحول إلى طلب العلوم الزراعية ، وأن ألتحق بمدرسة الزراعة في ذلك الحين ، ثم تبين لي من مراجعة نفسي دقيقة أن وراء الطموح إلى القيادة العسكرية وإلى العلوم باعثًا واحدًا هو «حب الأدب».

«فقد كنت أنظم الشعر في الحماسة ، ثم جنحت نفسي إلى دراسة الأزهار والطيور فبدا لي ذلك كأنه طموح إلى التفرد في علوم الزراعة وما كان في حقيقته إلا صورة من صور الجمال أو حب الطبيعة .

«وقد استويت على هذه الحالة بعد هذه المراجعة ، فبلغت فيما أعتقد غاية ما يستطاع في بيئتنا العربية . ولم أبلغ الغاية التي رسمتها أمامي في مقتبل حياتي ، ولا قريبًا من غايته وإذا قدرت ما صبوت إليه مائة المائة ، فالذي بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين ...!

«أما حبي لنفسي فإني أصارحك إنني ما أحببت نفسي قط لسبب عام أرى أنني أصلح له ، وأستحق الحياة من أجله ، ولا تهمني الحياة لحظة إن لم تقترن بهذا السبب .. !

«وإني أشعر أن لي خصالاً كثيرة أستطيع أن أمنحها غيري . ويكفي هذا عوضًا عما يعوزني من الخصال .!

«ولم يكره الناس من صفاتي إلا تلك الصفات التي أعزها وأحتفظ بها . وأما ما أكرهه أنا فهو المحاسبة الشديدة لنفسي وللناس ولولا هذه المحاسبة لرضيت عن نفسي ، ورضيت عن الكثيرين .

«وإذا لم أجد خيرًا من حياتي الماضية ، فأنا مضطر أن أعيشها بخيرها وشرها ، وأنعم بما فيها . وأنا على كل حال راض بالحياة كل الرضا .

فلسفته في الحياة:

«أما فلسفتي في الحياة فأهم جانب من جوانبها هو ما استفدته من الطبع الموروث وجاءته بعض الزيادة من التجارب والقراءة . وأعني به قلة الاكتراث للمقتنيات المادية . فأعجب شيء عندي هو تهالك الناس على اقتناء الضياع والقصور وجمع الذخائر والأموال .

«ولم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال ، ولم أشعر قط بصغري إلى جانب كبير من كبراء الجاه والثراء ، بل شعرت كثيرًا بصغرهم ، ولو كانوا من أصحاب الفتوحات ..!

«وأنا أعتقد أن نابليون مهرج إلى جانب العالم باستور ، والاسكندر المقدوني بهلوان إلى جانب أرشميدس وإن البطل الذي يخوض الحرب ذودا عن الحق والعقيدة أكرم جدًا من كل بطل يقتحم الحروب ليقال أنه دوخ الأمم وفتح البلدان .

«وفلسفتي في الحياة مع الناس ، فأثر التجربة والدروس فيها أغلب من أثر الطبيعة معهم ، وقد اتخذت لنفسي شعارًا معهم . وهو ألا تنتظر منهم كثيرًا ، ولا تطمع منهم في كثير .. !

«وهذه الفلسفة تتلخص في سطور . غناك في نفسك ، وقيمتك في عملك ، وبراعتك أحرى بالعناية من غاياتك ، ولا تنتظر من الناس كثيرًا تحمد عاقبته بعد كل انتظار»

ميله إلى العزلة:

وقد كان العقاد يميل إلى العزلة والانفراد ، بل كان يميل إلى الانطواء وربما ظن البعض أن هذا الانطواء يرجع إلى عقد نفسية ، ولذلك سألته يومًا عن هذه الحالة التي لازمته طول حياته فقال :

«أعترف لك أنني مطبوع على الانطواء ، ولكني مع هذا خال بحمد الله من العقد النفسية الشائعة بين الكثيرين من أندادي في السن ونظرائي في العمل ، وشركائي في العصر الذي نعيش فيه ».

«لقد ورثت طبيعة الانطواء عن أبي وأمي ، فلا أمل الوحدة ، وإن طالت . ولا أزال أقضي الأيام في بيتي على حدة حيث يتعذر على الآخرين قضاء الساعات واللحظات ، ولكنني أشغل وحدتي بالقراءة والكتابة ، وإذا كنت في عزلة وانطواء عن الجماعات والحفلات ، فإني لست في عزلة عن أصدقائي وإخواني» .

«وأنا أميل إلى الصداقة وأكره العداوة – ولكني لا أعرف التوسط في كليهما ، سواء في إبداء الرأي ، أو العلاقات الشخصية ، ولا يمكنني أن أفهم الأسلوب «المودرن» في السياسة .. فالمجرم في حق وطنه أقاطعه ، وعاطفتي تتشكل نحوه حسب هذا الاعتقاد » .

«وأنا لا أحمل على إنسان إلا إذا اعتقدت أنه يستحق هذه الحملة . وإذا ما حملت على إنسان لا أتوسط في حملتي عليه ، لأن الشخص الذي يسيء إلى وطنه أو إلى الإنسانية ، يجب أن نقاطعه وأن نحمل عليه ، وإلا اعتبرناه أحسن من الإنسانية والوطن » .

«وأنا أعمل عن حب لما أعمله وأحب أن أعترف بحريتي ، ولا أحمل أحدًا مسئولية كتابتي أو آرائي . وأميل إلى التنظيم والمثابرة . ولذلك استطعت أن أجمع بين العمل في المجمع ومجلس الفنون والآداب وبين التأليف والكتابة والقراءة ، فأعطي لكل حقه .. !

والأستاذ العقاد كان مؤمنًا بالله كل الإيمان . لا عن وراثة فقط ، بل عن شعور وتأمل وتفكير طويل فقد نشأ بين أبوين شديدي التمسك بالدين . لا يهملان فريضة من الفرائض اليومية وقد فتح عينيه على الدنيا فوجد أباه يستيقظ قبل الفجر ليؤدي الصلاة ، ويبتهل إلى الله بالدعاء ، ولا يزال في مصلاة إلى ما بعد طلوع الشمس ، فلا يتناول طعام الإفطار حتى يفرغ من أداء الفرض والنافلة وتلاوة الأوراد .

ورأى والدته في عنفوان شبابها تؤدي الصلوات الخمس ، وتصوم وتطعم المساكين . وقلما ترى النساء مصليات أو صائمات قبل الأربعين .

وندر بين أقاربه من لا يسمي باسم من أسماء النبي وآله سواء منهم الرجال أو النساء .. وكان في بيت أخواله درس لقراءة الكتب الدينية ، ومنها مختارات الأحاديث النبوية وكتب التفسير وإحياء علوم الدين للغزالي .

فكان للوراثة والبيئة شأن فيما عنده من الإيمان والاعتقاد الديني .

أما الإيمان بالحس والشعور فذلك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يلتقيان في الحس والتصوير والشعور بالغيب وعظمة العالم وعظمة خالق العالم .

وهو كعالم وكاتب مفكر يرى الإيمان بالتفكير ، والوصول بالعقل إلى معرفة الله هو أسمى درجات الإيمان .

هذا في العقيدة أما إيمانه في مجال الأخلاق ، فهو الإيمان بالكمال فلا موجب عنده لعمل الخير غير طلب الكمال وفهم الكمال وأما إيمانه بالأدب فهو أنه رسالة عقل إلى عقول ، ووحي خاطر إلى خواطر . وميزان ذلك كله هو ميزان المثل الأعلى وطلب الكمال ، لأنه إيمان صادق لا كذب فيه ولا غرض ، وهو إيمان يعمر النفس بلذة الروح ويغني عن طلب الجزاء ، ويعزي عن فقد الحمد والثناء .

وكذلك كان إيمان العقاد بالحياة والدين والأدب والأخلاق لا غاية له إلا الكمال .!

الكتب وسر الحياة:

وقد اشتهر العقاد بسعة اطلاعه وكثرة قراءاته لمختلف الكتب ، لا يترك نوعًا من أنواع الكتب إلا قرأه . ومع سرعة قراءاته ودقته ، فقد كان يعلق كثيرًا على ما يقرؤه بقلمه وربما لا يعرف الكثيرون أنه كان يفضل قراءة كتب فلسفة الدين ، وكتب التاريخ العام والتاريخ الطبيعي وتراجم العظماء ودواوين الشعر ، وكان يقول : « إنني أقرأ هذه الكتب ، وأعتقد أن العلاقة بينها متينة ، وإن كانت تفترق في الظاهر ، لأنها ترجع إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان ، فكتب الفلسفة الدينية تبين إلى أي حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت ، وكتب التاريخ الطبيعي تبحث في أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة ، وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة ، والشعر هو ترجمان العواطف ، فأنا لا أقرأ من الكتب إلا ما له مساس بسر الحياة – ولكن ما هو سر الحياة ؟

«إنني أعتقد أن الحياة أعم من الكون ، وان ما يرى جامدًا من هذه الأكوان أو مجردًا من الحياة إن هو إلا أداة لإظهار الحياة في لون من الألوان ، أو قوة من القوى ، والحياة دائمة أزلية لا بداية لها ولا نهاية» . !

«فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر الله ، عرفت سر الحياة ، ولكننا مطالبون بأن نخط لأنفسـنا في هذا المحيط الذي لا نهاية له أوسـع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا ».

«والكتب هي وسائل الوصول إلى هذه الغاية ، وهي النوافذ التي تطل على حقائق الحياة ، وإلا تغني النوافذ عن النظر » ..!

«ومن جهة أخرى ، فإن الكتب طعام الفكر ، وتوجد أطعمة لكل فكر كما توجد أطعمة لكل بنية . ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام . وكذلك الإدراك القوي يستطيع أن يجد غذاء فكريًا في كل موضوع » .. !

العقاد والحب:

حينما كنت رئيسًا لتحرير مجلة الدنيا الأسبوعية التي أصدرتها دار الهلال اقترحت على فقيدنا العظيم أن يكتب عن الحب ، وكنت أعرف أنه في شـبابه كانت له قصة حب عنيف ، صدم فيه صدمة كبرى ، فكتب لهذه المجلة سلسلة مقالات بعنوان : « مواقف في الحب» ، وهي التي جمعها في كتاب : «سارة» .

ولم يكن اسمها «سارة» ولكنه اسم مستعار لهذه الفتاة التي وصفها بأنها جميلة بلا مراء ومع أنها ليست أجمل من رأى في حياته ، ولا أجمل من رأى في أيام حبه لها وشـغفه بها ، ولكنها جميلة جمالا لا يحتفظ بغيره في ملامح النسـاء .. لونها كلون الشـهد المصـفى ، يأخذ من محاسـن الألوان البيضـاء والسمراء والحمراء والصفراء في مسحة واحدة .

وعيناها نجلاوان تخفيان الأسـرار ولا تخفيان النزعات ، فيهما خطفة الصـقر ، ودعة الحمامة . وفمها فم الطفل الرضـيع مع ثنايا تخجل العقد النضيض في تناسق وانتظام ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة . واستدارة وجه وبضـاضـة جسم . وبين وجهها النضيد وجسمها الفاتن جيد كأن الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينها وفاقا لتمام الحسن .

وقد دام الحب بينهما عدة سنوات ثم صدم في حبه ، وكانت الصدمة منها وكان الفراق بينهما ، وكان بكاؤه الشـديد ، وهو يرد إليها ذكرياتها عنده في إحدى حدائق مصر الجديدة . بمشهد من صديق من أخلص أصدقائه ..ولم يكن بكاؤه عن أسف عليها ، ولكن العقاد كان شديد الحساسية سريع البكاء ، وقد أثبتت المراجع العلمية النفسية أن أقوى الرجال أسرعهم إلى التأثر والبكاء .

ومن أمثلة التأثر والحساسية الشديدة عنده أنه أثناء سجنه بتهمة العيب في الذات الملكية ، وقع نظره يومًا على جلاد يهوى بسوطه على ظهر سجين ، ثم ينبثق الدم من ظهر الرجل المسكين ، فعاد إلى مكانه في السجن باكيًا، وقلبه يكاد ينفطر شفقة ورحمة ، ومكث مريضًا مدة أسبوع كامل ، ولم يستطع النوم ثلاث ليال بأكملها ، وظلت صورة الدم على ظهر السجين تشاغل عينيه ، واستمرت أنات الرجل تدوي في أذنيه ، ولم يرحم خياله أن ذلك الرجل قد أتى ذنبًا استحق عليه العذاب !

هند – أو – مي:

وقد كان أثناء حبه لهذه الفتاة يحب «الآنسة مي » فقيدة الأدب العربي ، وقد اعترف لنا في حديث معه بحب هاتين الفتاتين وحدهما فقال : «لقد أحببت في حياتي مرتين : «سارة و «مي» . كانت الأولى مثالا للأنوثة الدافئة ناعمة رقيقة لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوثتها ، ولكنها كانت مثقفة أيضًا.

«والثانية – وهي مي – كانت مثقفة قوية الحجة تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية ، كما كان فيها بعض صفات الرجال من حيث أنها جليسة علم وفن وأدب وزميلة في حياة الفكر أي أن اهتمامها كان موزعًا بين العلم والأنوثة » . !

وقد أحبها العقاد حبًا روحيًا وتحدث عنها في آخر كتاب «سارة» وسماها باسم «هند» وكان يزورها ويجالسها ويتناولان من الحب ما يتناوله العاشقان العذريان ، وكان يكتب إليها فيفيض ويسترسل ويذكر الوجد والشوق والأمل وكانت «مي» تحبه حبًا شديدًا، ولم تكن تعلم حبه لسارة ، وإنما كانت تزعم بينها وبين نفسها أنه معزول عن عالم النساء غير أنها لم تحفل باتصاله بالنساء ، مادام اسمهن «نساء» لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة وشبح غرام واحد ..!

فلما شعرت بأنه يحب فتاة أخرى ، وكان هذا الحب قبل أن تقع هي في حبه ، زارته على حين غرة في مكتب عمله – وهي الزيارة الأولى والأخيرة فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها المفاجئة وابتهاجه بسؤالها عنه وأنصت لها ، فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج

لست زائرة ، ولا سائلة .. !

فقال : - إذن . ؟ !

فلم تتكلم ، بل نظرت إليه ، كمن يستحلفه ألا يتكلم ، وانحدرت من عينيها دمعتان فما تمالك نفسه وتناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها ، فمانعته، ولم تكف عن النظر إليه ، ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة ، وهي تتمتم هامسة : دع يدي ودعني .

ويقول العقاد : « لو جاءت هذه الزيارة في بداية علاقته بسارة لما كان بعيدًا أن تقضي على تلك العلاقة وأن تصبح سارة عنده اسمًا مغمورًا في عامة النساء» .

فلسفته في الحب:

أحب العقاد – كما قلنا – مرتين صدم في الأولى ففارقها كارهًا لها لخداعها وخيانتها .. وفارقته الثانية ، لأنانيتها وكرامتها عاتبة غير منصفة لأنه لم يختلس منها شيئًا هو من حقها عليه ، ومع ذلك فقد كان يمدح الحب ويقدسه ، ويقول عنه فيما يقول :

ما الحب ؟ ما الحب إلا أنه بدل   من الخلود ، فما أغلاه من بدل!

وكان يعرف الحب بأنه اندفاع روح إلى روح ، واندفاع جسد إلى جسد ، وخلاصة فلسفته فيه أنه قضاء وقدر ، فهو يرى أننا لا نحب حين نختار ولا نختار حين نحب وأننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت . هي أطوار العمر التي تملك الإنسان ولا يملكها الإنسان .

كيف تنبأ بالموت ؟!

أما الموت فقد كان «العقاد » يكرهه ولا يخشاه ، ولم يكن يطمع أن تدوم حياته إلى سن المائة ، فقد توفيت والدته في سن الثمانين ووالده دون هذه السن ، وقد تنبأ بالموت في حديث بيني وبينه فقال : إن الابن يأخذ متوسط عمرى أبيه وأمه ، وقد تنتهي حياتي قبل الثمانين » .

ثم ابتسم وقال :

«إذا فاجأني الموت في وقت من الأوقات فإنني أصافحه ولا أخافه بقدر ما أخاف المرض ، فالمرض ألم مذل لا يحتمل ، ولكن الموت ينهي كل شيء ».

«نعم إن الخوف من الموت غريزة حية لا عيب فيها ، وإنما العيب أن يتغلب هذا الخوف علينا ، ولا نتغلب عليه كلما وجب أن نغلبه في موقف الصراع بين الغريزة والضمير ، فإن الخضوع له في هذه الحالة ضعف والضعف شر من الموت » !

ولما قلت له يومًا :

إن بناء جسمك ، وما أراه من قوة صحتك ومثابرتك على العمل في الشيخوخة ، يبشر بأنك ستظل إلى سن المائة أو تزيد ، فماذا يكون شعورك وقتئذ ، وما هو الكتاب الذي تؤلفه ؟

فأجاب :

إنني لا أتمنى أن أصل إلى سن المائة كما يتمناه غيري ، وإنما أتمنى أن تنتهي حياتي عندما تنتهي قدرتي على الكتابة والقراءة ، ولو كان ذلك غدًا .

«أما شعوري لو بلغت «المائة » إذا كنت بصحة جيدة ، فهو نفس شعوري الآن ولكن إذا ضعفت صحتي واضمحلت قوتي ، فإن شعوري يومئذ سيكون كشعور كل إنسان بالضعف والتعب وهو شعور مؤلم غير مريح .

«وإذا توافرت لي الصحة ولم تضمحل القوة ، وبلغت سن المائة فإني أؤلف كتابًا أسميه : « تجارب مائة عام » أو «قرن يتكلم» ... وأعهد بنشره إليك » .. !

الفصل الثاني : المرأة في حياة العقاد





« لقد طبعت على أن أتحمل آلامي وحدي ، وما أكثر تلك الآلام » .
«وطبعت على أن أغامر في الحياة وحدي ، وما أكثر تلك المغامرات » .
«إنني لا أريد أن أعذب امرأة معي ، ولا أريد أن تعذبني امرأة معها »
العقاد

كان للمرأة تأثير قوي في حياة العقاد وشـــعره ، بالرغم من تلك الفكرة المسبقة السـائدة عنه من قبل بعض الصـحفيين بأنه كان عدوًا للمرأة وبالتالي فإن قلبه لم يعرف الحب ولم يخبر تجاربه ..

لكن الوقـائع والأســـانيد تؤكد أن العقـاد قد عرف الحب وذاق حلاوتـه ومرارته من خلال تجاربه العديدة إبان نضـــاله مع أكثر من حبيبة ، وقد أثر ذلك الحب على فهمه للجمال ، لأنه يفسـره تفسيرًا سياسـيًا ، فيفسـره بالحرية يعني الانطلاق (.

وفيما يختص بنعيم الحب فإننا نجد الحب يخلع على العقاد قوة يبصـــر بها ما لا يراه الآخرون في حبيبته ، فيرى فيها ألوانًا من الجمال لا يراها أحد غيره ، أو أن يغمض عينيه عن التأمل فيها ، ولكنه ينقاد إليها دون أن يدري ، أو يجعله يفيض في الحق حينما يسره ، فإن أبي فيفيض في الكذب المفترى ، ويبعث على التســاؤل عن الســبب الذي جعلهم لم يعشـــقوا في حبيبة العقاد المنظر والمخبر ، على حين يسـأل الخالون من الحب عن السـبب الذي جعله يهيم بها دون تفكير حتى أصابه الجهد والإعياء :

غرير تسأل : ما الحب ؟ — بنيتي ! هذا هو الحب !
الحب أن أبصر مالا يرى — أو أغمض العين فلا أبصرا
وأن أسمع الحق ما سرني — فإن أبي ، فالكذب المفترى
الحب أن أسأل : ما بالهم — لم يعشقوا المنظر والمخبرا؟
ويسأل الخالون : ما باله — هام بها بهرا وما فكرا؟

ويزداد صفاؤه مع هذه الحبيبة حينما يكون ناعمًا بالحب ، لأن حبيبته قد اعتنت به فنسجت له صدارًا عده العقاد دليلا على حبها ، وأنها قد أسرته بهذا الصدار وحاصرته به ، وأنه رقيب على فؤاد بحيث لا يسمح لطيف أن يتخلل منه إلى فؤاده ، وحينما يلبسه العقد يغدو في متناول أصابعها التي نسجته بها :

ألم أنل منك فكره — في كل شكة ابره
وكل عقدة خيط — وكل جرة بكره

هنا مكان صدارك — ها هنا في جوارك
والقلب فيه أسير — مطوق بحصارك!

هذا الصدار قريب — على الفؤاد قريب
سليه : هل مر منه — إلىّ طيف غريب

وفي موقف آخر ومع حبيبة أخرى يحس بالزمان والمكان حينما يناديها وتكون صاغية له ، حينئذ ينسى التواريخ إلا التي تعود بذكرها لتروى له ، فهي الزمان والمكان ، وهي غنى نفسه ، ومن ثم لا يعد حساب السنين بمغيب الشمس وطلوعها ، ولكنه يعدها بطلعتها ونظرتها الساجية :

سعاد ويا حسن هذا الندا — إذا ما وجدتك لي صاغية
نسيت التواريخ إلا التي — تعود بذكرك لي راوية
فأنت الزمان وأنت المكان — وأنت غني النفس يا غانية
ولست أعد حساب السنين — بالشمس طالعة خافية
ولكن بوجهك لي مقبلا — ونظرتك الحلوة الساجية

على أن حبه الأخير كان لفتاة في العشرين على حين هو قد جاوز الخمسين ، ولكن الحب في تصـــوره وشـــعوره قد أرجع العقاد في ســـنه ثلاثين عامًا وأصبح في سن العشرين مثل حبيبته :

وكـانـت لـي ســـلالم أرتقيهـا فـرادى لا أبـالـي مـا يـلـيـهـا

فـعـدت مـثـنـيـا عـجـلا كـأنـي أخو العشـــرين مرتقبًا ســـنيها

وتركيز العقاد على الثغر يجعله يستحسن الثرثرة من فم حبيبته الذي يقبله ويســـتمع إلى ما تقوله من لغو ليزيدها تقبيلاً ، لأن الثرثرة جميلة من الثغر الذي يقبله:

أراك ثـرثـارة مـن ســـابـقـة فهات ما شـئت قالا منك أو قيلا

مـا أحســـن اللغو من ثغر نقبلـه إن زاد لـغـوا زدنـاه تـقـبـيـلا

فها نحن نرى العقاد حينما تسعد نفسه ويتمتع مع حبيباته تسبح نفسه في عوالم من الخفة والرشـاقة ، وتعرج في سماوات الوحي والإلهام ، فتضـفي على نفسه معاني أبدية خالدة تضيء له نفسه وتجعله ينظر إلى الكون والحياة نظرة متفائلة ، بيد أنه حينما يشـــقى بالمرأة في علاقته بها ، تنغص حياته وتروى نفسه بالزقوم الذي يسمم نفسه وفكره تجاه المرأة ويورثه ألما لا نظير له في آلام النفوس والعقول حيث تتغلغل اللواعج والأشـــجان في كل حياته ، وتغلب الأقدار على كل صفاء ورجاء لديه فهو يعبر عن الحالة الشعورية التي يعز فيها على المحب البكاء ، ولا يأبى قلبه إلا الكتمان لما يعانيه ، ومن هنا ينفث ما يعانيه من القلق الذي يكاد يهزه لأنه لم يجد قلبًا يسـعده في هذه الحياة فيصول نفسه ظمآن لا يرويه مطر البرد ولا الخمر:

ظـمـآن لا صـــوب الـغـمـام ولا عذب المدام ولا الأنداء ترويني

حيران حيران لا نجم الســـماء ولا معالم الأرض في الغماء تهديني

يقظان يقظان لا طيب الرقاد يدانيني ولا ســـمر الســـمـار يلهيني

غصـــان غصـــان لا الأوجاع تبليني ولا الكوارث والأشـــجان تبكيني

شعري دموعي وما بالشعر من عوض عن الدموع نفاها جفن محزون

يـا ســـوء مـا أبقـت الـدنيـا لمغتبط على المدامع أجفان المســـاكين

ســـأمان ســـأمان لا صـــفو الحياة ولا عجـائـب القـدر المكنون تغنيني

أصـــاحب الدهر لا قلب فيســـعدني على الزمـان لا خـل فيأســـوني

يديك فامح ضـــنـى يا موت في كبدي فلســـت تمحوه إلا حين تمحوني

ويشتد شقاء العقاد ويستسلم حينما يهنئ حبيبته بالسهم الذي جرحت به كبده التي لا تستطيع أن تشفيها ، لأنها لم تقدر إلا على أن تجرح نفس العقاد الشفافة وليتها تستطيع أن تداويها من الحب :

هنيئًا لك السهم الذي أنت جارح — به كبدا لا تستطيع شفاءها

قدرتم على جرح النفوس وليتكم — قدرتم فداويتم من الحب داءها

وبالضرورة كان لشفاء العقاد من الحب أثر على فهمه للمرأة – كما كان لنعيمه في الحب أثر في تفسير الجمال فيما سبق . ويتمثل هذا الأثر في أن رأى العقاد في المرأة لم يعد في صالحها فخلع عليها صفات منها تناقضها وازدواج شخصيتها بين الزوج والعشيق حيث تعبر الكلمة منها عن طبيعتها وذلك في الأبيات التالية :

أيما لفظة جرت من فم المرأة امرأة

تشتهي الزوج من فئة والأخلاء من فئة

ليس بالجسم وحده يعرف الجنس منشأه

ومنها الخداع الذي هو طبيعة فيها ، لأنه سترها والطلاء الذي تتزين به وتحيا ، فهو رياضة لنفسها وسلاحها الذي تكيد به أصفياءها أو أعدائها وهو السلاح الذي تنتقم به لضعفها من الذل الذي باب يشقيها ، ثم يدعو في نهاية هذه الصورة بأن يخونها الإنسان لكي يخلص إلى أغلى غواليها :

خل الملام فليس يثنيها — حب الخداع طبيعة فيها

هو سترها وطلاء زينتها — ورياضة للنفس تحييها

وسلاحها فيما تكيد به — من يصطفيها أو يعاديها

وهو انتقام الضعف ينقذها — من طول ذل بات يشقيها أنت الملوم

أنت الملوم إذا أردت لها — ما لم يرده قضاء باريها

خنها ولا تخلص لها أبدا — تخلص إلى أغلى غواليها

وعلى أية حال فلم تقتصر آراء العقاد في المرأة على شعره بل أنشأ فيها كتبًا تعالج طبيعتها ووفاءها .

وبالرغم من أن أصدقاء العقاد المقربين كانوا متحفظين في إزاحة الستار عن أسرار قلب العقاد وغرامياته العديدة مع المرأة إلا أن بعضهم عالج ذلك بأسلوب أدبي بحت من خلال شعر العقاد الغزلي مثل الأديب علي ادهم (١٨٩٨-١٩٩١) الذي اكتفى بالقول أن العقاد كان شخصية فذة كثيرة الجوانب متعدد المواهب فقد كان شاعرًا ، وكاتبًا ، وناثرًا ، وناقدًا ، ومفكرًا ، موهوبًا ومؤرخًا وكاتب تراجم واسع الإحاطة بالنفس الإنسانية

ومع ذلك كان لعاطفة الحب أثر واضــح في حياة العقاد منذ باكورة شــبابه حتى اكتمال شيخوخته ووفاته وهو المؤدي باقتران الشعر بالحب ، فيقول :

ويشير في هذه القصيدة إلى اقتران الشعر بالحب فيقول :

الحــب والشــعـر ديــنــي والــحــيــاة مــعــا
ديــن لــعــمــرك لا تــنــفــيــه أديــان
هــي الــحــيــاة جــنــيــن الــحــب مــن قــدم
لــولا الــتــجــاذب مــا ضــمــتــك أكــوان

ويرجح جانب الحياة العاطفية على الحياة العقلية فيقول :

كــن بــالــخــوالــج حــيــا فــالــحــجــى جــدث
لــربــه ووقــار الــحــلــم أكــفــان
وإنــمــا الــمــرء يــحــيــا فــي خــوالــجــه
ولــيــس يــحــيــيــه فــي الألــبــاب رجــحــان

وقد غلبت عاطفة الحب عند العقاد في حياته المختلفة المتتابعة ، ولم يمنعه إدمان القراءة والاطلاع والأكباب على الدراسة والتحصيل والتأليف والإنتاج والاضــطلاع بالتبعات الهامة ، وخوض المعارض الأدبية والســياســية من التعرض لسهام كيوبيد ، وفي دواوين شعره المختلفة التي كانت تظهر متوالية من الحين إلى الحين ما يوضح ذلك ، ويصوره بصوره لها نصيب موفور من الوضــوح والصــراحة بل كان العقاد كلما تقدمت به السـن صــار تأثير عاطفة الحب في نفسه أوضح وأصرح وربما كان أقوى وأعنف في صدر حياته منه في أواخر أيامه .

وقد أوحت إليه عاطفة الحب بالكثير من الخواطر اللامعة والأفكار المضــيئة وعمقت معرفته بأسـرار النفس الإنســانية ، وخفايا القلب البشــري .. ولكنه إن كان قد عرف نعيم الحب وجنته ، فقد ذاق كذلك بلواه ونقمته ، وتمرس بشــدائده وقســوته ، وعانى من متاعب الهجر وآلام القطيعة وســعار الشــكوك لوافح الغيرة ما ترق عنه قوة الاحتمال وكان يزيد المعركة عنفًا ، والصــراع مرارة ، حرص العقاد على كرامته ، واعتزازه بشــخصــيته ، وقد وصف ودوافع الاستسلام ومغرياته.

ووصـــف لنا العقاد في ديوانه «هدية الكروان» أنواع الحب الذي عرفه فقال [١]:

عرفـت من الحـب أشـــكـالـه ... وصاحبت بعد الجمال الجمال

فـحـب الـمصـــور تـمـثـالـه ... عرفت ! وحب الشـــباب الخيال

وحـب الـقـداســـة لـم أعـده ... وحـب التصـــرف لم يعـدني

وفــي كـل حـب ورى زنـده ... ســمـات من المؤمن الـدين

***

وحـب المزخرف والمنتقى ... وحـب الـمـجـرد والـعـاطـل

وحـب الجمـاح ، وحـب التقى ... وحـب الـمـجـدد والـنـاقـل

***

وحب الثقاة وحب الصـــحـاب، ... وحـب الطبيعـة في حســـنهـا

وحـب الرجـاء وحـب العـذاب ، ... على يـأس نفســـي من حزنهـا

***

وحـب الـتـي علـمتـنـي الـهوى ... وحـب الـتـي أنـا عـلـمـتـهـا

ومـن أســـتـمـد لـديـهـا القوى ... ومـن بـالـقـوى أنـا أمـددتـهـا

ويقول العقاد موجها خطابة للفتاة التي الغريرة التي تعرف لواعج الحب وآلامه ومتاعبه وأحزانه ، وقد سألته «ما الحب» :

الـــحـــب أن أبصـــــر مــــا لا يــــرى

أو أغـــمــض الـــعـــيــن فـــلا أبصــــرا

وأن أســـــبـــغ الـــحـــق مــــا ســــرنـــي

فـــإن أبـــى ، فـــالـــكـــذب الـــمـــفـــتـــرى

---

(١) الهلال / على ادهم : الحب في حياة العقاد .

ويسترسل في رده قائلاً :

الحب أن أسأل ما بالهم
لم يعشقوا المنظر والمخبرا
الحب أن اجمع في لحظة
جهنم الحمراء والكوثرا
وأنني أخطئ في لهفتي
من منهما روى ومن سعرا

ورغم أن بعض المفكرين يتجاوز في معرفته وعلمه وفكره إلى القمة الباردة التي تعلو قمم الجبال وعندها تفتر الحياة ، ولا يشعر صاحبها بالمشاعر الحية إلا أن العقاد رفض مثل هذه القمة الباردة، لأنها كان يحب الحياة والحب والوجود.

وبرغم ما صادفه العقاد في الحب من آلام وتباريح ، وعنف وقسوة فإنه كان يؤثر الحياة التي يحتاجها الحب بلوافح نيرانه وثوائر عواطفه على الحياة اللينة الهادئة البليدة المتراخية ، وقد أشار إلى ذلك في تلك المقطوعة البديعة والأبيات المحكمة النادرة عن «القمة الباردة » ، والتي يقول فيها : (١)

إذا ما ترقيت رفيع الذرى ... فإياك والقمة الباردة
هنالك لا الشمس دوارة ... ولا الأرض ناقصة زائدة
ولا الحادثات وأطوارها ... مجددة الخلق أو بائدة

إلا بالظواهر التي تقع عليها الحواس ، وتدركها البديهة ، فإذا تجاوز ذلك فقد ارتفع من المعرفة إلى قمتها الباردة التي لا يشعر فيها بحياة .

لقد كان العقاد من غير شك في طليعة الشعراء المجددين ، ومن أرسخهم في التجديد قدمًا ، وأسيرهم ذكرًا ، ولكنه برغم قدرته الفائقة في التجديد كان يبدو في الشعر الغزلي الذي نظمه في أول محاولاته الشعرية شيء من النقص في تحديد صفات المرأة التي يتغزل بها في شعره ، ولكن حينما نضجت مشاعره ، وكثرت في الحب مغامراته وتجاربه ، بدأ يظهر في شعره الكثير من سمات النساء اللاتي أثرن فيه عاطفة الحب ، وشغلته بأنفسهن عن الميل إلى غيرهن من بنات حواء ، ويتجلى ذلك بوضوح في القصائد التي نظمها في أثناء حبه لمن سماها «سارة» والتي وصف لنا علاقته بها مفصلة في القصة الوحيدة التي كتبها وسماها بهذا الاسم ، وهي لون من ألوان الاعترافات الأدبية العاطفية .

---

(١) المرجع السابق .

وقد كان العقاد يعرف رأي شوبنهاور في المرأة ، وكان في الوقت نفسه قد قرأ كتاب «الجنس والأخلاق» الذي ألفه الباحث النمساوي أوتو فينتجر وأعجب به وقدر ما في رأيه من إصابة وأصالة ، وقد أغراني حديثه عنه ، وتقديري لكتابه ، باستحضار هذا الكتاب من الخارج في ترجمته الإنجليزية والاطلاع عليه ، احسبه من أشد الحملات قسوة على المرأة ومكانتها ، وإن كان مكتوبًا بطريقة تجري على المنهج العلمي الموضوعي مدعمًا بآراء الكثير من الباحثين والعلماء النفسيين والفلاسفة المتقدمين والمتأخرين ، وكان العقاد يجيل تفكيره فيما يقرأ ويعرضه على محك النقد ، فإذا كان قد قدر آراء شوبنهار وأوتوفينجر فما ذاك إلا لأنه وجدها متجاوبة مع الكثير من تجاربه ومشاهداته الخاصة ونظراته الناقدة في أحوال المجتمعات البشرية وجولاته في عصور التاريخ المختلفة .

ويؤكد الأديب على أدهم أن العقاد ظل يحب حتى آخر نسمة في حياته [١].

«كان الأستاذ العقاد شخصية فذة قليلة المثال ، كثيرة الجوانب متعددة المواهب ، كان شاعرًا ، وكاتبًا ، وناثرًا ، وناقدًا ، ومفكرًا موهوبًا ، ومصلحًا اجتماعيًا ، ومؤرخًا وكاتب تراجم واسع الإحاطة بالنفس الإنسانية .. وقد ظلت مواهب العقاد الأصلية حتى نهاية حياته متوازنة متجاوبة ، يمد بعضها بعضًا ، ويعينه ويؤازره ..

كان لعاطفة الحب أثر واضح في حياة العقاد منذ باكورة شبابه حتى اكتمال شيخوخته ووفاته .

***

ولكن رغم الغموض الذي كان يلف الحياة العاطفية للعقاد ، والصورة الذهنية التي كانت تحيط بشخصيته ومشاعره نحو المرأة حتى سماه البعض «عدو المرأة»، لكن ذلك قد ينسحب على موقفه الفكري والفلسفي لكن الواقع كان يختلف عن ذلك تمامًا ، ويؤكد انغماس العقاد في تجارب عاطفية ملتهبة تراوحت بين العواطف المشتعلة والحرمان مثلما كانت تجربته مع الآنسة مي زيادة (١٨٨٦-١٩٤١) وبين التجارب العاطفية التي جمعت بين الحسية والعاطفية مثلما كانت تجربة حبه مع أليسا (١٨٩٩-١٩٦٩) ، وبين تجربة الحب في مرحلة خريف العمر مثلما كانت قصته مع هنومه خليل الشهيرة بمديحة يسري .

(١) المرجع السابق .

الفصل الثالث : غرام العقاد ومي



أرقب البدر إذا الليل سجا

فلنا فيه على البعد لقاء

وأروى الشعر في مثل الكرى

فإذا فيه من الطيف عزاء

أنت «يا مي» وهل أنت سوى

حلم في يقظة القلب أضاء

«العقاد»

يروي لنا الكاتب الأديب طاهر الطناحي (١٩٠١- ١٩٦٧) صفحات من قصة غرام العقاد ومي التي شهد بعض فصولها من خلال رسائلهما التي تبادلاها والتي كانت تشف وتنم عن مشاعرهما العاطفية الدفينة ، اللذان حاولا إخفاءها بكبرياء العقاد العاشق ودلال «مي» الأنثوي . يستعيد الطناحي اعترافات العقاد العاطفية له ، حينما سأله ذات يوم عن تجاربه مع المرأة ، حين قال [١]:

« أحببت في حياتي مرتين : أحببت «سارة» . وهذا ليس اسمها الحقيقي ، وإنما هو اسمها المستعار أطلقته عليها في قصتي المعروفة بهذا الاسم وأحببت «ماري زيادة» الأديبة المعروفة باسم «مي» .

(١) طاهر الطناحي / أطياف من حياة مي / كتاب الهلال – القاهرة ١٩٧٤ /ص ٧٩ .

«كانت الأولى مثالا للأنوثة الدافقة الناعمة الرقيقة ، لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوثتها ، ولكنها كانت – إلى ذلك – مثقفة » .

«وكانت الثانية – وهي مي – مثقفة قوية الحجة ، تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية ، وكانت جليسة علم وفن وأدب ، وزميلة في حياة الفكر ، أي أن اهتمامها كان موزعًا بين الأدب والأنوثة ».

«كلتاهما جميلة ، ولكن الجمال في «مي» كالحصن الذي يحيط به الخندق أما الجمال في «سارة» فكالبستان الذي يحيط به جدول من الماء النمير ، هو جزء من البستان ، لا حاجز دون البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور ! .. »

ذلك ما سمعته من العقاد في حديث معه ، وقد نشر قصته عن «سارة» منذ سنوات ، أما قصته عن «مي» فكيف كانت ، وكيف بدأت ، وكيف تطورت من زمالة فكرية ، إلى صداقة أدبية ، ثم إلى حب ، فغرام وهيام ودموع ؟ ..

لقد عرف العقاد الآنسة «مي»قبل أن يعرف سارة بعدة سنوات .. عرفها عن بعد من مقالاتها في الصحف وتأليفها للكتب ، وعرفها عن كثب في صالونها الأدبي الذي كان يؤمه كبار الأدباء والمفكرين مساء كل ثلاثاء ، وكان هو اصغر رواد هذا الصالون سنا حين كان يؤمه بين سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ ، وكانت سنه لا تزيد عن سبع وعشرين سنة ، وكانت سنها لا تتجاوز الحادية والعشرين ، ولكن كلاهما كان نجمًا ساطعًا في شباب الأدباء وجيل المثقف الحديث .

وحدث أن سافر إلى أسوان على أثر مرض انتابه ، فبعثت إليه برسالة تسأل عن صحته ، وتبلغه فيها تحيات أدباء الصالون الأدبي ، وتمنياتهم الطيبة له بالصحة والعافية ، فرد عليها برسالة أنبأها بأن طبيبًا ألمانيًا كان يزور أسوان سائحًا طمأنه على صحته ، وقد كشف عليه كشفًا دقيقًا ، وبدأها بقوله :

«آنستي الأديبة اللوذعية مي زيادة ....

«أكتب إليك الآن وأنا أقرأ «سبنسر» في «قصر ملا» وهو طلل دارس منصوب للرياح ، أقضي فيه الوحدة بين صفحات كتاب ، وقد جمع منظره بين وحشة القدم المتبدد ، ونضرة الصبا المتجدد . وقامت حوله روضة عالية تعرف باسمه ، ويرتاح إليها الطارق من سآمة ذلك الشبح المهجور في أكمته . وهي رابية أثرية ذات طباق يعلو بعضها فوق بعض ، في كل طبقة منها حياض الأزهار والنوار ، ومنابت العشب والبهار تنتهي من بحبوحتها العليا على جانبها الغربي فتشرق من ثم على النيل ، ويستقبلني الجبل الغربي تليه الجزر والجنادل المعترضة في جوف النهر ، وهو ينساب بينها انسيابًا ، فروعًا وشعابا ، وأجلس بعد الغروب ، فأنظر أمامي إلى المقياس في هيكله القديم ، وإلى النيل يجري وكأنه لا يجري ، وإلى الجنادل قد اطلعت رؤوسها على متنه كأنها بعض حيوان ، يتنسم هواء الليل ، وإلى الجبال ممتدة على طول الأفق كالديباجة السوداء حول تلك المناظر الساحرة .. »

ويستمر في وصف «قصر ملا » إلى أن يقول :

«وقد كنت أتردد على هذه الأماكن الفينة بعد الفينة أقضي هزيعًا من الليل فأجلس إلى صخر قديم ساوره النيل إعصارًا ثم قنع بمسح أقدامه ، وطغى عليه أعوامًا ، فلم يظفر بغير المرور من أمامه ، وأعوض العزلة بمساجلة بنات الأحلام ومسامرة عرائس الشعر ، ولله هن ما أجذلهن وأطربهن .. »

وبعد أن يستوعب وصف هذا القصر يذك لها كيف عرف الطبيب الألماني وهو يقرأ كتابًا لهيني في معبد فيلا لم يصف لها جو أسوان في الشتاء ، ويذكر أنه نظم قصيدة طويلة في ذلك الوصف يقول فيها :

أسوان تزهو حين بدا ... بل كل مخضر نضير

في كل مربأة بها ... نور تألق فوق نور

بلد تجود له الطبيعة ... بالصغير وبالكبير

نسماته برء العليل ... وماؤه عذب نمير

وبعد ذلك يذكر لها أنه في شوق إلى ندوتها ، ويطلب منها إبلاغ تحياته إلى الإخوان .. !

***

وأقام العقاد في أسوان مدة بعيدًا عن القاهرة ، فبعثت الآنسة مي رسالة إليه بدأتها بقول المعري :

عللاني فإن بيض الأماني ... فنيت والظلام ليس بفاني

أن تناسيتما وداد أناس ... فاجعلاني من بعض ما تذكران

رب ليل كأنه الصبح في الحسن ... وإن كان أسود الطيلسان

قد ركضنا فيه إلى اللهو لما ... وقف النجم وقفة الحيران

«هكذا قال حكيم المعرة وأنا أعلم مقدمًا أنه من أصحابك المقربين ، فرأيت أن أبدأ هذه الرسالة من القاهرة بأبياته عسى أن يكون فيها تذكرة ، وعوض عن الوحشة والبعد .. »

ثم تحدثت عن ندوتها (صالونها) والحاضرين فيها ، وأخبرته أن الأستاذ نجيب هواويني لم يحضر الأسبوع الماضي ، وكان الصحب مشوقين إلى فكاهاته ودعاباته الظريفة ، وقالت أنها ألقت محاضرة في النادي الشرقي عن «فضل مصر على الشرق» وكانت تتوق إلى أن يسمعها ليقول لها رأيه فيها «وعلى كل حال ، فإن بعدك في أسوان لا يحول دون اطلاعك على هذه المحاضرة ، لأنها ستنشر في الصحف ، وأرجو أن أعرف رأيك فيها ! »

***

وكان جبران خليل جبران قد أصدر كتابه «المواكب» سنة ١٩١٩ ، فكتب العقاد مقالا في جريدة الأهالي نقد فيه هذا الكتاب ، وكشف فيه عن أخطاء لغوية ، وانحراف في الفطرة والطبيعة الشاعرة والخيال السليم ، وحدث أن سافر إلى أسوان ، فبعثت إليه «مي» رسالة تقول فيها بعد الديباجة والتحيات « وقد لاحظت قسوتك على جبران خليل جبران ، وإن كنت أوافقك على بعض ما قلت ، وأعارضك في البعض الآخر . ولا تتسع هذه الرسالة لأن أقول لك ما أوافقك عليه، وما أعارضك فيه ، وأترك ذلك لفرصة أخرى .. وإلى لقاء قريب » .

«مي»

***

وقد أرسل إليها العقاد ردًا على هذه الرسالة يقول :

«آنستي العزيزة مي ...

« وصلني خطابك الرقيق ، وقرأته ، وكم كنت أود أن اسمع أو أقرأ النقاط التي وافقت عليها أو عارضتها في مقالي عن «المواكب» لجبران ، وأنا أعرف أن له مكانة في نفسك . وعلى كل ، فعندما نلتقي سأناقشك فيها ، أما عودتي من أسوان فلم أفكر فيها الآن ، وقد تقصر أو تطول ، وسأكتب لك حينما أعزم على السفر إلى القاهرة ، أما الجو في أسوان ، فهو حار ، ونحن في شهر مايو والسياح يسرعون في العودة وهم من الحر في ضيق شديد » .

«عباس»

***

فأرسلت إليه خطابًا مستعجلاً على أثر هذه الرسالة تقول فيها :

«الأستاذ الجليل العقاد ...

«وصلتني رسالتك ، وقصدت أن أكتب هذه على وجه السرعة قبل رحليك من أسوان لكيلا تنسى ما وعدتني به وأنت معي في القاهرة ، وأعتقد أنه سيكون في ذاكرتك

«لا تنسى حين الوقوف على أطلال «معبد فيلا» أبلاغ تحياتي إلى النيل الخالد بأسوان – في هذا المكان الساحر الذي كنت أتمنى أن أكون بجوارك أثناء تسريحك الطرف في مياهه الذهبية الهادئة .. وسأكون في انتظار عودتك .. وأرجو أن أراك يوم وصولك مساء .. » «مي» .

***

مضت مدة بلا رسائل بين الأستاذ العقاد ، والآنسة مي ، وكان هو قد شغل بالمعارك السياسية بين الوفد برياسة سعد زغلول ، وخصوم الوفد وعلى رأسهم عدلي يكن ، وعبد الخالق ثروت ، وإسماعيل صدقي ، وكان هو كاتب الوفد الأول ، وحدث أن سافرت في سيف سنة ١٩٢٥ إلى إيطاليا ، ثم غادرتها على ألمانيا للزيارة ، فبينما هو جالس في مكتبه هبطت عليه رسالة طويلة تصف فيها رحلتها على روما ، وتحدثه عن أهم شيء في نظره ، وهو «المكتبات» وأخبرته عن كتاب للأديب الإيطالي «أمانولي» عثرت عليه ، وقالت : « إن رأيت أن أرسله لك أو يكون معي إلى حين عودتي » وسألته عن أخبار القاهرة ،وأسفت لحرمانها من مناظر النيل الجميلة وقت الأصيل ، ولكنها تتعزى عنها بمناظر الحدائق التي تطل عليها من نافذة الفندق ، وقالت له : «سأحضر لك مجموعة من صور روما العريقة في الفن الجمال والمدنية. ثم كتبت وصفًا لينابيع روما في أربع صفحات منفصلة عن الرسالة جعلت عنوانه : «نشيد إلى ينابيع روما » أودعت فيه عواطفها الشابة المشبوبة التي تنم عن الحب المكبوت ، وثورة القلب المحروم ، وقد قالت في هذا النشيد الذي لم تنشره في كتاب من كتبها :

«تفيضين من كل صوب – يا ينابيع المدينة الخالدة – وتهزجين من كل ناحية ، وتنادين بالنابه والخامل على السواء ، ولك مساجلة مع المحروب والمحبور .. وصوتك يأبى إلا المضي في اصطحاب محكم مع جوف الأجيال التي تمر وتنقضي ، ومع البيان الناطق في آثار التاريخ ، وأطلال الحدثان .

«على مقربة من المعابد والبيع والمحاريب ، وفي الساحات ، والميادين والحدائق ، عند أبواب المتاحف وتحت أروقة القصور ، في جانب مدافن العامة والدهماء كما لدى ضرائح الآلهة والقياصرة والأبطال ومضاجع البابوات والقديسين والشهداء

«على ضفتي نهر التيبر الأشهب ، كما في غياض الهضاب السبع المحدقة بواديه، في جوار أنقاض الماضي وعلى مشهد من الأعمدة والرتائج والأفاريز وأقواس النصر ، التي يزعم شاعرها أنك ما زلت في كل مكان ، منتصبة في انتظار مواكب ظفر جديد – أنت يا نوافر رومه حاضرة في كل مكان متفجرة منبجسة في كل زمان شادية في كل أين وان ! .

«للإشادة بصنيعك ، وتمجيد حسنك ، وتضخيم قدرتك ، عمدت يد الفن إلى مقالع الرخام الملون ، ومناجم المرمر الشفاف ، ودرست عبقريات العصور خصائص الجمال والحب والحزن والحماسة والبطولة والطغيان وأحكام القدر ومظاهر الطبيعة ، واحتجاب الروح الشاملة ، فصاغت لها جميعًا نفيس الشخوص والدمي والكواسر والضواري والأنصاب ، وأقامتها عند فوهاتك وعلى خفافيك تمثل للأجيال اختلاج الكائنات ونزعات الأرواح» .

ثم تقول في هذا النشيد :

«كم ذا طلب عطشـــي الارتواء من المثول لديك ، يا عيون روما ، وكم ذا سألت خريرك ينسيني نفسي الجريحة !

«كم ذا تمنيت أوضــاع تماثيلك وملامحها ، وأنا أحبها سـعيدة بامتصــاص روحها من روحك ، وارتباط نصيبها بنصيبك في خدمة الفن وتمجيد العبقرية.

« تأملتك في الصــباح والأصــيل ، وعند انتصــاف الليل ، يا ينابيع روما وسمعتك قرب الصروح الشامخة ، وبين الأخربة الدارسة تسوقين في نفس لا ينقطع معاني الضحك والبكاء والعبث والتفجع ، والتهليل والنحيب ، والمجون والحكمة ، ففهمت منك أن نسـيج الزمان كنسـيج المياه متماسـك متناثر ، وأن ركبه يمر ويبقى ، وأن كل بداية تتلوها نهاية ، وكل نهاية تعقبها بداية ، وفهمت أنك أنت من أصـدق الصـور للأزمنة المتدافعة في المسـافة ، أبداً في ابتداء وانقضاء ، أبداً في انقضاء وابتداء ...

«.. نسيت نفسي يا للرغد ويا للهناء ، لكني أعود ، فأذكرها ويشتد عطشي الملتهب العميق ، فأتلقى من مائك – يا ينابيع روما – وأشـرب شـربة لها في فمي طعم الترياق والكوثر .

«لحظة ليس غير ، لقد رجعت على حالي ، فما ارتويت بقطرة إلا كانت لهيبًا في الأوام لا يرتوي ، وما فزت بفهم جديد إلا كانت الخاطرة المسـتحدثة وقودًا لعذاب فكري ، وطمعه إلى توسـيع حدوده وما نعمت بنفحة عطف ، إلا كانت زكوة لعاطفة الحنان التي لا تشبع في .. ولا تكتفي .. » !

***

بعثت الآنسـة مي هذا النشـيد العاطفي الرقيق ضـمن رسـالتها من روما إلى الأستاذ العقاد ، فحركت في نفسه الشوق إليها ، وحفزته على التعبير الصريح عما يضـمره نحوها من شـعور عميق وحب روحي صـادق ، فرد عليها بهذه الأبيات التي لم تنشر في الديوان :

«آنستي العزيزة مي .. القاهرة ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٥

«أبعث بهذه الأبيات من وحي رسالتك الأخيرة :

آل رومـا لـكـمـو مـنـي الـولاء	وثـنــاء عــاطــر بــعــد ثــنــاء
وســـلام كـلـمـا ضـــاء لـنـا	طالع الإصــباح أو جن مســاء
فـي حـمـاكـم كـعـبـة تـرمـقـهـا	مــهــج مــنــا وآمــاق ظــمــاء
كـعـبـة لا كـالـتـي يـعـمـرهـا	بينكم رهط القســوس الحنفـاء
كـرمـت رومـا وذكـراهـا بـهـا	وبنو روما ومن تحت الســماء

نـزلـت ثـم حـجـيـجـا داعـيًـا	وهـي أولـى بـحـجـيـج ودعـاء
أنـت في رومـا وفي مصـــر أنـا	بعـدت شـــقتنـا لولا النجـاء
بـيـنـنـا جـيـرة نـور ســـاطـع	فوق رأســينا ونور في الخفاء
أرقـب البـدر إذا الليـل ســجـا	فلنـا فيـه علـى البعـد لقـاء
وأرود الشـــعر في مثـل الكرى	فـإذا فيــه مـن الطـيف عزاء
حـلـم الصـــــادي فمن يوقظـه	وعلى «فيه» من الماء شـــفاء

«عباس»

وكان «العقاد» يمضـي رسـائله دائمًا إلى «مي» باسـم «عباس» مجردًا . وقد تلقت هذه الأبيات بعد رحيلها من روما إلى برلين ، فوجدت فيها نفس الشعور العميق الذي تشعر به نحوه ، فردت عليه من برلين برسالة صريحة عبرت فيها عما تشعر به من حب وهيام ..

كانت العلاقة بين الآنسـة مي وعباس العقاد – في أولها – علاقة أدبية ، أو قل كانت تبدو صـــداقة أدبية ، وزمالة في الفكر والأدب ، فكلاهما أديبان ، وكلاهما كاتبان مفكران ، وقد مكثت هذه العلاقة في ظاهرها مدة لم يصــرح فيها أحدهما للآخر بما يكمن في جوانحه ، وما يضـــمره في أعماق قلبه من حب وهيام .. !

ولكن لماذا مكثا هذه المدة لم يصرح أحدهما بما يشعر به للآخر ؟

لماذا لم يصـرح العقاد للآنسـة بأنه يحبها من أول رسـالة أرسـلها إليها من أسوان إلى القاهرة ؟ ..ولماذا لم تصـرح الآنسـة مي للأستاذ العقاد بأنها تغرم به ، وأنه أول رجل أحبته في حياتها ، من أول رسالة أرسلتها إليه من القاهرة إلى أسوان ؟

لماذا لم يصــرحا بالحب ؟ .. ولماذا يصــبر كل منهما هذا الصــبر الطويل ، ويكبت هذا الشـــعور الحي القوي هذه المدة ، حتى يجد منفذًا صــغيرًا فينفجر ، ويجرف كل شـــيء أمامه ، لكن في حدود الخلق الرفيع ، والأدب اللائق ، وفي حرارة الروح، لا في شهوة الجسد .. !

لقد كانت «مي» فتاة جميلة النفس ، جميلة الروح ، فاتنة برقتها وحديثها الشهي ، وملكتها النابغة ، وكان العقاد في شبابه فتى جميلا ـــ قوي الشخصية لامع الاسم واسع الشهرة في الأدب وعالم الفكر .. ولكن كلا منهما تربى تربية دينية ، ونشـأ منذ طفولته وصـباه على العادات والتقاليد الشـرقية التي كانت في ذلك الحين تسيطر على الشباب ، وعلى الحياة الشخصية والاجتماعية ، وتستنكر التصــريح بما يشـغل العاطفة من حب وهيام ، وخاصــة الفتاة ، فكلمة «الحب» وإن كانت صغيرة في لفظها ومبناها ، ولكنها في معناها كبيرة وخطيرة . !

وكان في طبع العقاد كبرياء يشبه كبرياء «المتنبي» في الحب حين يطلب إلى حبيبته الجميلة الفاتنة أن تزوده من حسن وجهها ، وأن تصله هي ، فيصلها هو كذلك كما يقول :

زودينا من حسن وجهك مادا   م فحسن الوجوه حال تحول

وصلينا نصلك في هذه الدنيا   فإن المقام فيها قليل

وكان في طبع الآنسة مي حياء شديد ، وفي خلقها احتشام كبير درجت عليه منذ صباها كفتاة شرقية عربية تحافظ على التقاليد ، وكانت ذات فطنة واحتفاظ بكرامتها على الرغم من شبابها المتوقد ، فهي تخشى أن تتورط في التصريح بالحب، فلا تجد من الجانب الآخر مثل ما صرحت به من شعور ، فترجع كاسفة جريحة الفؤاد ، كئيبة النفس .

***

ولكن حين وصلتها قصيدة العقاد بعدما بارحت روما إلى برلين في يوليو ١٩٢٥، وفيها يعبر عن شعوره نحوها ، ويقول :

أنت في روما ، وفي مصر أنا   بعدت شقتنا لولا النجاء

أرقب البدر إذا الليل سجا   فلنا فيه على البعد لقاء

وأرود الشعر في مثل الكرى   فإذا فيه من الطيف عزاء

لما قرأت هذه الأبيات وسواها مما تضمنته القصيدة تصارحه بأنها تشعر بنفس الشعور الذي تشعر به ، فأرسلت إليه من برلين بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة ١٩٢٥ رسالة تقول فيها :

«عزيزي الأستاذ ...

«أكتب إليك من بلد كنت دائما تعجب بشعبه ، كما أعجب به أنا أيضًا ، ولكن إعجابي بقصيدتك البليغة في معناها ومبناها فاق كل إعجاب ، وقد اغتبطت بها غبطة لا حد لها ، واحتفظت بها في مكان أمين بين أوراقي الخاصة خوفًا عليها من الضياع !

«إنني لا أستطيع أن أصف لك شعوري حين قرأت هذه القصيدة ، وحسبي أن أقول لك أن ما تشعر به نحوي هو نفس ما شعرت به نحوك منذ أول رسالة كتبتها إليك وأنت في بلدتك التاريخية أسوان .

«بل إنني خشيت أن أفاتحك بشعوري نحوك منذ زمن بعيد – منذ أول مرة رأيتك فيها بدار جريدة «المحروسة» إن الحياء منعني ، وقد ظننت أن اختلاطي بالزملاء يثير حمية الغضب عندك . والآن عرفت شعورك ، وعرفت لماذا لا تميل إلى «جبران خليل جبران! »

وكانت «مي» تقدر جبران ، وقد كتبت عن كتابه «المواكب» مقالا أثنت عليه ثناء جميلا ، وكان العقاد له رأي خاص فيه ، ولكنها بطبيعة المرأة ، ظنت بعد تصريحه بشعوره نحوها أنه يغار منه حين تتحدث عنه !

ثم قالت في نهاية الرسالة :

«.. لا تحسب أنني أتهمك بالغيرة من جبران ، فإنه في نيويورك لم يرني ، ولعله لن يراني ، كما أني لم أره إلا في تلك الصور التي تنشرها الصحف . ولكن طبيعة الأنثى يلذ لها أن يتغاير فيها الرجال وتشعر بالازدهاء حين تراهم يتنافسون عليها ! .. أليس كذلك ! ..

«معذرة .. فقد أردت أن احتفي بهذه الغيرة ، لا لأضايقك ، ولكن لازداد شعورًا بأن لي مكانة في نفسك ، أهنيء بها نفسي ، وأمتع بها وجداني ، فقد عشت في أبيات قصيدتك الجميلة ، وفي كلماتها العذبة وشعرت من معانيها الشائقة ، وفي موسيقاها الروحية ، ما جعلني أراك معي في ألمانيا على بعد الشقة ، وتنائي الديار .

«سأعود قريبًا إلى مصر ، وستضمنا زيارات وجلسات ، أفضي فيها لك بما تدخره نفسي ، ويضمه وجداني ، فعندي أشياء كثيرة سأقولها لك في خلوة من خلوات مصر الجديدة ، فإني أعرف أنك تفضل السير في الصحراء ، وأنا أجد فيك الإنسان الذي أراه أهلاً للثقة به والاعتماد عليه .. »

وبعد أن ختمت هذه الرسالة ، وضعت معها مقالة بعنون : « أتعرف الشوق والحنين ؟ » وقالت له في هامش رسالتها : « كتبت هذه المقالة من وحي قصيدتك، وسوف لا أنشرها الآن حتى أعود إليها مرة أخرى ، كما أفعل دائمًا ، وكما يفعل الشعراء في قصائدهم ، وأنا أعتبر هذه المقالة قصيدة منثورة .. أليس لي أن ادعي ذلك ما دمت لا أستطيع مثلك أن أدبج الشعر المنظوم ؟ » وفي هذه المقالة تقول بعد سطور :

«.. أعرفت الشوق ، وقد ثار وفار ؟ ! ..

«أعرفته وقد أطلق من وجدانك شخصًا مجهولا منك ، يطمح في وجع وتفطر إلى البعيد السحيق .

«أعرفته تنبهه المحسوسات ، وتزكية المدركات ، وتؤججه الذكريات !

«أعرفته يرعى في كيانك ، فأنت روح تلوب ، وصوب يلهج ، ويد تلتمس وجوانح تضطرم ، وجنان يتسعر ، وضلوع تتفجر ؟!

«إن أنت عرفت مرة الشوق والحنين ، وشعرت بالانكماش الأليم يملأ صدرك غمًا وكربًا ، وأنت كنت مرة ضحية الكلابة التي تعض على القلب بنابها القاسي ، وفريسة المطارق التي تطرق فيه بلا رحمة فتدغدغه ، وترضضه دون أن تقوى على تحطيمه وملاشاته ..

«إذن ، فاعلم أنك في تلك الساعة متمتع باستعداد الخالق القادر ، تضطرم في فؤادك الشرارة التي سرقها الإنسان القديم من نادي الأرباب الأقدمين .

«لأن هذا العالم ، إنما هو ابن الصبابة والجوى ! «وما برا الباري هذه الأكوان إلا عندما شاء عطفه أن يعرف الشوق والحنين » .

كانت الآنسة مي تضع في رسائلها إلى الأستاذ العقاد بعض خطراتها مما يناسب عاطفة الحب التي ربطت في ذلك الحين بين قلبيهما ، أو ترسل إليه في طي رسالتها الشخصية مقالة أو بحثًا تريد أن يطلع عليه قبل غيره ، وكثيرًا ما تكون المقالات عاطفية فإذا كانت بحوثًا مست عاطفة الإنسان من جانب من الجوانب .

وكان الأستاذ العقاد يضع كذلك ضمن رسائله بعض كلماته العاطفية نثرًا ، أو نظمًا .. وكثيرًا ما نظم فيها أبياتًا أو قصائد نشر بعضها في الديوان دون التصريح باسمها ، بل كان يسميها هندًا أو ليلى ، أو غيرهما من الأسماء المستعارة . وكان اسم «هند » في شعره هو الأكثر لأنه على وزن «مي» .

وانتهت رحلة ألمانيا ، وعادت الآنسة مي إلى مصر ، فعلمت أنه سافر إلى أسوان لوفاة شقيق له يدعي «مصطفى» ، وكان هذا الشقيق شابًا رياضيًا نشيطًا يعشق الرياضة ويزاولها كثيرًا ، فكسرت ذراعه في إحدى المرات ، وعلى الرغم من علاجها وشفائه ، فإنها كانت تعوقه عن مزاولة الرياضة ن وخاصة السباحة التي كان يعشقها ، فلما جاء وقت الفيضان أبي إلا أن يسبح كعادته مع بعض الشبان ، فخانته ذراعه ، ومات غرقًا في النيل ، فأرسلت إليه «مي» تلغراف عزته فيه عن مصابه ، فرد عليها بخطاب شاكرًا لها هذا العزاء . وقد قال فيه :

«عزيزتي مي ...

«سافرت كما تعلمين إلى أسوان بغير قصد مني . ووددت أن أكون بالقاهرة حيت عودتك من برلين . وقد آثرت أن أكتب إليك هذه الرسالة بدلا من التلغراف.. » ثم جعل يغازلها بعبارات مسجوعة يصف فيها رقتها وأنوثتها الفياضة وروحها العذبة . ثم قال :

« .. لولا أني أشعر بالتعب من تأثير مصابي بأخي مصطفى ، لقلت لك الكثير ، وإذا كان الإنسان في مصابه يتعزى حين يرى أحبابه وأصدقاءه يشاركونه شعوره فإني أبعث مع هذا بتلك الأبيات التي رثيت فيها أخي ، ونقشتها على قبره . ولست أقصد أن تشاركيني في أحزاني ، ولا أن تشعري مثلي بالكآبة ، فأنا أود – لو أستطيع – أن أجمع كل ما في الدنيا من غبطة وسرور لأقدمها إليك . ولكن الأدب يحيا بالقراءة ، ولا سيما إذا قرأته «مي» أما الأبيات ، فهي .

أيها القبر فيك غصن وطيب ... قصفته المنون قبل أوانه

مثلما تعبث السموم بزهر ... عاطر ناضر على أغصانه

بنت يا مصطفى ، وما بنت عن قلب ... كسير يذوب في أشجانه

كان أحرى بك الديار من القبر ... وثوب العروس من أكفانه

سوف ألقاك في الثرى عن قريب ... كل حي موكل بزمانه

قرأت «مي» هذه الأبيات ، فبكت واكتأبت ، وبعثت إليه برسالة تقول فيها «لقد أبكيتني كثيرًا وإني لأشعر بالكآبة تعذب نفسي ، وتسيطر على حسي » ثم ترجمت له فصلا كتبته بالفرنسية في كتابها «زهرات الحلم » بعنوان : « كآبة » تقول فيه :

«حزينة اليوم روحي ، وحزنها القائم مؤلمي ، فعلام الاكتئاب ؟

«أترى الأوراق المتناثرات عن غصونها تدري لأي غرض تقلبها الريح ، وتتلاعب بها في تطايرها ؟

«أنها لتتناثر تلك الوريقات المسكينة ، وتتهاوى أكوامًا هي التي كان يمضها أسر الالتصاق بشجرة أثاثها الحياة .. هي التي نزعت إلى الانعتاق والتحرر ، ها هي في نهاية الأمر فائزة بحريتها . «كم تخال مغتبطة هذه الوريقات المصفرة الذابلة المتجمدة ، المغضنة المتقبضة ! كم هي مغتبطة بهذا الانفصال ؟ .. »

إلى أن تقول في النهاية :

«أيها الإله ..

لماذا وضعت في عيني الإنسان هذه العبرات وقضيت بألا تجف ، ولا تنضب؟

«لماذا ! ؟

أي مسرة أنت ملاق في النكال والإيلام ؟ .. إنك القادر ، ونحن ضعاف أنك العظيم ، ونحن بائسون نحن أشرار ، وأنت كل الصلاح ، أما كان الغفران أجدر بعظمتك ؟ .. أو ما كانت ملاشاتنا أوفق لرحيب قدرتك ؟ ..

«نفسي اليوم حزينة ، وحزنها قائم ، أفكر في الأوراق المتناثرة ، وفي الأحياء الذين يضحكون ، وفي الموتى الذين مضوا كأنهم لم يكونوا .

«مي»

وصلت هذه الرسالة إلى الأستاذ العقاد وكان على أهبة السفر إلى القاهرة ، فنظم لها أبياتًا بعنوان «تبكين» ، ولما حضر إلى منزله بمصر الجديدة ، بعث بها داخل خطاب إليها بتاريخ ١٧نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، وهي عشرة أبيات جاء فيها :

تبكين . وا لهف الفؤاد يذيبه

ذاك الحنين يذوب في خديك

أيراك باكية وأنت ضياؤه

ونعيم عيشي كله بيديك

عزيزة تلك الدموع فليتها

يـقـنـو قـطـيـرتـهـا نـظـيـم سـلـيـك

لـمـلأت ثـم يـدي بـأكـرم جـوهـر

مـن عـطـف قـلـبـك فـاض مـن عـيـنـيـك

لـو أسـتـطـيـع جـمـعـت كـل ذخـيـرة

فـي الـدهـر مـن ضـحـك يـروق لـديـك

إلى آخر هذه الأبيات التي نشرها في ديوانه – الجزء الرابع – دون أن يصرح باسمها أو تاريخها كما فعل في كل ما نشره عنها في هذا الديوان .

فلما قرأت مي الأبيات ، ولم يكن قد اتصل بها حين عودته من أسوان ، أرسلت إليه رسالة بمنزله بمصر الجديدة تعتب عليه ، فرد عليها العقاد برسالة أيضًا ، جاء فيها :

«عزيزتي ..

« لا تظني أنني تأخرت لقصد مني في هذا التأخير ، ولكن كان هناك عمل شغلني في الجرنال ، ثم لازمت الفراش نتيجة التعب والإرهاق ، وكنت سأكلمك بالتليفون ، ولكن آثرت أن أكتب إليك بدلا من التليفون ! » .

ثم تحدث عن ندوتها «الصالون الأدبي » . واعتذر لها عن عدم حضوره إليها «يوم الثلاثاء » - وهو موعد الصالون كل أسبوع – لأنه يستثقل بعض الحاضرين ثم ذكر لها «مصطفى الرافعي» . وقال : « ماذا يعجبك في هذا الرجل الثقيل الأصمّ .. إنني أعرف أنك لا تعيرينه انتباهًا ، وتكرهين تحببه إليك ، وتمقتين غزل الشيوخ بالشباب .. والأولى أن تعتذري عن حضوره .. وإني أفضل أن يكون لقاؤنا في غير الثلاثاء . وفي انتظار رسالتك . «عباس»

جاءت هذه الرسالة إلى «مي» وكانت في قلق ، لأنه كان في تلك الأيام مهمومًا بكثير من المهام السياسية والعائلية ، وتخشى أن تصرفه تلك الهموم عنها بعد ما صرحت بشعورها نحوه ، وكان هذا الشعور عن وجدان خالص وقلب متيم ، فأرسلت إليه ردًا على رسالته ، تقول فيها :

«... وصلتني رسالتك ، ولا يسعني إلا أن أقدر شعورك . ولا تظن أني انظر إلى أحد من زوار الندوة نظرتي إليك ، أو نظرة تجعلني في مكان الانتباه إليه ، وأنت لست في حاجة على كتابة كلمات أؤكد فيها شعوري نحوك ، وما أكنه لك من إعجاب وتقدير وفي اللقاء متسع للتعبير ...

«أما عن اقتراحك الحضور في غير «الثلاثاء» . فإني أترك لك اختيار اليوم والوقت . على أن يكون الموعد مساء .. » «مي»

***

وبعد هذه الرسالة اتصل الأستاذ العقاد بالآنسة مي ، واتفقا على أن يكون اللقاء مساء يوم الأحد من كل أسبوع ..

وكان أن تقابل العقاد ، ومي في «يوم الأحد» . وصار هذا اليوم هو موعد لقائهما من كل أسبوع ، بدل يوم الثلاثاء ، وهو موعد الندوة أو « الصالون الأدبي» الذي كان يجتمع فيه طائفة من كبار الأدباء في الشرق ، وكانت فيه النجمة الساطعة التي تحيط بها العيون ، وتتنافس في التحدث معها والاستماع إلى حديثها الأفواه والآذان .

وفي يوم الأحد الأول جاء العقاد إلى منزلها ، وجلسا معًا في غرفة المكتب يتحادثان فكان الحديث ، حديث الحب ، فقدم لها العقاد ثمانية أبيات جعلها بعنوان : «مولد الحب » فتناولتها فإذا فيها :

ولد الحب لنا . عاش الوليد

وحماه الله من كيد الحسود

وبدا في مهده ، بل عرشه

ضاحكًا يأمر فينا ويسود

«مي» ما نرضعه ؟ .. نرضعه

بأفاويق حياة لا تبيد

ولندلله وننشئه على

غبطة العزة والعيش السعيد

وليعش طفلا على طول المدى

هكذا يخلد أطفال الخلود

نتولاه بعطف دائم

وأناشيد حسان ووعود

وغذاء من يذقه يبتعد

أبدًا عن كبرة العمر المديد

إنه من روحنا أن نحيه

يحينا في غده هذا الوليد

قرأت «مي» هذه الأبيات ، فسرت سرورًا كبيرًا وخفق قلبها شوقًا ، وأثنت على أدبه وشعره ، وقالت تداعبه : « إن من يقول هذا الشعر جدير بأن يغار منه «جبران»، لا أن يغار من «جبران» !

وهي تشير إلى نقده لكتاب «المواكب» لجبران خليل جبران ، وحملته عليه ، ومخالفته له فيما ذهب إليه ، وكانت تشعر أنه يغار من عطفها على أدب جبران ، ويظن أنها تحبه !

وحدث أن كتب في ذلك الحين مقالين في « البلاغ» أحدهما عن «حب المرأة » والثاني عن « الغيرة» وقال في الأول :

«.. ولسنا نظلم المرأة ، ولا نحن نقصد إلى القدح في طبيعتها حين نقول : أنها تحب لتهب وتستسلم ، وتغمض عينيها في نشوة الثقة والاعتماد الطيع الأمين ، فليس للمرأة في قرارة نفسها سعادة أكبر من سعادة الطاعة ، ولا أمل أرفع من حب الرجل الذي تطيعه وتلقى بنفسها بكل ما فيها من ذخر حلاوتها بين يديه وليقس عليها الرجل ، أو يرحمها ، ويعذبها أو ينعم بالها ، فإنها لسعيدة بالطاعة إذا وجدت من يطاع .. » .

ثم قال :

«خلقت المرأة لتعطي ، وخلق الرجل ليأخذ منها كل ما تعطيه ، خلقت المرأة للطاعة ، وخلق الرجل للسيادة خلقت المرأة للأمان ، وخلق الرجل للجهاد ، خلقت المرأة لتحب ، وخلق الرجل ليحب نفسه في حبه إياها . هذه هي حقيقة الحقائق ، قد أسرف الشرق في الإيمان بها ، وأسرف الغرب في إنكارها ، وبين هذين النقيضين وسط هو خط السلامة وباب النجاة .. » !

وقال عن غيرة المرأة في المقال الثاني ، أنها أشد من غيرة الرجل ، وأنها أشقى منه بغيرتها ، لأنها أحوج إلى الحب ، وأعظم استغراقًا فيه ، وأخوف من الفقد والهجران .. إن الغيرة ثمرة الحب ، والأثرة ، والخوف . وهذه العناصر الثلاثة تثمر في طبائع النساء ما ليست تثمره في طبائع الرجال ، فهؤلاء وهؤلاء يغارون ، ولكن أحرى الفريقين بالزيادة من هو أحرى بإشفاق وأخسر صفقة في الضياع » !

قرأت هذين المقالين ، فلم تنتظر حتى يأتي موعد «الأحد » بل بعثت إليه برسالة توافق فيها على رأيه في غيرة المرأة ، ولكنها تعترض على رأيه في حب المرأة وسيادة الرجل عليها ، ثم قالت :

«.. وكنت أتمنى أن تكون رفيقًا بحواء ، فإن حواء تعتز بأنوثتها الضعيفة في وقت واحد ، وهي أن قبلت الطاعة ، فلن تقبل السيادة ، وهي إذا أحبت الرجل واستغرقت في حبه ، فليس ذلك عن أثرة أو أنانية ، وإنما عن تضحية تدفعها إليها الطبيعة . وأنا إذا عرض علي – فرضًا – أن أتخلى عن أنوثتي التي أعتز بها ، لأكون رجلاً سيدًا ، فإني أرفض رفضًا باتًا ، بل أنا أول الرافضات . !!

«وإني أعتقد أنك ستغير رأيك في المرأة في يوم من الأيام .. » «مي»

فرد عليها برسالة جاء فيها بعد عبارات الأشواق : «.. إنك على ما ظهر قد فسرت رأيي في المرأة على غير ما أعنيه ، وأنا أمدح احتفاظك بأنوثتك ، وتعصبك لهذه الأنوثة الجميلة ، وأؤيدها كل التأييد ، وأعارض كل المعارضة أن تصبحي رجلاً .. أعوذ بالله من ذلك ! ..

«وإني أرى أنك لو تخليت عن جنس حواء لضاعت الأنوثة من هذا الجنس كله، وفقد كل لطف وحلاوة وجمال ..

«فأنت بالنسبة لبنات حواء نجمة ساطعة يضيء جنسكن بضيائك ، ويزدان بلألأتك ، ولو تخليت عنه لفقد كل ما فيه من بهاء وجاذبية ورقة وعطف » !

«عباس»

ولم يكن قد زارها في ذلك الأسبوع لشاغل منعه ، فاعتذر لها ، فبعثت هي برسالة موجزة إليه ، تقول بعد سطور من الشوق والحنين :

«.. كنت في انتظارك ، لأناقشك رأيك فيما ذهبت إليه في بنات حواء ، لأنك على ما يبدو ما تزال على رأيك فيهن ، على الرغم من أن تجربتك مع إحداهن «تعني نفسها » قد دلتك على أنني صديقة لك ، وأكثر من صديقة ، ورفيقة لك وأكثر من رفيقة .

«ولا أدرى لماذا هذه الحملة التي تابعك فيها بعض الكتاب بعنف على بنات حواء ، وقد أعددت لك يوم الأحد القادم «مائدة » من المناقشة الحامية ، ولكن ليس فيها ما يلذع ، وأتمنى أن تكون أهدأ حالاً .. »

«مي»

إياك أن تهجوني

وذهب إليها في الموعد ، وأخذت تناقشه في رأيه في المرأة وحب المرأة ، فأصر على رأيه ، وأصرت هي على رأيها ، ثم قالت له : «أنا إحدى بنات حواء وأعتبر أي حملة عليها هجواً لي .. وهل ترضى أن تهجوني ؟! » فأخذ يلاطفها ، حتى هدأت ، ثم اقترحت عليه في ذلك المساء أن يذهبا – كعادتها من آن لآخر – لحضور حفلة الفانوس السحري في « كنيسة حي الظاهر » ، وكانت هذه الكنيسة تعرض في مساء كل «يوم أحد » فيمًا دينيًا عن حياة المسيح وتعاليمه وحياة القديسين المسيحيين ، لأنها كانت تتحرج من أن تخرج معه إلى حفلة عامة ، أو إلى أي دار من دور السينما.

ولكن كنيسة الظاهر ، كانت فرصة للحبيبين ينتهزانها للخروج معا دون أية شبهة . وبعد انتهاء الحفلة اصطحبها إلى منزلها بشارع المغربي ، ثم قالت وهي تودعه في لطف ودعابة :

إياك وحواء ، إياك أن تهجوني !

فابتسم ضاحكًا من قولها ، وأجابها : « نعم سوف أهجوك ! »

وعاد إلى منزله بمصر الجديدة ، فلم ينم في تلك الليلة حتى نظم خمسة عشر بيتًا، وفي الصباح أرسلها إليها في رسالة بعنوان : « أهجوك» جاء من أبياتها :

أهجوك يا أكرم من أمدح

ومن باطرائي لها أصدح

أهجوك والتسبيح أحرى بما

أجد فيه اليوم أو أمزح

قاسية أنت ، ولكنني

أقبل الكف التي تجرح

وأعظم القسوة تلك التي

يلهو بها المجروح بل يفرح

إلى أن يقول :

هذا هجائي فيك فصلته

وليتها تجربة تفلح

وفي صيف ذلك العام سافر إلى لبنان ، فما كادت تمضي عليه بضعة أيام في ربوع هذا القطر العربي الجميل ، حتى أرسل إليها من مصيفه فوق جباله الشامخة رسالة يعبر فيه عن شعوره في غربته عنها ، ولو أنه ليس غريبًا في وطنها ، وشعوره في غربتها عنه ، ولو أنها ليست غريبة في وطنه ، ثم يقول:

«لقد أصبحنا بديلين : أنت في مصر ، وأنا في لبنان ، ولكننا شريكان في وطن كبير واحد هو الوطن العربي . وإذا كان كل منا نازح عن داره إلى دار صاحبه ، فإن حبنا قد ربط ما بين الدارين برباط وثيق » .

ثم قال هذه الأبيات :

يا بنت لبنان أقريك التحية من
هضاب لبنان بين البحر والشهب
لا يمنع القلب عنها حين يرسلها
بعد من البين أو بعد من الغضب
أمسيت ضيفك في أرض درجت بها
طفلا صغير الخطى مأمونة اللعب
وذقت أول نشوات الحياة بها
وكنت نشوة «أم» برة و «أب»
لقلما علم الراءوك يومئذ
من ذا يذوق الجنى من ذلك العنب
وأن لبنان يسقى كرمه لفتى
بجانب النيل صادي القلب مكتئب
وشي الصبا وبرود الحسن والطرب
أرى مثالك فيها حيثما طمحت
عيني ، وأخلو بها في كل مرتقب
فأتت لبنان في زهر وفي ثمر
وأنت لبنان في ماء وفي عشب

إلى أن يقول :

فليت لبنان يغنني إذا نظرت
عيني ، ولم تر تلك العين واحربي
وليت لبنان يرويني إذا ظمئت
روحي ، وثغرك ناء غير مقترب

وقد كان لهذه الأبيات تأثير كبير في نفس الآنسة مي ، وهي من أبلغ ما قاله في وصف شوقه وحنينه إليها .. وهو بعيد عنها في لبنان ، وقد زاد على هذه الأبيات في ديوانه حتى أصبحت قصيدة تبلغ خمسة وعشرين بيتًا وتعد من غرر قصائده في الحب ! ..

***

وقد حركت رحلة العقاد إلى لبنان في نفسها لاعجا غير لواعج الشوق والحب نحوه – لاعجا كان ينتابها ، وتسائل نفسها من أجله قائلة : « أين وطني ؟ » فإن أمها من فلسطين ، وأباها من لبنان ، وهي تعيش في مصر ، وقد اتخذتها لنفسها وطنًا ، فكتبت إليه رسالة طويلة ضمنتها مقتطفات من مقالة نشرتها بعد عودته بعنوان : « أين وطني ؟ » جاء فيها :

«عندما ذاعت أسماء الوطنيات .. كتبت اسم وطني ، ووضعت عليه شفتي أقبله ، أحصيت آلامه مفاخرة كأن لي كذوي الأوطان وطنًا . ثم جاء دور الشرح والتفصيل فألممت بالمشاكل التي لا تحل ، وحنيت جبهتي ، وأنشأت أفكر ، وما لبث أن انقلب التفكير في شعورًا ، فشعرت بانسحاق عميق يذلني لأني دون سواي ، تلك التي لا وطن لها .. !

« ولدت في بلد ، وأبي من بلد ، وأمي من بلد ، وسكني في بلد ، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد ، فلأي هذه البلدان أنتمي ؟ .. وعن أي هذه البلدان أدافع ؟.. يمضي الموتى تاركين للأحداث وراثات حسية ومعنوية ينعمون بها وشرفًا قوميًا يعززونه ، وتقاليد يحافظون عليها ، أما أنا فلم يبق لي من آثار موتاي سوى الأثقال المعلقة في يدي وعنقي !!

«فلماذا قدر على أن أكون ابنة وطن تنقصه شروط الوطنية ، فأمسى تلك التي لا وطن لها ؟ !

«ما سمعت وصف بلاد إلا سعى إليها اشتياقي .

«ولا حدثت عن بسالة أمة وسؤددها إلا تمنيتها أمتي .

«ولا تخيلت مسافات الأرض ، وأبعاد الفلك والصحاري والبحار والكواكب والعوالم الأخرى إلا اهتاجني الحنين إليها كأنها أوطان يردد هواؤها ترنيمة طفولتي ، وتنتظرني فيها قلوب الأحباب والخلان .

«أما وقوى إعزازي تتوزع باستهتار وجنون ، فلماذا تتجمع قوي اكتئابي عميقة مرهفة ، لأني أنا وحدي – وحدي في الدنيا- تلك التي لا وطن لها ؟

***

وصلت هذه الرسالة إلى الأستاذ العقاد ، وفيها هذا الوصف ، فعرف أنها تعاني ضيقًا نفسيًا شديدًا فرد عليها برسالة يقول فيها :

«... عجبت حين قرأت كلماتك التي أرفقتها برسالتك وقد ذكرت أنك «وحدك في الدنيا» مع أنك «أنت هي الدنيا» بما فيها من نور ونار ، ونجوم وأزهار، وجوهر ونضار ، ونشوة ومتاع ، ثم قال في أبيات بعنوان : «أنت هي الدنيا» :

ماذا من الدنيا لعمري أريد ؟

أنت هي الدنيا ، فهل من مزيد

فيك لنا نور ونار معًا

وأنجم زهر وأفق بعيد

وفيك روض مسفر عاطر

وجوهر حر ودر نضيد

وكل ما في الكون من روعة

لها نظير فيك حي جديد

بل أنت دنيا غير هذي الدنى

وكل حب فيه «كون» وليد

كانت رسائل العقاد في أكثرها مملوءة بالشعر ، بل كان بعضها شعرًا خالصا ليس فيه من النثر إلا «آنستي العزيزة مي .. ! » وقد نشر طائفة منه في الجزء الرابع من ديوانه الذي أصدره سنة ١٩٢٨ .

وأبدل فيه باسم «مي» اسم «هند» حين كان يضطر إلي ذكر الاسم في سياق الوزن .. ! أما «سارة» التي كان يحبها في الوقت الذي كان يحب فيه «مي» حبًا روحيًا ، فيذكرها باسم مستعار أيضًا هو : «سعاد» أو «ليلي» . ليس لنا أن نذكر اسمها الحقيقي الآن ، لأنها ما تزال حية ترزق في باريس ، وهي مسيحية لبنانية كانت تعيش في مصر ، ثم سافرت إلى فرنسا منذ ثلاثين سنة وما تزال بها حتى الآن. وقد أرسلت صورتها إلى الأستاذ العقاد منذ خمس سنوات وهي صورة تمثلها في سن الستين ، ولكنها تحتفظ بذكريات الجمال والشباب ، وما تزال بها ملامح صورة لها صورها العقاد جالسة عن يمينه في شباب الحب الذي جمعهما في شباب العمر وربيع الحياة ، واحتفظ بها مع الثانية في مكان خاص إلى وفاته ! ..

***

وقد كانت «مي» لا تعلم من شأن «سارة» شيئًا . وكانت «سارة » لا تعلم من شأن «مي» إلا أن «عباسًا» يعرفها معرفة أدبية ، ويقدرها لعلمها وأدبها . ولكنها كانت تتبرم بزيارته لها حين تعلم أنه زارها . وكانت تجتهد أن تشغله عن زيارتها في اليوم الموعود . فيؤجل موعد زيارة «مي» مكتفيًا بحديث التليفون . إلا اليوم الذي تعلن فيه « كنيسة الظاهر» عن أفلام الفانوس السحري ، فلا اعتذار عن حفلتها بل لابد أن يذهبا معًا إليها ، لأنها الحفلة التي تقوم مقام الذهاب إلى السينما معًا ، وتتيح للحبيبين أن يقضيا وقتًا سارًا لا شبهة فيه ، ولا رقابة ولا رقباء ، فتنعم فيه روحاهما بأنس الحب ، ومتعة القرب ونجوى السرائر والوجدان .

وهنا نسأل «العقاد» كيف جمع بين هذين الحبين :

«حب مي » و «حب سارة» ويجيب عن هذا السؤال ، فيقول :

«إذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء ، فذلك هو الحب ! ..

«وإذا أصبح النساء جميعًا لا يغنين الرجل ما تغنيه امرأة واحدة فذلك هو الحب! ..

«وقد يميز الرجل امرأتين في وقت واحد ، لكن لابد من اختلاف بين الحبين في النوع ، أو في الدرجة ، أو في الرجاء ، فيكون أحد الحبين خالصًا للروح والوجدان . ويكون الحب الآخر مستغرقًا شاملاً للروحين والجسدين ، أو يكون أحد الحبين مقبلا صاعدًا ، والحب الآخر آخذا في الإدبار والهبوط . أما أن يجتمع حبان قويان من نوع واحد في وقت واحد ، فذلك ازدواج غير معهود في الطباع ، لأن العاطفة لا تقف ولا تعرف الحدود . وإذا بلغت العاطفة مداها جبت ما سواها.. » .

ثم يعترف واصفًا ما كان بينهما بصيغة المتكلم :

«وقد كنت أحب «مي» حين التقيت بسارة لأول مرة في «بيت مريانا » بمصر الجديدة ، أحببتها الحب الذي جعلني أنتظر الرسالة ، أو حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكنا كثيرًا ما نتراسل ونتحادث ، وكثيرًا ما نتباعد ونلتزم الصمت الطويل إيثارًا للتقية ، واجتنابًا للقيل والقال . ولكننا في جميع ذلك كنا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسان تتلاقيان وكلاهما على جذوره وتتلامسان بأهداب الأغصان ، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق . وكنت أغازلها ، فتومئ إلى بأصبعها كالمنذرة المتوعدة ، فإذا نظرت إلى عينيها لم أدر أتستزيدني ، أم تنهاني ، ولكنني أدري أن الزيادة ترتفع بالنفحة إلى مقام النشوز !

«وكنا نتواعد إلى جلسة من جلسات الصور المتحركة في مكان لا غبار عليه «كنيسة الظاهر» . فنتحدث بلسان بطل الراوية وبطلتها ، ونسهب ما احتملت الكناية والإسهاب ، ثم نغير سياق الحديث في غير اقتضاب ولا ابتسار .

«وكنا أشبه بالنجمين السيارين في المنظومة الواحدة ، لا يزالان يحومان في نطاق واحد ، ويتجاذبان حول محور واحد ، ولكنهما يحذران التقارب .. لأنه اصطدام !

***

ذلك ما اعترف به العقاد في حب «مي » التي كان يســميها «هند » في شـعره وكتابته ، وهو حب روحي نزيه تسـوده البراءة والطهر ، فلما عاد من لبنان اتصـــلت به تليفونيًا لتهنئه بالعودة ، وتدعوه للقاء كعادتها قبل الســفر . وصادف أن «سارة » كانت موجودة عند العقاد ، ولم يكن هو بجوار التليفون فردت عليها «سارة » ردًا أيقظ في نفسـها الشك والقلق ، وشعرت بأن هناك فتاة أخرى تشـــاركها حبها ، وتنازعها هواها .. ولم تكن تعتقد الرهبانية في «العقاد» ولا تزعم بينها وبين وجدانها أنه معزول عن النساء ، ولكنها لم تكن تحفل باتصاله بالنساء ما دام اسمهن نساء ، لا يلوح بينهن شبح غرام بامرأة واحدة غيرها !

فلما شـــعرت بأن هناك امرأة أخرى يحبها غضـــبت وامتنعت مدة عن محادثته بالتليفون ، فأرسل إليها رسالة منظومة بعنوان « وسـاوس الهجر » جاء فيها :

قـلـت لـلـقـلـب ، وهـو جـد عـجـول

يشـــتـكـي بـعـدهـا ، ويـبـغـي الشـــفـاء

أن يــكــن عــنــدهــا هــواك فــدعــهــا

ســـوف تـرجـو كـمـا رجـوت الـلـقـاء

أو يــكــن عــنــدهــا قــلاك فــدعــهــا

تضـــمـر الـقـرب أو تـطـيـل الـجـفـاء

لســـت يـا قـلـب خـاســـرًا إن تـولـت

ولـــك الـــغـــنـــم إن أجـــدت ولاء

قـال لـي الـقـلـب ، وهـو يـعـرض عـنـي

مــن نــفــار ، ومــا يــطــيــق الــدعــاء

إن فـــي قـــلـــبـــهـــا « ذمـــاء غـــرام »

أيـــه يـــا نـــاصـــحـــي لـــك الله دعـــنـــي

أتـــرجـــى ، وأن أضـــعـــت الـــرجـــاء

ســـوف أشـــقـى بـرجـعـة الـحـب حـتـى

أبصـــــر الـــحـــب مـــيـــتًـــا لا مـــراء

فلما وصـلتها هذه الأبيات لم ترد عليه بأية رسـالة ، أو كلمة في التليفون . بل ذهبت إليه بعد مدة على حين غرة ، ودخلت عليه مكتبه بجريدة البلاغ .. وإني أدع «العقاد » نفسه يروي بصيغة المتكلم هذا الحادث – حادث القطيعة- بينه وبين الأديبة النابغة ، قال :

«زارتني على حين غرة في مكتب عملي ، وهي الزيارة الأولى والأخيرة من قبيلها، ولم يكن لها مسـوغ من طول الغيبة ، ولا امتناع الحديث في التليفون ، فما شـككت لحظة في غرض الزيارة ، ولا في باعثها ، وتوقعت منها عتبًا عنيفًا على أسلوبها في التعبير الصامت المبين ، ولكنني علمت سلفًا أنها غير منصـفة في عتبها ، لأنني لم أختلس منها شـيئًا هو من حقها على . فرحبت بها ، وأبديت لها اسـتغرابي لزيارتها ، وابتهاجي بسـؤالها عني وأنصت مترقبًا ..فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج:

لست زائرة ، ولا سائلة !

فقلت : إذن ...

ولم أتمها ، لأنها نظرت إلى ، كمن يسـتحلفني ألا أتكلم . وانحدرت من عينيها دمعتان !

«فما تمالكت نفسـي أن تناولت يدها ، ورفعتها إلى فمي أقبلها ، وأعيد تقبيلها . فمانعتني ، ولم تكفف عن النظر إلى ، ثم اسـتجمعت عزمها ، ونهضت منصرفة وهي تتمتم هامسة : دع يدي ودعني ! ثم انصرفت بعد أن سكن جأشها وزال من صفحة وجهها أثر الدموع » ! !

وقد قال العقاد : لو جاءت هذه الزيارة ، وأنا في بداية العلاقة بسـارة لما كان بعيدًا أن تقضـي على تلك العلاقة وأن ترد سـارة اسـمًا مغمورًا في عامة النساء !

مات حب «مي» إذن ، وقضـت سـارة على هذا الحب الذي عاش فترة قصـيرة من الزمان ولو أنه عاش طويلا لأهدى إلى الأدب العربي ثروة كبيرة من «أدب الحب». ولقد شـيع «العقاد » هذا الحب الراحل بقصـيدة طويلة بعنوان : «موت الحب» جاء فيها :

ولـد الـحـب لـنـا ، وا فـرحـتـاه

وقضـى فـي مـهـده وا أسـفـاه

مـات لـم يـدرج ، ولـم يـلـعـب ولـم

يشـهـد الـدنـيـا ، ولـم يـعـرف أبـاه

فـلـيـكـن بـردًا عـلـى الـقـلـب جـواه

أشـكـر الـمـوت وأشـكـوه مـعـا

غـال حـبـي قـبـل مـا تـنـمـو قـواه
غـالـه وهـو صـغـيـر قـبـلـمـا
تـكـبـر الـبـلـوى بـه يـوم نـواه
فـتـولـى رحـمـة الله عـلـى
أمـل لاح ولـم يـبـلـغ مـداه
آه لـو تـغـنـى مـن الـلـوعـة آه
لـيـتـنـي أسـمـع فـي الـقـبـر صـداه

هكذا انتهت علاقة الحب العفيف بين العقاد ومي قبل أن تكتمل بعد أن اكتشفت أن في حياته امرأة أخرى هي سارة « أليسا»، وقد ظل العقاد بقية حياته نادمًا على انتهاء هذا الحب لأنه كان يتمنى أن يكون حبه لمي هو الحب الكبير في حياته !

مأساة مي !

عاشت الآنسة «مي» نجمة المجتمعات الأدبية في القاهرة بصالونها الفكري الذي ضم أقطاب الأدب والفكر في مجتمع القاهرة الفكري في مطلع القرن العشرين الذي كان يضم نخبة من أعلام الأدب والفكر والبيان في مصر والعالم العربي وظلت كالنسمة الجميلة التي رطبت هجير الحياة الأدبية والفكرية ، وأصبحت مصدر إلهام لكبار الأدباء والمفكرين العرب مثل العقاد ومصطفى صادق الرافعي وجبران خليل جبران وإسماعيل صبري والشاعر ولي الدين يكن وأحمد لطفي السيد ثم شاءت الحياة القاسية المؤلمة المحزنة أن تمد يد الآلام إلى سعادة هذين الأبوين وان تنقص من هناءة هذه الأسرة الكريمة ، فمرض الوالد «الأستاذ إلياس زيادة» مرضًا عضالا ، واشتد عليه المرض ، وزاد من شدته ما كان يصادفه من بعض الشركاء الذين يقاسمونه قطعة أرض في لبنان .

وانقطع الوالد أشهرًا في منزله يعاني آلام هذا المرض الوبيل . وقد كان يخفف من آلامه ، ويعزيه في مصابه ما يراه من حنان زوجته ورعاية ابنته ، وعظيم برها ، وفائق فضلها على النهضة الأدبية التي رفعت شأنها وأتاحت لها فخرًا لامعًا بين الآداب الأخرى . ولقد كان هذا الفخر جديرًا بأن يمد بغبطته وسروره في حياة الأب ، لولا أن للعمر نهاية وللأجل غاية فطوى القضاء آخر صفحة من صفحاته في سنة ١٩٢٩ .

كان لوفاة هذا الوالد تأثير عظيم في نفس الآنسة «مي» فذاقت لأول مرة مرارة الحزن العميق ، وجرعت أول كأس لمأساتها الأخيرة منذ هذا المصاب الأليم ، وابتدأت قصتها المؤثر بهذا الحادث الجسيم .

وأطمعت هذه الوفاة «البعض» فيها ، فعانت شقاء هذا الطمع ، وصاروا يلاحقونها في كل حين حتى ضاقت بهم . وضاقت بالدنيا وسئمت الحياة وهي في ضيقها الشديد ، وسأمها الطويل تصبر ولا تشكو ، وتخفي ولا تعلن .

ومرضت والدتها واشتد عليها المرض ، فتفاقم الخطب ، وتضاعفت الآلام ثم شاء القدر إلا أن ينزل بالكارثة الثانية فتوفيت الأم الحنون ، فتجدد حولها طمع الطامعين فكانت تصرفهم بما عرف عنها من بر وكرم ولطف .

وكان صيف سنة ١٩٣٥ ، فجاء إليها بعضهم يطالبها بثلثمائة جنية ، لأن أرضها مرهونة فطلبت أن تطلع على وثيقة الرهن فأطلعوها وضيقوا عليها هذا الطلب . حتى ضاقت بحالها واشتدت آلامها . وهي في شكواها وضيقها لا تصرح لأحد بما يثير في نفسها هذه الآلام ، فأصيبت بمرض «الشعور بالاضطهاد» وجسم بعضهم هذا المرض فكتب إلى أقاربها في لبنان ينبئهم بأن الآنسة «مي» أصيبت بالجنون ! ويوصي بإرسالها إلى مستشفى العصفورية فجاء أحد أقاربها ، فوجدها حزينة كئيبة ، ضيقة بالدنيا ، فطلب منها هذا القريب أن تسافر معه إلى لبنان لتغير الهواء فأبت فألح عليها كثيرًا فقبلت وسافرت معه إلى بيروت ونزلت في داره ، وبعد أيام طلبت العودة إلى دارها بمصر ، فأبى هذا القريب ، وأصر على بقائها بلبنان ، فأصرت هي على العودة وهددت بالإضراب عن الطعام فلم يأبه لهذا التهديد . ولم يسمح لها بالسفر ، فأضربت عن الطعام وبقيت أيامًا لا تأكل فخاطب مستشفى العصفورية في نقلها إليه وهو مستشفى إنجليزي للأمراض العقلية ، فبعث المستشفى سيارة وممرضة وحملت إليه .

نزلت الآنسة «مي» مستشفى المجانين ، فما أقسى تلك الساعة التي سيقت فيها أديبة الشرق إلى هذا المكان ، وما أشد ألمها في النفس وأفظع جرحها في القلوب !

أهكذا الدنيا ؟ وهل هذا هو بلاؤها ؟ وهذه عجيبتها الرائعة ؟

الآنسة «مي» نابغة نساء الجيل ، وفخر الأدب الحديث التي أهدت إلى العقول ثروة عقلية كبرى ، وإلى النفوس جيلاً كاملاً من جمال النفس وسمو الشعور ، تنزل بين المجانين ، وتسلب من خير ما فاقت به الملايين ؟

ما أقبح الحياة ، وما أسوأ الدنيا ، وما أظلم الأقدار !!

والتفتت الآنسة «مي» حولها في مستشفى العصفورية ، وتأملت حالها في هذا السجن العجيب ، وقالت : أو لم يجدوا لي سجنًا أشرف من هذا السجن .. ما أشد قسوة الإنسان على أخيه الإنسان !

وكأنما «مي» التي ملأت مصر وسائر بلاد الشرق أدبًا وفضلاً ، وشهرة وفخرًا ، وتزاحمت النفوس على الإعجاب بها وتغايرت الأسماع والقلوب على الإنصات إليها إذا خطبت أو تحدثت – كأنما «مي» هذه لا يعرفها إنسان ولم تمر ببال زميل من الأدباء أو أخ من الإخوان وابتسمت «مي» ويئست من الحياة ومن عدالة الإنسان . فأضربت عن الطعام ، وصممت على الإضراب حتى تموت ، وعبثًا حاول الأطباء أن يصرفوها عن الإضراب ، فأصروا أن يغذوها بالأنابيب من الفم والأنف ومكثت على هذا الحال عشرة أشهر ، ذاقت فيه أشد الآلام وضعفت بنيتها ونقص وزنها .

وطلبت الآنســة أن تكشـف عليها لجنة من كبار الأطباء فاجتمعت وقررت أن لا شــيء بها ، وكتب الدكتور مارتن الطبيب الفرنســي تقريرًا مطولا ينفي إصابتها بأي مرض من الأمراض . لكن إدارة المستشفى رأت أن تستمر في المستشفى مدة أخرى حتى تقوى بنيتها !

عجبت الآنســة من حظها العجيب ،واتصـل خبرها ببعض عائلات لبنان ، وكان عيد الميلاد فجاء أحد اللبنانيين المقيمين بفلســطين ليعيد عند أقاربه ببيروت ، ويدعى «الخواجة غانم» وهو من كبار التجار وفي الطريق مرت به السيارة بالعصفورية ، فسأل السائق عما يسمعه عن الآنسة «مي» فأخبره أن إحدى قريباته وهي ممرضـة في المستشـفى أخبرته أن صـحتها جيدة ولا شيء بها . وهي في هذا المستشفى كالمسجون البرئ .

وصـل «الخواجة غانم» إلى بيروت فاعتزم أن يحدث أقارب الآنســة في إخراجها فقابلهم وذهبوا معه لزيارتها فوجدوها جيدة الذاكرة ســليمة العقل . فخرج من عندها وقد أقســم ألا يعود لفلســطين إلا بعد أن تخرج من هذه المستشفى .

بقى «الخواجة غانم» أربعين يومًا يسـعى حتى وفق في مسـعاه ، وخرجت الآنســة «مي» من المسـتشـفى ، ولكن لا إلى بيتها ، حيث تنعم بالحرية ، بل إلى مستشفى للجراحة ببيروت .

ســافر «الخواجة غانم » وقد ظن أن الآنســة «مي» ســوف تبرح هذا المســتشــفى بعد أيام ريثما يســتأجر لها بيت خاص ، كما وعدوه بذلك ، لكن لأمر ما لم ينفذ الوعد ، وبقيت في مستشفى الجراحة عشرة أشهر أخرى .

احتجت الآنسة «مي» وأضربت عن الطعام والكلام ، أضربت عن الطعام لأنها لا تريد أن تذوق طعام هذه الحياة المرة الملوثة بالآلام ، وأضــربت عن الكلام لأنها أسـفت لعقوق الإنسـان ، وذات يوم زارها بالمسـتشـفى الأسـتاذ فيلكس فارس، فكان أول شــخص رأته من أصــدقائها بعد عامين لم تر فيهما صــديقًا ، ولم تمســك قلمًا ولم تقرأ كتابًا .. ثم زارها الأســتاذ أمين الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠) ، وكان قد جاء من أمريكا.

فعجب لحالها وذاع وقتئذ بين جمهور الأدباء في لبنان أن «مي» مسـجونة فانبرت الأقلام تدافع عن قضـية «مي» وتتسـاءل لماذا تسـجن هذا السـجن العجيب. وذهبت طائفة من الأدباء وأبلغوا النيابة ، فانتقل النائب العمومي إلى المستشفى وقابلها وبعد ٤٨ ساعة من مقابلتها ، جاء إليها مدير البوليس ومعه ستة الضباط المسلحين ، واثنان من المساعدين ، وأخرجها من المستشفى في موكب انتظم فيه عدد كبير من سيارات الأصدقاء والمعجبين .

ووصــلت الآنســة «مي» إلى المنزل الذي أعد لها ، وقدم لها الغداء ، فتناولته بيدها لأول مرة .. وأمسـكت بالشـوكة والسـكين بعد عامين كاملين لم تتناول بيدها طعامًا ولم تمسك بها شوكة وسكينًا .

وعادت إليها حريتها ، واطمأنت في مسكنها برأس بيروت ، وسافرت إلى الفريكة فقضـت بها بضـعة أسـابيع ، وألقت في ذلك الحين خمس محاضـرات ورسمت بريشتها خمسين صورة .

ومرت هذه السنوات الثلاث الحافلة بآلامها وأشجانها ، المملوءة بتجاربها الشـــاقة .. وكأنما الأقدار قد أدخرت هذه الأحداث لهذه النفس الأدبية لتطلعها على جانب غريب من جوانب الحياة ، وتكشف لها عن عجائب الإنسان ما لا يعرفه عن نفسه الإنسان .

ثم جلست وقالت أنني أطرب من الشعر الذي يرسم للناس طريق السعادة ويرشـــدهم إلى مكارم الأخلاق ، ولعل الأدب ســمى أدبًا ، لأنه يهذب الروح ويؤدب النفس ويوجههم على اعتناق الآداب الفاضـــلة ، ولهذا دعى الأديب أديبًا ، وأنا أعتقد أن الأديب الذي عمل بأدبه كالعالم الذي يعمل بعلمه والأديب الذي لا يعمل بأدبه كالعالم الذي لا يعمل بعلمه فهو موهوب ولكنه مسلوب .

***

وكانت –رحمها الله – تتهم الجنس الخشن بإثارة المنازعات وقيام الحروب ، وقالت لي مرة في أحد مجالسها ، أنني أنظر بعين الأسى إلى الأزمة العالمية الحاضـــرة ، وعندي فكرة لإصـــلاح العالم لو تحققت لزالت الحروب ، ثم ابتسمت وقالت :

«هذه الفكرة هي أن تقوم في كل دولة حكومة من الجنس اللطيف تتألف من أرقى الســيدات : علمًا ، وأدبًا ، وخبرة بالشـــئون الســياســية والاقتصـــادية والاجتماعية .. فإنكم معشــر الرجال جربتم كل أنظمة الحكم ، فلم تفلحوا ، بل آثرتم المنازعات ، وأشــقيتم الشــعوب بالحروب ، على الرغم من أنكم أبدعتم في كل علم وفن ، وبرعتم في عقد المعاهدات ، وتدوين الشـــروط التي تقيد حرية الأمم ، ونبغتم في إقامة الحصــون ، وحشــد الجيوش ، واختراع أسلحة القتال ، ولكنكم فشــلتم في الوصــول إلى أحســن طريق للتفاهم ، نعم فشــلتم يا معشــر الرجال ، وجربتم النظام بعد الآخر فلم تجلبوا للأمم غير الشقاء ، فهل تسمحون أن تجربوا الحكومات النسائية فإنني أراها أقرب إلى تحقيق السلام ، وأحرص على حقن الدماء » .

وقبل مرضــها الأخير بقليل كنت أزورها ذات ليلة فلمحت في وجهها شــيئًا من التفكير الحزين وفي حديثها رنين الاكتئاب والجزع ، ثم ســـألتني : «هل تعرف تفســـير الأحلام ؟ » قلت : ولماذا ؟ هل رأيت حلمًا ؟ قالت : « إني رأيت حلمًا مؤلمًا .. وقد نهضـــت من نومي حزينة خائفة ، فقلت : وما هو هذا الحلم ؟ قالت : «رأيت ليلة أمس ســيدة مقبلة على ملتحفة بالســواد ، فلم أتبين من هي حتى إذا اقتربت منى صـــرخت قائلة : «أمي .. ! » فبكت .. ثم أقبلت نحوي تضمني إلى صدرها وتبكي ، فبكيت لبكائها ، وقالت : «مالك يا أمي ؟ » فأجابت : « آه يا عزيزتي مي ! » فقلت : «هل ســـأموت يا أمي ؟ » فلم تجبني ، واســـتيقظت من نومي فازعة من هذه الرؤيا فهي أول مرة أرى فيها والدتي بعد موتها ، وقد شـــغلت بها حتى الآن بل تشـــاءمت واعتقدت إما أني سأموت قريبًا أو أن يصيبني مرض شديد .

قصت «مي» هذه الرؤيا ، وتقاطرت الدموع من عينيها ، ثم استجابت لما عرف عنها من شـــجاعة وتجمل ، وقالت : «وهل عهدتني من الجبناء ؟ » .. إني لا أخاف الموت ولا أخشـــاه ، إن وراء الموت وجودًا غير ملموس يدعى السعادة وإني لأشعر باحتياج محرق إلى التعرف إليها والتمتع بها .

ويستطرد طاهر الطناحي في ذكرياته يقول :

وكنت قد عرفتها سنة ١٩٢٩ ، وأنا وقتئذ كاتب ناشئ ، فأخذت أتردد على بيتها، وأفسحت لي في مجلسها منذ ذلك الحين إلى وفاتها ، وكنت جالسًا يومًا معها فقلت لها : أود أن أعرف ما هي أمنيتك الكبرى في الحياة ؟

فقالت : و هل يمكن أن تحوى الحياة أمنية واحدة ..إن الأماني تتغير مع الوقت، وكل أمنية هي العظيمة ، بل هي الواحدة العظمى عندما تقطن جوارحنا وتستولي على كياننا .. وهل تصدق أن الإنسان يبوح للناس بأعظم أمانيه ؟

قد يبوح ببعضها في هذه أو تلك .. ولكن الأمنية الكبرى تظل سرًا مكتومًا بينه وبين نفسه .. ولو فقد كل شيء آخر، لبقيت تلك الأمنية رأس ماله الخاص الملاصق لأخفى ما يخفي في قدس أسراره .. وإذا أبيت إلا أن أبوح بأمنية ما فهي أن تظل الأماني متجددة في نفسي مازلت حية ، وأن أموت يوم أصبح غير قادرة على التمني !

***

وذات مساء من أمسية الآحاد جلست إليها ، فجاء حديث شقاء الحياة وسعادتها فقلت لها : وما هي السعادة في رأي الآنسة ؟

فقالت : بعد فترة قصيرة داعبت فيها ريشتها التي كانت تكتب بها دائمًا وتؤثرها على القلم ، هي كما قال ابن الفارض :

صفاء و ماء ، ولطف ولا هوا

ونور ولا نار ، وروح ولا جسم

ويطرب من لم يدرها عند ذكرها

كمشتاق نعم كلما ذكرت نعم

على نفسه ، فليبك من ضاع عمره

ثم نظرت إلى السماء واغرورقت عيناها بالدموع .. وأردت أن أنتقل بها إلى نوع آخر من الحديث ، حتى لا تشعر بما كانت تشعر به ، من سوء الحظ وشقاء النفس، ولوعة القلب ، فأشرت بأصبعي إلى لوحة معلقة في مكتبها مكتوبة عليها أبيات بالحبر الذهبي بخط الفنان نجيب هواويني ، فقالت : «هذه الأبيات للإمام الشافعي ، وهي شعاري في الحياة.

ولذلك احتفظت بها على هذه الصــــورة ، وقامت وقمت معها ، ثم قرأتها بصوت رقيق مؤثر وهي :

إذا شــــئت أن تـحـيـا ســـــلـيـمًـا مـن الأذي
وحــظــك مــوفــور وعــرضــــك صــــيــن
لســــانــك لا تــذكــر بـــه عـــورة امــرئ
فــكــلــك عـــورات ولــلـــنـــاس أعـــيــن
وعـــيـــنــك إن أبـــدت إلـــيــك مــعـــايـبًــا
فصــــنــهــا وقــل يــا عــيــن لــلــنــاس أعـيـن
وعــاشــــر بـمـعـروف وســــامـح مـن اعـتــدى
وفـــارق ، ولــكــن بـــالـــتــي هـــي أحســـــن

فقلت لها : « مثلك من أعطى روحًا عاليًا ، وأدبًا خالدًا لن يموت . لكني أشفق من أن تسيطر عليك الأوهام . قالت : إنني لا أخدع بالأوهام ، غير أني لا آمن صروف الأيام ، فهل تسمح أن تبحث لي عن تأويل رؤياي ؟» .

فأخذت أطمئنها ، ولكنها ألحت أن أستشير خبيرًا بتفسير الأحلام فوعدتها وذهبت أفكر فيها عسى أن أعود به إليها الأسبوع التالي ، وكنت أزورها كل أسبوع مرة ، ثم اخترعت لها تأويلاً طريفًا فلم يخف على ذكائها أنني أصانعها لأدخل على نفسها التفاؤل والاطمئنان .

انقطعت عنها لسفر نحو ثلاثة أسابيع ، ثم عدت فعلمت أن «مي» مريضة في مستشفى المعادي ، وأنها قبل ذلك أغلقت الباب عليها عدة أيام حتى ظن السكان أنها أصيبت بمكروه فكسروا الباب ، فوجدوها في سريرها شاردة الفكر ، غائبة الوعي ، صامتة فجئ لها بطبيب ، وأجريت لها الإسعافات ، ثم نقلت إلى المستشفى ، استفاقت «مي» وطمأنها الطبيب مؤكدًا أن القلب سليم ، ولكن كانت تنتابها فترات غيبوبة ، ثم تفيق منها .

وفي منتصف ليل السبت في الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٩٤١ ، بدأت «مي» تشعر بضيق الأنفاس ، وأخذت نبضات قلبها تسرع في الخفقان فجعلت تصعد تنهدات أشبه بتنهدات الطفل وهو في حلم جميل .

سألتها الراهبة الممرضة عما تشعر ، فلم تقو «مي» على الكلام فرفعت يدها إلى صدرها ، وأشارت ناحية القلب أن «هذا » أن «هنا» .. انقطع الأمل ولم يعد للطبيب البشري من حيلة ، وجاء دور الطبيب الروحاني .. نادت الراهبة الكاهن فدخل على «مي» فوجد نفسًا مستسلمة إلى القضاء وحكم رب الحياة والموت . وفي الساعة العاشرة وخمس دقائق من صباح نهار الأحد ، التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٩٤١ خفق قلب «مي» الخفقة الأخيرة لشمس الحياة .

تأمل الأديب طاهر الطناحي وجه مي وهي في غفوتها الأخيرة ورآها أشبه ما تكون في حلم جميل ، بسمة الأطفال على شفتيها وإغماضة رقيقة في جفنيها وعلى رأسها إكليل من الورود والأزهار كأنها كانت في غفوة التأمل والتفكير ، وكأن نظرة حزن عميقة تطل من عينيها تشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، بعد أن لاقت في الحياة الكثير من المآسي وهي الرقيقة ذات القلب الذي يفيض حبًا وتسامى ورحمة.

إنها مأساة مي الأديبة العبقرية الملهمة الرقيقة التي كانت حياتها أشبه بنسمة رقيقة في سماء الأدب العربي : قدمت ذوب قلبها للآخرين ولم تجد من أقرب الناس إليها إلا الجحود والغدر وطعنات الجشع والطمع !

وكأنها تهمس وهي تودع الدنيا :

ليل مطير حالك	وكأنه ليل الوداع
أمسى الفؤاد ممزقًا	بين ارتياب وارتياع

وكأن صوتها يجيء من وراء الغيب تناجي حبيبها المجهول الغائب ، وهي تقول له :

تعالى يا صديقي ...	تعالى فالحياة قصيرة

وسهرة على النيل توازي عمرًا حافلاً بالمجد والثروة والحب .

رحلت مي ... وبقى أدبها حيًا خالدًا .. رحلت مي وظلت سيرتها وحياتها ونبوغها أسطورة من أساطير الأدب العربي لامرأة نابغة شجاعة قدمت حياتها ثمنًا للفكر الحر المستنير الباقي .

سيدتي ..

كان أمس يوم الثلاثاء ولم أزرك في مجلسك الزاهر ولكني زرتك حيث أجدك في كل حين. وخرجت عشية إلى صحراء «ألماظة» القريبة منا أتمشى في أنحائها وأتنسم هواءها وأرقب نجومها (ومنها الزهرة وعطارد) وأفكر معك فيما أحسبك تفكرين فيه، وأناجيك بأبيات من هذه القصيدة التي يرتسم عليها أثر من بداوة الصحراء التي ولدت فيها(*):

حياك الله يا «ميّ» ما غنّى وما عقبا	وفاض حولك بشْرًا كلُ ما شرقا
وعاذ صفوك هالات محصنة	من رحمة الله تنفي شرَّ ما خلقا
وعبرةُ تتراءى في تجملها	كالنور مؤتلقا لا النور محترقا
خذي العزاء من الخير الذي سلفت	به يمينك، والفضل الذي غدقا

***

(*) رسائل أنيس منصور – إبراهيم عبد العزيز ، دار نفرو – القاهرة ٢٠٠٨.

ثوبي إلى فطنــة يــا «مي» نــافـذة في كل ســر، ووجدان يفيض تقى

وخبرة غضـــة ما زلت أعجب من صوابها كيف في هذا الصبا اتسقا

وفي الصـدور التي تهفو القلوب بها قلب يناجيك ما اســتحيى له رمقا

يحيا على النور من عينيك مقتبســا من ومضـةٍ فرحا أو غمضـةٍ شفقا

أتعلمين بــه؟ بـل أنـت عـالمـة بـالود في هذه الدنيا إذا صـــدقا

طوبى لـه – ألف طوبى! إن وثقت فـإن بـك دون النـاس قـد وثقـا

عباس

الفصل الرابع : غرام العقاد وأليسا

يــا رجــائي وســـلوتي وعزائي

وألـيـفـي إذا احـتـوانـي الألـيـف

نـبـئـيـنـي فلســــت أعلـم مــاذا

منــك قلبي بحســـنــه مشـــغوف

«العقاد»

سارة (أليسا داغر):

أما ســارة حبه الآخر فكان اســمها الحقيقي «أليســا أســعد داغر» (١٨٩٩-١٩٦٩)، وكان أبوها صـــحفيًا وفد إلى القاهرة عام ١٩٢٠ من دمشـــق بعد أن سـقطت سـورية في أيدي الفرنسـيين وكان العقاد في تلك الفترة محررًا بصـحيفة «البلاغ» وكان وفديًا بالغ العنف في وفديته ، وفي معاركه ضد القصر والإنجليز .

يصف العقاد كيف تعرف على أليسا داغر فيقول أنه تعرف عليها في بنسيون تديره خياطة إيطالية بمصر الجديدة أثناء زيارته لصديقه الدكتور محمد صبري الســـربوني (١٨٩٤-١٩٧٨) الذي كان يقطن به ، وذلك أثناء زيارتها لمريانا الخياطة ، وبدأت القصــة التي زلزلت حياة العقاد ويصـفها العقاد بقوله : « لونها كلون الشـهد المصـفى ، يأخذ من محاسـن الألوان البيضـاء والسـمراء والحمراء والصفراء في مسحة واحدة وعيناها نجلاوان ، وطفاوان ، تخفيان النزعات.

وفمها ، فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد في تناسق وانتظام .. ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة في لحمة نظر .

وبين وجهها وجسـمها جيد كأنه الحلية الفنية سـبكت لتنسـجم بينهما وفاقا من كليهما ، فليس هو جيدا كأي جيد ، ولكنه الجيد الذي يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام » .

كانت أجمل من رأيتها في أيام فتنتي وشـــغفي بالجمال ، كانت حزمة من الأعصـاب تسـمى امرأة .. اسـتغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة .. ليسـت غواية الجسـم عندها كجوع الحيوان يشـبعه العلف ، ولكنها كرعدة الحمى . وصـرعة الفرس الجموح ، يتبعها النشـاط والمرح كما يتبعها الإعياء والبكاء .. لها فراسـة نفاذة في كل ما بين الجنســين من صـــلة تقطن لما في نفس المرأة لأنها امرأة ، وتقطن لما في نفس الرجل لأنها امرأة .

ويستطرد العقاد في اعترافه بحكاية «سارة» فيقول :

«هكذا بدأت قصتنا عنيفة فائرة .. كانت أنثى جميلة .. وكنت أنا شابًا عنيف الطبع ،قوي الإحساس بنفسي .. كانت تزورني كل جمعة .. في الخامسة مساء ، وقبل حلول موعدها بربع ساعة ، كنت أطل عليها من ثقوب النافذة أترقب قدومها في الطريق فإذا احتوانا البيت ، فالعالم كله معي داخل البيت ، كنا نقضي يوم الجمعة في خلوة كاملة ، وكنا نقوم نحن الاثنين بالخدمة ، كان يوم الجمعة هو يوم الحب في حياتي .

ويمضي العاشقان ينهلان من نبع الحب الصافي حتى بدأت نهاية القصة بالشك، شك العقاد في حبها له ، فاستحال الوجد إلى فتور ، والشوق إلى ضجر ، وقام الشك في نفسه على علامات وقرائن لم يقطع بها ، حتى عهد إلى صديق له هو «محمد طاهر الجبلاوي» بمراقبتها وجاءه منه الخبر اليقين فلم يملك إلا أن يقتل هذا الحب ويسير في جنازته !

وسجل العقاد هواجس حبه وشكه في روايته «سارة» وألهمه هذا الشعور عدة قصائد بعد أن هدأت نيران الفراق :

تلك التي كنت أعليها وأذكرها

صبحًا ومسيا وفي سر وإعلان

قد كنت أرحم نفسي من تذكرها

اليوم أرحمها من فرط نسياني

وفي غمرة الأزمة النفسية اللاعجة التي انتابت العقاد بعد أن ودع أليسا الوداع الأخير سافر العقاد إلى الإسكندرية عام ١٩٢٦ يلتمس راحة أعصابه ن ويغرق في أمواج البحر نيران قلبه الذبيح ومن هناك أرسل رسالة إلى صديقه الشاعر «عبد الرحمن صدقي » في ١٢ أبريل ١٩٢٦ كشف الستار عنها الأديب والمحقق الكبير محمد محمود حمدان شقيق د. جمال حمدان .

تقول سطور الرسالة :

عزيزي عبد الرحمن :

«اكتب إليك هذا من على شاطئ البحر في رمل الإسكندرية ، والجو صحو ، والسماء صافية ، والضياء يغمر الآفاق والهواء بليل لا هو بالرطب الكثيف ولا هو بالدافئ المرهق .

وفي نفسي علامة حسنة تبشر بالخير ، فإنني لا أشعر الآن في وحدتي بذلك المكان الخالي الذي أفتأ أحمله معي حيثما ذهبت ، وأريد أن أملأ بمن كانوا يملأونه في كل حين .

«أصبحت يوم الأحد على مناوشات صبيانية من قبيل ما تعلم :

وقفة خلف الباب تتسمع .. ثم خطرة عند النافذة تتراءى لي بالقميص الذي تعرف أنني أحب أن أراها فيه ، ثم ذهاب وجيئة وحركة وابتداء في غير طائل ، ثم استدعاء للخادم مرة بعد أخرى في غير موجب . . فتجاهلت هذا وأعرضت عنه مخلصًا في الإعراض وخرجت مترفعًا ألتمس هدوء الراحة في الأمل الذي قدرته في الإسكندرية ولكني ما كدت أستقر في القطار حتى فاجأتني خيبة أمل لاذعة ، وآذنت الرحلة بالفشل من أول خطوة فهممت والله بالرجوع لولا أنني لن أعود إلى القاهرة إلى خير مما أقصده في الإسكندرية !

«جلست في مثل مجلسنا بالقطار يوم القناطر الخيرية والحجرة مغلقة علينا .. فما لمحت هذه الذكرى واستعرضت يومها في مثل خطف البرق لحظة لحظة حتى شعرت بتلك الحديدة المحماة التي تتعقبني في العهد الأخير تكوي في صميم النفس كيها المختنق المكظوم ، لا منفس له ولا مهرب منه «وأردت أن أضحك من نفسي وأن أرفه الآلام بالسخرية فقلت : بل أضحك من شياطين جهنم فذلك أبر بالنفس وأعدل في شرعة الانتقام !

«أتحدى شياطين جهنم جميعًا أن تزيد أنفس المعذبين عندها ذرة من العذاب فوق ما أشعر به في تلك الساعة وأقعد حيث أنا ساخرًا منها متهافتًا عليها لأنها لا تستطيع ، وكأنني استرحت على هذا الخاطر ، أو كأنما سرت إلى عدوي القطار ، الذي لا يلوي على لا شيء فمررت بهذه الذكرى إلى غيرها ، وجعلت أنظر إلى ما حولي غير واقف عند منظر ولا متريث عند فكرة ، وما بلغت طنطا حتى كنت قد ظفرت باكتشاف جديد » .

«سبحان الله .. هذه دنيا واسعة خارج الدنيا التي طويت فيها الكون أجمع .. دنيا تطلع عليها الشمس ولا تبالي نظرات من تنظر ، ومن لا تنظر من النساء فكيف نسيت هذه الدنيا ولم أستبق لها لفتة عين مني ولا فضلة إحساس ؟

« وما كدت أسترسل مع هذه السلوى حتى تحرك شيطان الوساوس يتهيأ بهواجس التنغيص والتكدير ، ورقى إلى بسؤال يمتحن به صلابة تلك السلوى : أو كنت تبالي أن تبعد عنك هذه الدنيا كما تبالي الآن أن تبعد عنك أهون لمسة من يد امرأة واحدة بين نساء العالمين ؟ فلم المغالطة في الصبر والكذب على العزاء ؟

«والحق أنني رأيت بعد ذلك أنني لم أغالط نفسي ، ولم أكتب على العزاء إذ لو أنني فقدت ضوء الشمس كما فقدت تلك اللمسة من يد تلك المرأة لتلهفت على شجرة واحدة أراها معنى العزاء تحت قبة السماء كلهفتي الآن على أحب ما أشتاق من ذلك النعيم المفقود ، فليست العزة وقفا على ذلك النعيم ولكنها حظ مباح لكل ممنوع ومزءود .. والزهرة التي يريدها السجين على شجرتها ولا تطول إليها يده .. هي أعز عليه عن كل ما في الأرض من النساء وغير النساء وهنا عدت إلى فكرتي في الحرية وعلمت مرة أخرى أننا إنما نأسى على أي شيء من الأشياء وأي حظ من الجمال ...

«وهذا الجمال الذي أراه ممتدًا أمامي في سعة مطمئنة وعمق رصين .. هذا البحر القوي الكبير أطالبه بأمر هين وأحسبه يخجل من عجزه عن تلبية هذا الطلب الصغير .. أقول: يا شيخ أنت تغرق عشرين قطرًا كاملاً بما فيها من الرجال والنساء والعاشقين والأعداء ثم تطويهم في ضميرك لا يبين منهم إلا فقاقيع ولا تثبت على مس الهواء أفيعجزك أن تغرق في جوفك هذا اللاعج اللئيم الذي جئتك به من القاهرة ألقيه إليك؟ وأخاله سيستحي على طوله وعرضه فلا أعود إلى القاهرة إلا وقد شيعت ذلك الغريق وأمنت من ملاحقة أطيافه التي لا تطاق .

هذه حالتي الآن بين ما أزود به النفس من دواعي العزاء وبين ما تثيره في الهواجس من الألم المجوج ، والخواطر السود ، وسنرى إن لم أكن قد رأيت إلى الآن ما فيه بلاغ».

هذه هي رسالة العقاد لصديقه الشاعر عبد الرحمن صدقي أرسلها إليه بعد فراق أليسا وتؤكد مدى قوة إرادة العقاد واعتزازه بكرامته وصلابته حتى وإن ناداه قلبه للرجوع إلى المرأة التي أحبها ، وبعد أن هدأت عواصف العقاد سجل تجربة الحب والشك مع أليسا في قصته التحليلية اليتيمة سارة سنة ١٩٣٨ أي بعد حوالي ١٢ عامًا من فراق أليسا .

وفيما بعد وصف العقاد حبه لمي وسارة «أليسا» والفرق بينهما فقال :

«أحببت في حياتي مرتين : أحببت سارة ، وهذا ليس اسمها الحقيقي ، وإنما هو اسمها المستعار ، وأحببت مي..

كانت الأولى مثالاً للأنوثة الدافقة الناعمة الرقيقة ، لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوثتها ، ولكنها كانت – إلى ذلك مثقفة .

«وكانت الثانية – وهي مي – مثقفة قوية الحجة ، تناقش وتهتم بتحرير المرأة ، وإعطائها حقوقها السياسية ، وكانت جليسة علم وفن وأدب وزميلة في حياة الفكر، أي أن اهتمامها كان موزعًا بين الأدب والأنوثة .

«كلتهما جميلة ولكن الجمال في «مي» كالحصن الذي يحيط به الخندق ، أما الجمال في «سارة» فكالبستان الذي يحيط به جدول من الماء النمير ، هو جزء من البستان ، لا حاجز دون البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للبعد والنفور » .!

ثم يسجل دموعه في قصيدة شجية يقول فيها :

غفر الذنب من بكائي عليك
أنني لا أعود ما عشت أبكي
لا يساوي حوائكن دمعة شك
خير ما في النساء ساعة ضحك!

ويصور لنا العقاد بداية قصته مع سارة فيقول :

«هكذا بدأت قصتنا عنيفة ثائرة .. كانت أنثى جميلة .. كنت انا شابًا عنيف الطبع قوي الإحساس بنفسي ، كانت تزورني كل جمعة في الخامسة مساء ، وقبل حلول موعدها بربع ساعة كنت أطل عليها من ثقب النافذة أترقب قدومها في الطريق فإذا احتوانا البيت ، فالعالم كله معي داخل البيت ، كنا نقضي يوم الجمعة في خلوة كاملة ، وكذا نقوم نحن الاثنين بالخدمة ، فكان يوم الجمعة هو يوم الحب في حياتي .

ويروي مؤرخه د . عبد الحي دياب قصة الغرام الجامح العنيف الذي قام بين العقاد وسارة ، والذي سجله العقاد في شعره ونثره (١):

«يستطيع الباحث أن يقول أن حب العقاد لسارة هو أول حب عنيف ملتهب صادر من كل منهما على السواء .

وقد كان يطلق عليها اسم «سعاد» على زنة اسمها لأن اسمها الحقيقي «أليسا» وكذلك اسم «ليلي » .

وقد تم التعارف بينهما خريف عام ١٩٢٤ عن طريق المصادفة ، إذ لم يقصد العقاد أن يلتقي بسارة، ولم تقصد سارة أن تلتقي بالعقاد ، وإنما جاء اللقاء كما تجيء معظم الحوادث الكبرى في معظم التواريخ والسير : من زواج وفراق ورحلة واختيار مساع واقتحام غيوب مصادفة لا يسبقها عمد ، وعرضا لا يمهد له بتفكير كما يقول العقاد .

ذلك أنه خرج يتمشى في الخلاء ضحوة من ضحوات الخريف التي تبتهج فيها الشمس في هدوء ، ويرقص فيها الهواء في حنين ، ويرق فيها الجو في تشوف وارتقاب ، وغدا العقاد وقد علق جميع همومه ، وأجل جميع نياته وأصبح جزءًا من الشمس والهواء والجو ، ولم يعد جزءًا من عالم الإنسان .

وفي عودته إلى منزله من هذه النزهة وجد نفسه على مقربة من بيت صديقه د. محمد صبري السربوني (١٨٩٤-١٩٧٨) بشارع الأهرام بحي مصر الجديدة أمام سينما نورماندي الذي يسليه ويطربه وسماه «زاهر» في قصته سارة ، وكان زاهر هذا يسكن في «بنسيون» تديره خائطة إيطالية يسميها العقاد في قصته كذلك «ماريانا» .

ودلف العقاد إلى المنزل ليزور صاحبه ويقضي معه فترة من الوقت يقفزان فيها بين معارض الحديث ، وبينما هو داخل في فناء الدار إذ به يجد «ماريانا» تطعم الديكة الرومية التي عندها صفحة من «المكرونة البائتة» وعندها فتاة مليحة يصعب تقدير سنها ، لأنها تصلح للعشرين كما تصلح للخامسة والعشرين ، وتسمى آنسة كما تسمى سيدة ، وهي مشغولة بكساء تقلبه وتمعن النظر فيه .

وحينئذ سأل العقاد عن زاهر أفندي ، وردت عليه «ماريانا» بقولها في عتب: أو لا نراك إلا زائرًا لزاهر أفندي ؟؟ أنه خرج منذ هنيهة على أن يعود بعد قليل .

(١) د. عبد الحي دياب / المرأة في حياة العقاد .

ومن هنا كانت أمام العقاد فرصـــة للتعرف على هذه الفتاة ومحاولة الاستئثار بها، فحاول بكل ما وسعته الحيلة أن يفتح مجالا للحديث لتدخل فيه الفتاة ليتم التعرف من خلال الحديث .

ولم يكن هناك مجال للحديث سوى الديكة الرومية ، فقال متظرفًا :

أرى أن الديكة اليوم إيطالية وليســت رومية ، فلم تجب «ماريانا » بغير ابتسامة عريضة ، بينما أجابت الفتاة قائلة : إن كان الجنس بالطعام فالديكة هنا عالمية لا تدين بجنس من الأجناس : مصــرية إن أكلت الفول المدمس ، وإنجليزية إن أكلت البطاطس ، وهندية إن صبرت على الصيام الطويل .

فاســتظرف العقاد جوابها ورحب بهذه المشــاركة التي أحس لتوها أنها وافقت هواه ، وأنه كان يسوق الحديث إليها إن أبطأ المساق .

وبعد ذلك خاطبها العقاد بكلمة الآنســة في هذا الموضــوع ذاته وأحس أن الكلمة لم توافق هواها ، وســمعها تجيب بشــيء من الامتعاض المكتوم كأنها تخاطب نفسها :

«ولماذا تدعوني يا آنسة ! أتستصغرني ؟أنني ربة بيت ، وأم فأحب العقاد أن يغيظها قليلا وعاد يقول : ولكن الســيدات يا آنســة يلبســن في أصــابعهن علامة تسمى خاتم الزواج ، فأين هذه العلامة ؟

قالت : لذلك شرح طويل ؟

قال : عسى أن أسمعه في وقت قريب .

ثم ســألته عن أي جانب من مزعجات الدنيا يعمل به فأجابها بما أجابته به سؤاله لها عن الزواج فقال لذلك شرح طويل .

فقالت له : يا لك من منتقم ، ولكن لتعلم أني لســت فضــولية بحمد الله ولا أفخر بهذه الصفة فخرك بها .

فقال لها : ليس مع كل الناس .

قالت : تحيات وغزل ..! وعما قريب : عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك إلى آخر هذا الموال المحفوظ .

قال : ولماذا عما قريب ! الآن .

وهنا ادعت عليه بأنه عجول وجرئ ، ولكنه قال لها :أن وعدتني أن أجني للصبر ثمرة ، فأنا أصبر من أيوب ، قوليها كلمة واحدة وأنا لا أتعجلك شيئًا ، وأنصرف الآن .

قالت : وصاحبك الذي تسأل عنه ؟

قال : ها .. يلوح لي أنني أعجبتك وأنك تسبقينني .

قالت : لولا أنك تمزح لقلت أنك مغرور غروركم كلكم معشــر الرجال لا تتكلم الواحدة كلمتين مع واحد منكم حتى يحسبها مجنونة بهواه .

قال : أو يحسب أنه مجنون بهواها !

قالت : طيب والله لقد قطعنا شوطًا بعيدًا جدًا في نصف ساعة ولا أدرى ما خطب «ماريانا » ســـامحها الله ؟ أين ذهبت وتركتنا ؟ ألعلك على اتفاق معها أن تهيئ هذا اللقاء ؟ ما في ذلك من عجب فهكذا تصنع الخائطات فيما يقال .

وعادت «ماريانا » فبادرها العقاد بقوله أنها تتهمك بأنك تدبرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاج .

قالت ماريانا : أنا أعلم على الأقل أن الدجاج لا تحتاج إلى من يدبر لها الخلوة مع الديكة .

فقالت سارة : قاتلك الله يا عجوز السوء ، لماذا تتنصلين من التهمة ؟

أما كان الأولى أن تتمهلي لمحة لعلي كنت أنوي أن أشـــكرك على ما صنعت ؟

فطاش الفرح بالعقاد ، وأوشـــك قلبه أن يفلت من نياطه ، وانتشـــى نشـــوة خمسين كأسًا في رشفة واحدة ، وقال وهو يهجم على «ماريانا» : بل دعي لي أنا أن أشكرها ، إنني أقبل وجنتيها .. أنني ألثم فاها .. وصـنع ما يقوله قبل أن تفيق «ماريانا» من دهشـــتها وقهقهتها ، ومال إلى الفتاة قبل أن تدري ما هو صـــانع مأخوذا بما حدث يتوقع ماذا تكون الكلمة الأولى التي تلفظها ســـارة أتشتم ؟ أتصطنع الغضب ؟ أتنطلق من المنزل ؟ . وكأنما كان التوقع هو شغله الشـــاغل في حينها دون ما يتبعه من ثورة أو مســامحة ، فاســتطال الأمد وما انقضـــت غير ثوان في توقع ما يكون ، وزاده فرحًا على فرح أن شـــيئًا مما توقعه لم يحدث ، وأن كل ما حدث أن الفتاة بهتت وراحت تقول شـــيئًا لابد أن يقال، فقالت في صوت خافت :

لقد آذاني شاربك الطويل .

وبعد ذلك خرجت ســـارة وقد حيت العقاد تحية من يؤدي «واجب اللياقة » لا تحية من يجامل في وداع ، فخشـــى العقاد من أن تكون قد غضـــبت وراح يسأل «ماريانا» لكنها لم تجبه بشيء يشفي غليله من هذا التخوف على غضب سارة ، ولم يشأ أن يطيل الكلام ، ولم ينتظر بالتالي صاحبه الذي لم يعد ، ولم يكن يبالي في تلك الســاعة أن يعود ، وخرج منقبضـــا متحاملاً يلوم نفســه على خروج الفتاة ولا يلوم نفســـه على تقبيلها . وكأنما كان يســتطيع الفصـــل بين الأمرين .

قالت له : وهي بجانبه في السـيارة ماذا فهمت في قبولي اللثم ، ثم خروجي مغضبة ثم كلامي في التليفون ، ثم حضوري إلى الموعد طائعة ؟

قال مستفهمًا: أللأمر علاقة « بماريانا» ؟

قالت : هو ذاك ، فلو أنني أطلت المكث لباخ الغضـــب بعد ذلك ، ولو أننا تواعدنا أمامها لوقعت في براثنها بلا رحمة ، فأما أن أطيعها في كل ما يعن لها ، وأما التهديد والإنذار .

وقصــــت عليه قصـــــة زواجها ، فقالت له أن أمها زوجتها من رجل في الخمسين يتمتع بثراء عريض ، وكانت أمي تعاملني بلا رحمة في سبيل إتمام هذا الزواج ، ولكن الثراء ليس هو كل شـــيء ، لأنني لو تزوجت رجلاً يملأ عيني ويحقق معنى الرجولـة معي وعـاطفتي لتمتعت ببعض الاســـتقرار ، وقنعت بعض القنوع ، ولكني أخطأت حظي من الزواج .

ورجعا من حديقة الحيوان إلى الجيزة مشيًا على الأقدام ، لم يتعبا ولم يسكتا طوال الطريق ، وجاء الترام فركبت في مقصـورة النسـاء ، وركب العقاد مع الرجال .

وكان الموعد الثاني في بيت العقاد بمصر الجديدة .

وكانت ســـارة – كما يقول العقاد – من ذوات الملامح والوجوه اللواتي لا يطالعنك بمنظر واحد في محضرين متتاليين : تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفتح عينيها البريئتين في دهشـة الطفولة وسذاجة الفطرة بغير كلفة ولا رياء ، وتراها في يومها – فأنت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها في مراس كيد النســاء ودهاء الرجال ، وتضحك فتعرض لك وجهًا لا يصلح لغير الشهوات وضحكة أخرى – وقد تكون على إثر الأولى – فذاك عقل يضـحك ولب يســخر ، كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكين .

وفي تصـــور العقاد أن تقبلها واطرادها يرجعان إلى الفتوة الحية التي لم تحبس الأفكار والعادات والتقاليد ، فهي أبدًا في أيدي العواطف والنوازع العجينة الخلق المهيأة للصوغ والتركيب في كل ساعة .

ومن عجب أن تستولي امرأة بهذه الصفات على العقاد ، وأن يفتن بها إلى درجة كبيرة مع اختلافهما في الصـــفات والمنازع والأهواء ، ولذلك رأيناه يعلل التقاءه بها وحبه إياها فيقول : أنه لا يوجد ســر أقوى من الحب في جمع نفسين شتيتين ، وأنه لا يوجد شيء كامل أبدًا سوى العالم الذي يوجد في قلب محبين صبين :

أتعلمين بســـر بين نفســـين ... أقوى من الحب في جمع الشتيتين ؟

أتعلمين بحســـن في مطـالعـه ... أجلى من الحسـن مجلو الروحين

أتحلمين بشـــيء كـامـل أبـدا ... أتم من عـالم في قلـب صــبين؟

ثم يوظف العقاد السماوات والأرض في حبه لسارة ، فيجعلهما في انتظار حبهما ، وذلك كي تظهر لهما سارة في خير ما أشرقت يومًا لعينين وحسب الحب أنفة بين قلبين ، ولكن كيف بالحب لو أضيف إلى ذلك أنه تم في روحين حرين أي بين سارة والعقاد !

أن السماوات والأرض التي ضمنت ... خليقـة الله في ثوب الجـديـدين

لفى انتظـار هوانـا كي تلوح لنـا ... في خير ما أشـرقت يومًا لعينين

حســـب الهوى ألفة القلبين وحدهما ... فكيف لو تم في روحين حرين؟

وقد اســتطاعت ســارة أن تملأ حياة العقاد ، وأن تقضــي على الضــياع والإحباط النفســي الذي كان يحس به في داخله ، فأبدلت حياة العقاد الحزينة بحياة كلها سـرور ولعب ولهو ، بحيث نسـتطيع أن نقول أنها أخصـبت حياته الفكرية والسـياسـية والأدبية ، وضــاعفت مشــاعره وكانت ســببًا في اتقاد أحاسيسه وإلهابها .

وقد عكف العقاد على هذا النعيم فلم يفرط فيه ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، حتى نسى كل خلصائه من الأدباء والسياسيين .

وللقارئ أن يعرف أي نوع من الحب هذا الذي يجعل الحبيبة تأتــــي إلى بيت العقاد وليس به أحد سواهما ، فتقوم بترتيبه وتنظيمه وتعد الطعام بنفسها ويقضيان أسعد أيام حياتهما حين يلتقيان .

وكان لا يعد في حسابه اليوم الذي يمر ولا يرى فيه سارة ويسميه مزيفًا .

لك وجه كأنه طابع الصـــدق على صـــفحة الزمان المألوف

أن يومًا يمر بي لا أره هو يوم أعده في الزيوف

ويبدو أن العقاد قد اســتغنى عمن يخدمه في ذلك الحين ، ليخلو البيت من كل آدمي واكتفيا هما بخدمة البيت بحيث كانت شـعائر مقدسـة بينهما ، بحيث ترى المكنســة في يد ســارة ، على حين ترى في يد العقاد سـكينة التخريط أو هي تمزج الحلو وهو يقلب الآنية على النار ، أو هي تملأ الأطباق وهو ينقلها إلى المائدة حتى إذا حان وقت الطعام مثلت إلى جانب المائدة في وقار وخشوع وقالت : انتهى دور الخدمة فتفضلوا أيها السادة .

وتظل في البيت حتى تتسـرب أنباء الأصـيل بالاسـتقراء لا بالمشـاهدة في معظم الأيام – كما يقول العقاد – فيقرآن أو يسمعان بعض الأغاني ، أو يلعبان «الدومينة» قليلاً ، وهي لعبة تحذقها سارة ، ويعتقد أنها أصح الألعاب وأشدها مطابقة للحياة.

ويعلل ذلك بقوله ، الشـطرنج والضــامة يعولان على الحيلة ، وكل شــيء فيهما مكشـوف بعد ذلك والنرد يعول على المصــادفة والذكاء وكل شــيء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق إما صراع قلما يشبه صراع الحياة .

أما الدمينو ففيها حسـاب للمصـادفة ، وفيها حسـاب للتدبير ، وفيها حسـاب لليقين وفيها حساب للظنون ، وفيها حساب للغيب الذي تجهله أنت وخصمك ، وللغيب الذي تجهله أنت ويعرفه خصـــمك ، أو يجهله هو وتعرفه أنت ، وللعيان الذي يعرفه كل من يشــاء ، ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ولها حرية تمنحك الخيار بين ما في في يديك .

وكانا يخرجان بعد ذلك لقضــــاء بعض الوقت في حديقة الأهرام بمصـــر الجديدة أو في نزهة نيلية، أو في دور السينما أو الأوبرا إلى آخر الأماكن التي كانا يرتادانها معا ، في خفة وطلاقة ومرح وسرور .

هذا هو يوم من أيام العقاد وحبيبته صحبناهما فيه لنرى كيف كانا يقضيان حياتهما معا ، تلك الحياة التي امتدت بضع سنين نعما فيها بكل ألوان النعيم ، وسعدا فيها كأحسن ما تكون السعادة حتى غدا العقاد من سعادته حالمًا في يقظته .

ويعبر العقاد عن أحلامه في اليقظة وهو في نزهة مع سارة في زورق في ليلة من ليالي الصيف ، وقد أسلم الزورق إلى صبي صغير فنام واستغرق في النوم ، ولم يستفق حتى رش العقاد على وجهه من ماء النيل ، وفي تصور العقاد أن يقظة الحب من خلود ، وأن الكون جميعه مطروحًا في يد هذا الوليد (الحب) عبور السماوات ، وأن الفلك أن يتعلم من هذا الوليد (الحب) عبور السماوات ، وأن القبلات ترتفع به إلى السماوات كالمنطاد ، وان سارة تخاف من يقظة الربان الصغير :

نام رباننا الصغير ونمنا لو حسبنا أحلامنا من هجود	لو حسبنا أحلامنا من هجود
بل شهدنا في يقظة الحب مالا	تشهد العين في المنام السعيد
وأتى النوم طائعًا فبذلناه	لربان فلكنا المجهود
وإذا ذقت من موائد هذا الحب	فالنوم من فتات العبيد
يقظة الحب من خلود وماذا	ينفع النوم بين أهل الخلود
أين يمضي بنا ؟ في مسرب النيل؟	فما النيل هكذا بالسديد
كم علونا من دارة بعد أخرى	وطوينا العهود بعد العهود
نترقى على هدى قبلات	لا تمل الصعود بعد الصعود
هي منطادنا ، وما هو بالجامح	في سبحه ولا بالوئيد
كلما غردت لنا بعد وهن	قبلة بلبلية التغريد
خاف خلى من ذلك النائم	الساهي وأنحى عليّ بالتفنيد
لا تلمني ، ولاتخفه ، فأنا	في السماوات وهو تحت الصعيد!

ويصور العقاد «كيوبيد » بأنه قام بدور الصبي فغدا ملاحا للزورق بعد نوم الربان الصغير ، فكان نعم الحادي وليس عجيبًا أن يسر النفوس حادي الوجود :

أيه «كيوبيد » لاعدمناك ملاحا	رخي التصويب والتصعيد
كنت نعم الحادي وما من عجيب	أن يسر النفوس حادي الوجود

ثم يتعجب العقاد من إلحاح الجسم في عودة النفس من عليائها حيث تهيم في سماء الحب ، وبعد ذلك يدعو العقاد وسارة الطفل للاستيقاظ لأن ركب السماء قد عاد إلى الأرض كما أعرض أبوهم آدم عن نعيمه المفقود :

أين منا هذه الأماني والنفس   تخاف الذرى بغير حدود؟

أين منا؟ والجسم ما انفك في الأرض   ينادي يا أيها النفس عودي

فأهبنا بذلك النائم الساهي   أما قد مللت طول الرقود؟

ورددنا له الحياة بماء   من معين الحياة عذب برود

أيها الراقد الخلى تنبه!   عاد ركب السماء غير طريد

عاد مستفتحًا بكفيه بابا   فوق هذا الرغام جهم الوصيد

أو ما هكذا تولى أبوهم   آدم عن نعيمه المفقود

وطفقنا نقول كان وكانت   وهي في قربها كحيل الوريد

أيها النيل عد بنا وأعدها   من جديد لا زلت خير معيد

ويقول العقاد أن فرحه بسارة وحبه لها لا ينشآن عن صفاتها الجميلة وذلك في مناجاته لها التي أدرك فيها أن فرحه وحبه لسارة ينشآن عن ارتباط قلبه بشخصها ، ووجد نفسه مسوقًا إلى التوله بها ، لأنها في حد ذاتها جديرة بحبه

يا رجائي وسلوتي وعزائي   وأليفي إذا اجتواني الأليف

نبئيني ، فلست أعلم ماذا   منك قلبي بحسنه مشغوف

كل حسن أراك أكبر منه   أن معناك تالد وطريف

كما أنه يعطينا تصويرًا كاملاً لسارة حينما يسائلها عن السر الذي يجعله يحبها ، ويهواها ، ويأخذ في تقدير صفاتها ن فهي جميلة رائعة الحسن ، وهي ذات ذكاء وصاحبة ظرف ودلال ، وذات خصال كريمة طيبة ، ثم أنها مسامرة مؤنسة ، رقيقة رشيقة ، ولكن هذه الصفات جميعها ليست سر حبه لها ، وإنما السر في هذا الحب هو شخصها الذي يطوف بخياله فيبعث فيها عاطفة مشبوبة وهوى عنيفًا :

انا أهواك «أنت» أنت فلا شيء سوى «أنت» بالفؤاد يطيف

أن حبًا يا قلب ليس بمنسيك جمال الجميل حب ضعيف

ويصور العقاد بعد عام من حبه لسارة حالته النفسية وحبيبته قبل الحب . ثم يتحدث عن يوم اللقاء وكيف مر العام كيوم مع أنه يحس أنه ما عاش فيه مع حبيبته مدى الدهر :

مر عام منذ سرنا حيث سرنا ... لا نبالي ما أتى أو سوف يأتي

منذ ما كنا غريبين فصرنا ... كل شيء ، أنا في الدنيا وأنت

مر عام ؟ عجبا أي عجب !! ... خلتها خلسة غاف أسرعا

تم عام ؟ أي وربي بل حقب ... خلتنا عشنا مدى الدهر معا

علم أن حديثه عن العام أوحى إليه بأن يتحدث عما كان يحدث فيها كل يوم من الحبيبين من القبلات والعناق والوداع واللقاء والاشتياق حين يحين الفراق والعهود التي تبرم كلما جن المساء ، والعتاب والخصام إلى آخر تصوير حالات حبهما :

قبلات كل يوم وعناق ... ووداع كل يوم ولقاء

واشتياق كلما حان الفراق ... وعهود كلما جن المساء

***

وعتاب كل يوم وخصام ... جائر الحكم كثير العلل

نرتمي فيه بأهوال جسام ... بين سخري المنى والقبل

***

وعلى توقيع أنغام الرجاء ... نبعث القلبين حبًا ، وخصاما!

عبث الطفلين في مهد الصفاء ... كلما راعتهما الضجة ناما

ثم يصف حبيبته بأنها تقرأ معه في بعض الأحيان ، ويسألها عن عمر الحب الذي يشبه الوليد الذي أتم عامًا ، وأنه ليضمن لها أن يدوم حبهما مدى الدهر ولا يسلو دواما .

وحياة بين روض وغدير ... وحياة بين ألفاف كتاب

لا ظلام الليل يثنيك ولا ... لفحة القيظ ولا اليوم المطير

في دلال منك موفور الحلى ... وكلال منك كالظبي البهير

***

خبريني كم من العمر يدوم ذلك الطفل الذي أكمل عاما

خبريني أنت . أنى لزعيم أن يدوم الدهر لا يسلو دواما

وعلى الرغم من أنه ضمن لها دوام الحب أبد الدهر ، إلا أنه أخذ يسألها في الصورة التالية قائلاً لها : إنه لا يغني الخبر ، لأن حبهما لا يلقى إلى غير القدر كالأخبار ويختم العقاد قصيدته بأن يدوم حبهما وإلا تتغير حالها معه بل تظل على ما هي عليه .

خبريني . لا فما يغني الخبر أسعيد في هواه وبصير ؟!

جل أن يلقى إلى غير القدر نبأ اليوم وأنباء المصير

***

فامض يا غيب بكفيك الزمام حيث تمضي ، وتمهل وارفق

ولدينا لك يا غيب كلام كل عام بعد عام نلتقي

***

وغدا ندعوك أن جاء غد بلسان الحمد أو .. ماذا نقول ؟

موعد يمضي ويتلو موعد ورجائي منك حال لا تحول

ثم يحلل د . عبد الحي دياب تفسير العقاد لخيانة المرأة ونظرته إليها ثم بداية شكوكه وتفسير نظرته إليها فيقول [(١)]:

«كان العقاد قد عرف من خبرته وتجاربه من أحوال المرأة والرجل ما أقنعه أن الخيانة بينهما ليست من الصعوبة والامتناع بحيث يتوهمان ، فما من رجل كبر أو صغر إلا والمرأة واجدة بديلا منه يغنيها عنه في جميع نواحيه أو بعض نواحيه : إن كان محبوبًا ففي الرجال من هو أحب ، وأن كان مهيبًا ففي الرجال من هو أهيب ، وإن كان جميلاً أو سريا أو قويًا ففي الرجال من هو أجمل وأسرى وأقوى ، ولقد تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير . [(٢)]

المرأة في تصور العقاد ، فإن ألوفًا من السنين قد غبرت عليها وهي تخاف وتحتال وتراوغ وترائي بمواطن الضعف في الرجل حتى أصبح بعض النساء ممن قويت بعض عناصر الوراثة وبرزت في طباعهن عقابيل الرجعة ينشدن الغش إلتذاذا به وشحذا للأسنان القديمة التي نبتت عليه ، ويسرهن أن يصنعن الشيء ويخيفهن ولو لم تكن بهن حاجة إلى صنعه ولا إخفائه ، إن المرأة من هؤلاء تشتهي العظمة بجوع عشرين ألف سنة ، وتشتهي اللحم واللبن بجوع ساعات .

---

(١) د . عبد الحي دياب / المرأة عند العقاد .
(٢) العقاد : سارة .

ومهما يكن في تشـــبيه العقاد للمرأة بالكلاب من هدر لكرامتها والحط من شـانها مما ننكره عليه ولا نسـتسـيغه ، فإنه بعد ذلك دلف للحديث عن حبيبته ســـارة فيقول: أنه عرفها فلما لا يعرفها غيره ؟ ولم يصـــعب عليه أن ينال عطفها فلماذا يصعب على غيره أن يناله ؟

على أنه لم يكن يســتبعد منها الغش والخيانة ، وليس بين الشـــيء الذي لا يستبعد والشـيء الذي يتوقع إلا خطوة وعلامة محسـوسـة والإنسـان قد يتوقع الغش لفرط إشفاقه من الفقد والخسارة لا لفرط أوهامه وسوء ظنه .

ومن ثم أصـبح العقاد يحذر الخيانة حين أصـبحت هذه الخيانة شـيئًا يهمه ويشـــغل باله ، ولم يتأهب لنفيها كما تأهب لقبولها ، ولم يكبح خواطره عن التمادي في الظلم ، لأنه علم أن ضمان العدل موجود لا يغفل .

على أن بواعث الشك في سارة بالإضافة إلى ما سبق حينما سمع من طفلها الصغير وهما يتنزهان في أرياض القاهرة بعد أن لعب وظفر ما شاء له مرح الطفولة ومرح المكان .. ســـمعه العقاد وهو يتجه إلى أمه ويأخذ منها موقف العاشـــق المدلّه، وجعل يفوه في خلوة غرام ، وانطلق يرصـــها رصـــا كأنما يتلقاها من ملقن أو يتلوها من كتاب على الرغم أنه لم يتجاوز الخامســـة من عمره بعد .

فاسـترعت هذه الكلمات العقاد ، ونبهته من غفلته ، وصـحا من حلمه الذي كان ساردًا فيه على مهل ، وتكاسل كأنه لم يتبين بعد معنى ما يسمع .

وأسرعت سـارة فانتهرت الطفل انتهارًا شـديدًا وعنفت عليه وهي تبالغ في نهيه أن يســـترســـل في تمثيل دوره ، وأرادت أن توقع في روع العقاد بغير اكتراث ظاهر أنها إنما تزجر الطفل لبذاءة الكلام الذي يسـرده ، لا لأنها تكتم سـرًا يوشـك أن يفضـحه الطفل بثرثرته وهذره ، وحاولت أن تلقي التبعة في ذلك على العشـرة السيئة والقدوة المرذولة .. على الأطفال الذين يلعب معهم ، أو لعله سمعه من الخدم.

وسـكنت وسـكت العقاد وما في ذهنه ذرة من الشـك في أن بعضًـا من ذلك الكلام الذي لغط به الطفل قد صدر من أمه .. لأنه كلامها فكيف تسرب إليه ؟ ومن أين ؟ خاصــة وأنه لا يذكر أنهما قد تخاطبا في محضـــر الطفل إلا كما يتخاطب الرجل والمرأة في المجلس المشهود ، وليس لسارة زوج يعيش معها وليس من عادة الأزواج أن يتغازلوا على هذا المنوال بمســـمع من الأطفال الصغار ، فمن أين تسربت إليه المناجاة بطرفيها ؟ من أين ؟ نعم من أين ؟

ويضـيف العقاد ظواهر أخرى مريبة «فماريانا» التي كانت لا تؤتمن على سر المعرفة بينهما ما بالها اليوم قد أصبحت مأمونة الجانب مغشية الدار حتى لا حذر من التواعد لديها على غير ضـرورة ؟ وتلك الزينة المعهودة بعطرها وشــياتها ما بال ســارة تحتفل بها في غير أيامها ؟ ونوازع الغرائز التي لا ســلطان عليها للمرأة ما بالها تتبدل ؟ووســائل الحيطة الخفية ما بالها تتعدد ؟ وذلك التلطف المريب تلطف الآثم الذي يمســح حويته بفرط المجاملة ويكفر عن خيانته الباطنة بفطر المصالحة الظاهرة ماذا ورائها وماذا في أطوائها ؟

وفي تصور العقاد أنه يجوز عنده أن تنصرف سارة إلى غيره ، ولكن ليس بالجائز عنده أن تســـتغفله لأنها تتوهم في دهائها القدرة على الجمع بينه وبين غيره .

وجائز عنده كذلك أن يكون هو وهي ألعوبة واحدة في يد الطبيعة التي تسوقه ويسوقها ، ولكن ليس بالجائز أن يكون هو ألعوبة في يدها ، وأن تكون هي اللاعبة بلبه وولائه ! وقد أخذ عليها العقاد شبهات كثيرة في حبه لها ، ولم تأخذ عليه شبهة واحدة ، واتهمها فلم يشاهد عليها عذاب المرأة التي تفجع في حب تقابله بحب مثله .

ويتساءل العقاد هل ظلمها ؟ ولكنه لا يلبث أن يجيب بقوله :

يجوز ..

ويعيد السؤال ويعيد الإجابة نفسها ، وذلك لكي يعرف مدى فتنتها أو على حد تعبيره لمس به أغوار فتنتها ، واعتقد أنه يخدع عقله باختياره ويســـاعدها على تضـــليل حســـه ورأيه ، وأنه لم يظلمها ولا افترى عليها ! ولولا ذلك لقد كانت شبهة أهون من هاتيك الشبهات كافية كل الكافية للبت في أمرها وطي السؤال والجواب عنها .

ورأى العقاد أن خير له أن يفارقها بخير جريرة قادرًا على آلام فراقها ، صائمًا عن مسراتها ، من أن يعاشرها عاجزًا عن فراقها ، باذلاً كل ما عنده من اهتمام ، مستحقًا كل ما عندها من احتقار واستغفال ..لقد سلبت الطمأنينة وكفى !

ثم ينتهي الحب ، ويحدث الفراق ، ويكتب عن حبه لســـارة بعد انقضـــاء عامين على فراقه لها ، ويتســـاءل عن غاية مسعاه في حبها وعقبى صيحته الكبرى يلتقيان ثم يودعان ، وهل هذا هو كل ما يبقى لهما من الحب :

أهـذا غـايـة الـمسـعـي ... وعـقـبـي الصـيـحـة الكـبـرى
لـقـيـنـا ثـم ودعـنـا! ... أهـذا كـل مـا يـبـقـى؟

ويقسم أنه لن يأسى من الآن على ماضي ذلك الحب ولا يخشاه ، لأنه نسى مصيبته في سارة وكل مصيبة تنسى سواء كانت فيها أو في غيرها .

حـلـفـت الآن لا آسـى ... عـلـى مـاض ولا أخشـى
نسـيـت مصـيـبـتـي فـيـك ... فـكـل مصـيـبـة تـنسـى

وغدا العقاد لا يبكي على البعد منها ولا يشقي به ، وليس في فؤاده جنة من الحب لها تطغى عليه ، ولا ييأس من الموت ، ثم تهكم بها حين يتساءل عن حبها وعن ذكرياته في نفسه بعد أن انقضى عامين على فراقهما :

أراني اليوم لا أبكي	على بعد ولا أشقى
ولا يأتي الظلام وفي	فؤادي جنة تطغى
ولا يأس كأن الموت	من سكراته الصغرى
تصرم عامك الثاني	فأين هواك والذكرى؟

ويعلل العقاد عدم بكائه واهتمامه بسارة بأن هناك حبًا جديدًا محا كل ما يتعلق بسارة من نفسه وهو ما سنتحدث عنه فيما بعد ، وأن سارة نفسها قد كانت سببًا في نسيان حبه لمي زيادة وكان يظن أن هذا الحب لا يسلى ، ويمدح في الوقت نفسه خيانة الحب التي وثق منها في سارة ، لأنها أطفأت ما أذكى من لواعجه وأحزانه :

مكانك فانظري فيه	هناك نزيلة أخرى
لقد أسليتني حبًا	حسبت هواه لا يسلى
فنعم خيانة الحب	التي تطفئ ما أذكى

على أنه يقول : أنه عصى قلبه في محاولة نسيان سارة ولم يكن له اختيار في حبه الثاني ، ولكن هذه أحوال الدنيا:

سلوتك عاصيًا قلبي	ولم أك طائعًا أهوى
فما اخترت على حال	ولكن «هكذا الدنيا»

وفي موقف آخر يقول : أنه لا يبكي سارة بعد أن تأكد من خيانتها وقد سامحها ، وأن أحسن ما في النساء الساعة التي يضحكها الإنسان معهن وأنه قد تعلم من سارة الشيء الكثير عن الشك في حواء ، ومعنى هذا أن حكم العقاد على النساء مؤسس على تجربته الخاصة مع سارة أو غيرها :

غفر الذنب من بكائي عليك	أنني لا أعود ما عشت أبكي
لا يساوي – وقد تعلمت منك	نسل حوائكن دمعة شك

خير ما في النساء ساعة ضحك

على أنه صـــور ســـارة بعد انتهاء حبهما ، وفراقهما بأنها كعبة داهمها الزلزال وقد تقوضت أركانها ، وبواعث الجد فيها ، وتتمثل في : صنم الحق ، وصنم النخوة وصنم الحب ، وصنم المجد : (١)

كـانـت الكعبـة والأصـــنـام فيهـا		زينـة تـأخذ قلب الصـــب تيهـا

حفلـت في كـل ركن بـالـدمى		والدمى مســتعبدات صـــائغيها

هـي أصـــنـام لـمـن يـعـبـدهـا		أو تمـاثيـل تنـاجي عـاشـــقيهـا

عظمـت حينـا فلمـا زلـزلـت		كـاد من صـــلى إليها يزدريها

وفي موقف آخر يقول أن ســـارة تعيش في قمقمها الذي تعيش فيه على أعصـــابها ، وتســـبح في دم العقاد الذي أراقته على مذبح خيانتها ، وأنه كان يجهل خبايا هذا القمقم ، وأن سعادتها سجينة في هذا القمقم ، وأنها تشتاق إلى النور الذي تجن به على حين تذبل في حبها المظلم ، وأن إطلاقها رهين بكلمة السـر التي على شـفتي العقاد ، وأنه لا يشـتهي منها قبلة وليس حريصًـا على مغنم منها :

هنـا قمقم ســـابح في الـدم		أســـائـل عنـه ، ولـم أعلـم

جـهـلـت خـبـايـاه حـتـى أنـي		عريف الطلاســم بـالمعجم

ففيـه كمـا قبـل مســـجونـة		ســـعـادة بـعـض بـنـي آدم

وقـد زعـمـوا أن إطـلاقـهـا		رهـيـن بـهـمســـة ذاك الـفـم

بســـر علـى شـــفتي فـاتـن		يـبـاح إلـى شـــفـتـي مـغـرم

ومـا أنـا بـالـمشـــتـهى قبلـة		ولا بـالـحـريص علـى مـغـنم

ولكنه مع ذلك كله لم يسـتطع أن ينسـى سـارة بل كثيرًا ما اسـتعاد ذكرياته معها ، فمن ذلك تذكره لجلســاته معها في نور القمر عند الأهرام ، ثم يأســى لأن الغيب فرقهما مع أنهما متعاهدين على اســتمرار حبهما ويصــف هجرها وفراقها بالخسوف كما يخسف القمر :

هات لي الذكرى وجدد ما مضـــى		عنـدك الـذكرى ورجعـاهـا معـا

هـات مـا كـان كمـا كـان انقضـــى		أو فـجـدد غـيـر مـبـتـدعـا

ليلـة البـدر ، وقد كـان الرضـــي		موعـد الأهرام نبغي مطلعـا

(١) ديوان وحي الأربعين /ص ٧٧، ١٢٠ .

فقضى الله سواها غرضا

قد نوينا ونوى الغيب لنا ... نية أمتع للمستمتع

خسف البدر وأمسيت أنا ... أدعي من نشوة ما أدعي

كلما ناديتني هيا بنا ... قلت : هيا ! وأنا في موضعي

السنى عندي فما لي والسنى ؟!

ولم يكن يرضى العقاد لبدره شريكًا معه ، ولا يتمنى طلوع الصبح في جلسته مادام جالسًا مع سارة في ضوء القمر :

خسف البدر وما كان الخسوف ... شيمة البدر الذي بين يدي

نشر الناس وطافوا بالدفوف ... وأنا والبدر في نشر وطي

خل ما شاء كما شاء يطوف ... أن بدري طالع منه إلىّ

لا أحب البدر ترعاة الألوف

يا سمير الليل يا نعم السمير ... ما لنا والصبح ما دمت أراك

أنا في نور وروض وعبير ... حينما ألقاك لا ألفى سواك

رشفة من ثغرك العذب النضير ... أو من الكأس احتوتها شفتاك

وسلام أيها الكون المنير

ويصف ثغر سارة بأنه خمر وكأس يشرب منها وتنادمه الحديث وتروي أشعاره، بل أنها لتتكلم الحديث المجرد ، فإذا هو في أذن العقاد شعرًا ، وحينما تنشد شعر العقاد في هذه الجلسة تضفي عليه جدة كجدة الصبا ، لأنها تبث فيه نفحات من صباها العجيب ، بحيث أنك لا تكذب حينما تقول أنها ترتجل هذا الشعر ، وأن مطلبه في زمانه الحسن والأدب وارتشاف الخمر من الثغر الوضاء :

هات لي من فيك أنفاس الغرام ... أو فقل إن شئت أنفاس الحياة

واسقني الخمرة من أعذب جام ... لا من البللور في أيدي السقاة

ثغرك الضاحك كأس ومدام ... ونديم لي ، وراو في الرواة

ينشد الشعر فيشجيني الكلام

بنشد الشعر جديدًا كالصبا   وأنا ناظمه منذ سنين

بث فيه من صباه عجبًا   فإذا قلت ارتجال لا تمين

ذاك حسبي في زماني مطلب

ويروي لنا صديق العقاد الأديب محمد طاهر الجبلاوي حكاية مراقبته لسارة بتكليف من العقاد والذي سماه في رواية سارة باسم «زاهر» فيذكر أن الشك كاد يقتل العقاد لم يكن يطلب إلا أن يقضي على الشك قبل أن يقضي عليه لقد عذبه الشك طويلا ، وأطار النوم من عينيه ، وتمثلت له الهواجس المدمرة ، فكان يتخيل أليسا وهي في أحضان غيره ، تردد كلمات الحب والنجوى وتطارح غريمه الهوى ، فيضنيه الشك ، وتستبد به الظنون ، فيجفو النوم عيونه ويمزق بعضه بعضًا بعد أن نهشته الظنون السود وأقضت مضجعه : (١)

يوم الظنون فقدت فيك تجلدي   وحملت فيك الضيم مغلول اليد

وبكيت كالطفل الذليل أنا الذي   ما لان في صعب الحوادث مقودي

وغصصتُ بالماء الذي أعددته   للري في قفر الحياة المجهد

لاقيت أهوال الشدائد كلها   حتى طغت فلقيت ما لم أعهد

ويكشف الشاعر محمد طاهر الجبلاوي (١٨٩٨-١٩٧٩) صديق العقاد الصدوق بعض جوانب علاقة العقاد بأليسا ولماذا كلفه العقاد بمراقبتها ليقطع الشك باليقين ، فقال (٢):

«ملأت سارة حياة العقاد سرورًا ومرحًا وتمتع إلى جوارها بسعادة لا يحلم بها إنسان . وكان للأيام السعيدة التي قضاها معها أثر كبير في أدبه فقد خلعت عليه حللاً من الجمال ووشته بأفانين من بدائع الخيال ، وألهبت شعوره الذي يستمد منه قلمه قوته وروعته ، فكانت مقالاته الأدبية والسياسية في تلك الفترة تمتاز بلون جديد وأسلوب فريد لا يخفى على أحد .

وقد شغف العقاد بسارة وشغل بها حتى أنسته بعض من كان يخصهم بزيارته من حين لآخر.

ولاحظ سعد زغول أن العقاد لا يغشى بيت الأمة إلا لماما وكان لا ينقطع عن الحضور إليه .

ولعله علم بشيء من تلك الأخبار . فلما لاقي العقاد لأول مرة سأله عن غيابه ثم هز رأسه وابتسم ابتسامة ذات مغزى وقال :

(١) ديوان وحي الأربعين /ص ١٢٣ .
(٢) محمد طاهر الجبلاوي : من ذكرياتي في صحبة العقاد ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٦٧.

طيب عبد القادر لقى أمله ، وأنت لقيت إيه يا أستاذ عباس؟ يقصد الأستاذ عبد القادر حمزة صاحب البلاغ وجريدة الأمل التي كانت تصدرها باللغة العربية والفرنسية أديبة فاضلة آنذاك . وسكت العقاد وكأنه لم يسمع شيئًا!

ودارت الأيام دورتها ، وبدأ الشك الرهيب يكشر عن أنيابه ليعكر صفو تلك الأيام السعيدة ، وينشب أظافره في أحشاء ذلك الحب الغضير .

كان العقاد قد خبر حياة سارة وعرف أسرارها التي أفضت بها إليه حين استراحت إلى حبه .

وأدرك أحاسيسها ما بدا وما استتر منها ، حتى ليكاد يعرف ما يختلج في نفسها دون أن يسمعه من لسانها .

كانت إذا لبست نوعًا من الملابس يعرف لماذا تلبسه وفي أي وقت تراه صالحًا.

وإذا وضعت نوعًا من العطور ، يعرف وقته وغايتها منه . فقد كانت لها أساليب تتبعها في ملبسها وفي زينتها لا يشاركها فيها أحد.

وكان إذا نظر إلى رأسها عرف خصلاته وتبين كل شعرة من شعراتها كما كان يتبين أسارير وجهها ويستشف ما وراءها من أسرار .

ورآها مصادفة في عرض الطريق . فلفت نظره تغير في نظام ملبسها ، وتناثر في خصلات شعرها ، وقد اشتم رائحة من الطيب لا تستخدمها لغير غرض.

فلم يستطع أن يعلل ما رآه .

وبعد لحظات من هذا اللقاء سمع ابنتها الصغيرة التي كانت تلازمها تنبس بكلمات مريبة .

دب دبيب الشك في نفسه وانصرف إلى منزله مكتئبًا حزينًا . فلم تطب له راحة ولم يهدأ له بال ، وقد جافى عينه الرقاد .

***

كنت أنزل بداره في تلك اليام وأرى ما طرأ على حاله من التغير : وجه ساهم تبدو عليه الحيرة ، متجهم تارة وشارد تارة أخرى ، وصممت على أن أسأله عن هذا التغير فلم أجرؤ ، ولكني عدت فجازفت وسألته فلم يجب وظل يتكتم الأمر على .

ثم عاد وأفضى إلي بكل شيء ولعله وجد في الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يستعين به في موقفه الأليم .

كاد الشك يقتل صاحبي ولم يكن يطلب إلا أن يقضي على الشك قبل أن يقضي عليه .

ومما كان يزيد في حيرته ذلك العقل الجبار الذي كان يخلق الفروض فتتساوى في أمر سارة بين البراءة والإدانة .

أمسيت حربي في الظلام وطالما جليت لي وجه الظلام المربد

ومنها :

أهب الخلود كرامة لمبلغي إن ليس يومي في العذاب بسرمد

لم يشأ أن يظلمها ولم يشأ أن يقبل خيانتها ولم يكن من السهل على من ذاق حلاوة الحب واستمتع بالسعادة في ظلاله، أن يذوق مرارته ويكتوي بناره ويقول في هذا الشك أيضًا :

هواك كالطفل فيه شك يريب أباه

لا أستقر عليه ولا أطبق قلاه

ولا أزال شقيا بقربه ونواه

لم يصل إلى حال يستريح إليها ، وقد رأى أن اليقين أمر بعيد المنال ، وأن الشك ما يزال يخالجه ويقض مضجعه ويحيره. فلم يربدا من أن يقطع علاقته بسارة ويتحمل أذى فراقها كيفما كان . فصارحها بالأمر ، وأعاد إليها صورها ورسائلها . ظن أنه سيستريح . وأنى له وقد جرح جرحًا عميقًا لا سبيل إلى التآمه .

وعرض عليه صديق من خلصائه أن يقبل سارة كامرأة ويستمتع بما تهبه من متع الحياة ولهوها فأبت نفسه وقال في ذلك :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد

وألقاك جسمًا مستباحًا وطالما لقيتك جم الخوف جم التردد

رويدك إني لا أراك مليئة بلذة جثمان ولا طيب مشهد

جمالك سم في الضلوع وعثرة ترد مهاد الصفو غير ممهد

إذا لم يكن بد من الكاس والطلا ففي غير بيت كان بالأمس مسجدي

وخطر له أن يغير مجرى الأمور ويذهب إلى التسرية عن نفسه بأنواع التسلية فاشترى «جرامفون» فكنا نجلس إليه نستمع إلى أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وسيد درويش وغيرهم .

فوجد في الموسـيقى بعض الراحة ولكنه حينما وضـع أسـطوانة مطرب لبناني يقول :

نـار الـغـرام لـم تـنـطـفـي ولا الـمـحـبـة بـتـخـتـفـي

بكي وأغلق الفونجراف ولم يفتحه إلا بعد بضـعة أعوام . وفكر العقاد في مراقبة سـارة مراقبة دقيقة وكان بطبيعة الحال لا يستطيع أن يراقبها بنفسـه ، فقلت أراقبها أنا ولا عليك .

وكانت الرقابة هي الطريق الوحيد لدفع الشـك باليقين ولكنها طالت بادئ الأمر على غير جدوى . وكان العقاد يتلقى أخبار الرقابة باهتمام بالغ . ولم ينقطع يومًا واحدًا عن التفكير في حبه الذي ضـحى به على معبد الغيرة والشك.

كان يقول لي إنه حبه الأخير الذي لا حب بعده ومن أجله أتألم ويتمثل بقول المتنبي :

ولـو زلـتـم ثـم لـم أبـكـكـم بـكـيـت عـلـى حـبـي الـزائـل

ويوقظني من نومي بعد منتصـف الليل لخاطر يمر بذهنه ويأخذ رأيي ، وأنَّي لي رأي إلى جانب رأيه ، ولكن الغريق يستند على قشة كما يقولون في الأمثال .

وكان له طريقة يوقظني بها ، فقد كان إلى جوار منزله معسـكر الجيش الإنجليزي ويسـمع منه «البوري» البوق يردد النوبة فيوقظني على طريقته : يا جبلاوي .. يا جبلاوي .. يا جبلاوي !

وأصحو من رقادي ليستشيرني .. وأجيبه بالموافقة ثم آوي إلى فراشي .

ولم تخل تلك الأيام على ما فيها من أشـجان وآلام من طرائف ، كان يدعوني إلى معاكسـة صـديقه الدكتور محمد صـبري . فأسـأله هل قرأت صهاريج اللؤلؤ .

- نعم . وماذا تريد منها ؟

- أقرأها مرة ثانية .

ويلقانا الدكتور محمد صبري ساخطًا على الحياة والبلد ومن فيه .

ويروي لنا قصته ونحن نتكتم الضحك .

حتى تجيء الليلة التالية ونعاكسه مرة ثانية .

وكانت لنا جولات في الليل بعد أن تخلو الشوارع من المارة .

فنخرج بالبيجامة والطاقية ونجوس الطرقات هنا وهناك ونتبادل الأحاديث.

وقد يخطر لـه أن يعاكس بعض الأصـدقاء . فينظم زجلاً يهجو أحدهم ويضعه في صندوق بريده .

وكان صـــديقنا حســـني يفاخر بقوته البدنية ويتحدث للعقاد عن ضـــعفي ونحولي فأراد أن يقنعه ذات مســاء بخطئه فيما تصــوره عن نفســه وما تخيله من ضـعفي وكتب إليه زجلاً ألقاه في صـندوق بريده وكان يحب امرأة يونانية بدينة تقول لبرميل الزيتون أنزل وأنا اقعد مكانك وفي هذا الزجل يقول متحديًا على لساني :

أطلع لي وأنزل في الميدان

وأنا أورى لك شغلك

هوَّ انت أدي يا غلبان

يا بتاع خديجة وزنوبه

وبتاع براميل الجيران

والزجل مكون من عدة مقاطع لا أذكر منها غير هذا المقطع .

ويضع كسرة أو شقة من الخبز في «ظرف» ويلقيه في صندوق بريد لآخر .

ونتقابل مع هذا وذاك ونسـمع التعليقات المضـحكة ، ونعود إلى المنزل وقد سرى عنه بعض الشيء ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى حزنه واكتئابه .

ومضى عام وكنا قد يئسنا من الرقابة ولكنني ضننت على جهدنا أن يذهب سدى فعدت أراقب سارة .. في هذه المرة رأيتها بميدان المحطة تسير الهويني ثم تلتقي بضــابط برتبة الملازم أول كان يرتدي الملابس الرسـمية ويقف أمام سيارة عند باب قطار كوبري الليمون . وما أن دنت حتى حياها وركبا السيارة معًا وانطلقا عن طريق حدائق القبة .

قلت لقد وصـــلنا إلى اليقين الذي يريحني ويريح صــاحبي ، وكان علي أن أتبع السـيارة ، ولكني وضـعت يدي في جيبي فلم أجد معي ما يكفي من النقود إذا أردت اللحاق بهما في سيارة أخرى ، فعدت أدراجي لأخبر صاحبي .

كان يركب الترام والترام يجري بأقصــى سـرعته ، فقفزت سـريعًا وركبت إلى جواره . ثم قلت : انتهت مهمتي . ثم قصـــصـــت له ما رأيت . قال : إن ركوبك الترام على هذه الصورة أشعرني بما وصلت إليه . ولكن لماذا لم تتبع السيارة فبينت له عذري .

وركبنا سيارة معًا وذهبنا إلى متنزهات حدائق القبة لنستكشف الأمر .

وأخذنا نتجول . ونتفرس في الوجوه بطريقة تريب كل من رآنا وقد عثر بنا اثنان من تلاميذ العقاد ونحن على هذه الحال . وكانا من ضـــباط الجيش . فأسرعا إلينا باهتمام شديد ، ما الذي يأتي بالعقاد إلى هذا المكان! ولماذا يسير هو وصاحبه يتفرسان في الوجوه ويتفحصان المقاعد .

وكان العقاد سـريع البديهة كعادته فلم ألبث أن رأيته ينظر إلى ويقول لتلميذيه . إن صـديقي رجل طيب القلب . ولكنه منكوب في زوجته ، وقد أخبره بعض الناس أنها تغشى هذا المكان فجئنا نتحرى الأمر .

واهتم تلميذا العقاد الضـابطان وقاما معنا يبحثان وينقبان . والحقيقة أنني لم أكن متزوجًا بل إني ظللت عزبًا إلى ما بعد هذا الحادث بعشـر سـنوات أو أكثر.

لم يكتف العقاد بما أخبرته به ، وهو في نظري كاف للوصـول إلى اليقين الذي ينشده .

وكانت آخر المراحل في أمر سـارة التقاء النظرين ، وهي تخرج من مكان يعرفه جيدًا وله عنه أخبار .

وقد أسـرعت فدعوته من المقهى الذي كان ينتظرني فيه ، فسـار معي إلى حيث تلقى الشكوك في لجة اليقين .

هنا اسـتراح العقاد ، وقضـى معي تلك الليلة وهو فرح مسـرور ولم يكتب بعد ذلك شعرًا في الشك ولا شعرًا في الحب والغرام وبدأ يقول في سارة :

غفر الـذنـب من بكـائي عليـك أنني لا أعود مـا عشـت أبكي

لا يسـاوي وقـد تعلمـت منـك نسـل حوائكن دمعـة شـك

خير مـا في النسـاء سـاعـة ضـحـك

أجـل هـذا خـيـر مـا فـيـهـن

ووقعت في أيدينا في تلك الأيام قصـة الأكاذيب للكاتب الفرنسـي بول بورجيه وهو من رواد القصـة النفسـية . فقرأها العقاد وقرأتها أكثر من مرة وكنا نعجب لأحداثها التي تنطبق على ما نحن فيه ، ونتحدث عنها فيما بيننا ، وللعقاد إعجاب كبير بهذا الكاتب ، فمذهبه القائم على التحليل النفسـي هو مذهب العقاد الذي يتحراه في القصة وفي الشعر .

ومن شعره في تلك الأيام هذه الأبيات المرحة :

بـحـر مـن الـحـب والـغـزل طـمـا علـى الكـون فـاحـتـواه

تـعـال نـرشـفـه بـالـقـبـل تـعـال نـنـزفـه بـالشـفـاه

فـي غـيـر مـهـل ولا عـجـل

***

بحر حوافيه من بعيد تنتظم الأرض والسماء

أغرقت فيه الأسى الوحيد وليفعل الدهر ما يشاء

حزنًا على نجله الفقيد

***

كان أكبر ماسر العقاد أنه وجد السلاح الذي يستطيع به أن يقلم أظافر ذلك الحب فقد أصبحت سارة امرأة كسائر النساء وقد انقشعت عنها خلع الحب التي كانت تغليها في نظر من يحبها ويقول :

«بلى! كان ذلك أكبر ماسر هماما في تلك الليلة بما سمع من بشارة . وظل على سروره هذا أيامًا يرشفه ويكرع منه ولا يروي منه بالجرعة والجرعتين.

وصفا له شعور الراحة والسكينة برهة ولا ينساها بقية أيامه فلم يرنقها عليها كدر : ولا ألم من نكسات الداء القريح .

ولم يكن يشعر أن للداء القريح رسيسًا باقيًا إلا حين انقضت إجازة أمين وودعه صباح يوم للذهاب إلى عمله .

فقد كانا معًا كالسائحين في طريق واحد معروف المعالم والأنحاء لهما على السواء .

فلما افترقا أحس همام كأنه ضل الطريق ..

وألح عليه هذا الإحساس المبهم بضعة أيام . ثم تراجع رويدًا .. رويدًا إلى رضوان صحيح أو رضوان يقنع نفسه بأنه صحيح .

ولم ير العقاد سارة بعد ذلك الحين إلا مرة واحدة ، وقد انقضى على فراقهما عشر سنوات .

كان يلقى محاضرة بالجامعة الأمريكية ، ومدير الجامعة إلى جواره يناوله أوراق الأسئلة التي يكتبها المستمعون بعد المحاضرة .

فتناول ورقة غريبة . نظر فيها فإذا هي بخط سارة وقد كتبت عليه هذه الكلمة :

«أنت وحشتنا » .

ومن سخريات القدر أني ألتقيت بالرجل الذي رأيت سارة تلتقي به لقاءها المريب عند محطة كوبري الليمون وهو ضابط برتبة الملازم أول كما ذكرت وقضيت معه بعض الوقت .

فلما طالت جلستي معه وطاب لنا الحديث سألته عن سارة وأخذت أتحدث عنها وأتفنن في وصفها حتى خلت أنه سينطلق يحدثني عنها الأحاديث .

ولكنه أطرق قليلاً وحك رأسه بأصبعه

ثم قال لي :

من هي ومن عسى أن تكون ؟!

إنني أعرف نساء كثيرات يا صاحبي .

من هي ومن عسى أن تكون؟! سارة التي شغلت العقاد وشغلتني طوال هذه السنين تمر في حياة هذا الرجل ولا تترك أثرًا في نفسه حتى لا يذكرها ولا تمر بخاطره !!

ما أعجب سخرية الأقدار !!

وذكرت هذه القصة للعقاد فأغضبته ولكنه عاد يحللها ويرجعها إلى أصولها النفسية ويقص على الكثير من أمثالها فيما وعاه من قصص الأولين والآخرين .

حتى تطرق الحديث إلى فلسفة التاريخ فدارت رأسي وكدت لا أفهم ما يقول .

والحق أن سارة لم تكن تستهوي إنسانًا «عاديًا» وقد كان العقاد ينشد فيها شيئًا خص به وحده ولا يحسه أحد غيره كان ينشد فيها الروح والمودة والعاطفة المتبادلة ويرى فيها الأيناس من الوحشة والنور من الظلمة ولم يكن يرضى بها جسمًا مستباحًا كما عبر عن ذلك في قوله :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى ... وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد

وألقاك جسمًا مستباحًا وطالما ... لقيتك جم الخوف جم التردد

رويدك إني لا أراك مليئة ... بلذة جثمان ولا طيب مشهد

لم تكن سارة من أجمل النساء كما يخطر على بال الكثيرين ولكنها كانت أذكاهن وأمتعهن للجليس وأقدرهن على اصطياد القلوب . فراشة لا ترى إلا أجوائها الخاصة متنقلة بين الأزاهر والأغصان .

***

ويعد بعض النقاد أن قصيدة «يوم الظنون» للعقاد والتي استوحاها من غيوم الشك والريبة أثناء علاقته بسارة تعبر عن ذروة الضعف الإنساني للكاتب الجبار الذي تحوله سورة الحب وظنونه إلى طفل صغير يبكي ويضعف ويأسى ويتألم حيث يرى فاروق شوشة أن العقاد قد حاول جهده أن يظهر بصورة الأديب الجبار منطلقًا من قوله أن الشعر وجدان لكن هذا الشعر لم يخل من نفثات عاطفية حارة ، وتجارب شعرية نابضة ، وجلوات تتخلى فيها العقاد عن زمام نفسه المسيطرة ووعيه الصارم وجهامته الجليلة ، ليصبح العقاد الطفل ، والعقاد المحب ، والعقاد الممتلئ بالشكوك والظنون تعتصره وتعذبه وتتركه كائنًا ضعيفًا في مواجهة ما تلده من أهوال الشدائد ونقيع السم .

في مثل هذا الشعر يكشف العقاد الجبار عن ضعفه الإنساني ، وعن أجمل ما فيه من رقة وعذوبة وطفولة ، ويتبدد ذلك السمت المخيف الذي يطالعنا من خلال كتاباته النثرية لتبقى صـــورته المثيرة للأســـى والمحركة للتعاطف والمشاركة .

يقول العقاد في قصيدته «يوم الظنون» [1]:

يومَ الظنون صـــدعتُ فيكَ تجلُّدي	وحملت فيك الضـــيم مغلول اليد
وبكيتُ كـالطفـل الـذليـل أنـا الـذي	مالان في صعب الحوادث مقوَدي
وغصـــصـــتُ بالماء الذي أعددته	للري في قفر الحيـاة المُجهـد
لاقيـت أهـوال الشـــدائـد كلـهـا	حتى طغـت فلقيـت مـا لم أعهـد
نــار الـجـحـيم إلـيّ غـيـرَ ذمـيمـة	وخذي إليك مصارعي في مرقدي
حيرانَ أنظر في السماء وفي الثرى	وأذوق طعم الموت غير مصـــرَّد
أرْوَي واظمأ عذْبُ ما أنا شـــاربٌ	في حـــالتيَّ نقيعُ ســـم الأســـوَدِ
وأجيـل في الليـل البهيم خواطري	لا شـــارقٌ فيه ولا من مســـعد
وتعيد لي الذاكرات سـالف صـبوتي	شـــوهاء كاشـــرة كما لم أشـــهد
مُســـختْ شـــمائلها وبدِّل ســـمتُها	وبدت بوســـم في الســـعير مخلَّد
يا صـــبوة الأمس التي ســـعدت بها	روحي ، وليت شـــقيَّها لم يســـعد
وعرفتُ منها وجهَ أصـــبحَ ناضـــرٍ	ورشـــفت منهـا ثغر ألعَس أغيد
سُـــومحتِ بل جوزيت كيف وعيت	بالأمس فيك ضـراوة الذئب الصـدي
ســـومحتِ بل جوزيت كيف طويت	زرق الأســـنـة في الإهـاب الأملـد
أمســـيت حربي في الظلام وطالما	جلَيـتِ لي وجـه الظلام المربـد
ورجعـت أهرب من لقـاك وطـالمـا	ألقيت عندك في الشـدائد مقصـدي
مـا كـان من شـــيء يزيـد تنعمي	إلا يـزيـدُ الـيـوم فـيـك تـلـددي
أُواه من أمســـى ومن يومي معًـا	والويـل من طول التردد في غـد

(١) العقاد : أشجان الليل ، القاهرة ١٩٢٨ .

أهب الخلود كرامة لمبشري — أن ليس يومي في العذاب بسرمد
وأبيع حظي في الحياة بساعة — أنسى بها عمري كأن لم أولد
وأسوم مرعى العيش غير مزودٍ — وأرود روض الحسن غير مقيد

وقد نشرت قصيدة «يوم الظنون» في ديوان «أشجان الليل» عام ١٩٢٨ ضمن ديوان العقاد ، أي بعد تصدع علاقته مع إليسا داغر التي انتهت عام ١٩٢٦ ، ومعنى ذلك أن العقاد قد استوحى هذه القصيدة من تجربة الشك التي عاناها أثناء علاقته بإليسا قبل أن تنتهي بالمواجهة والفراق عام ١٩٢٦ويرى الشاعر فاروق شوشة أن القصيدة تحمل ظلال الصفحات التي ملأها العقاد بالشك والغيرة في قصته الوحيدة «سارة» التي هي قصة حبه الكبير وشكه الكبير أيضًا [١].

«ولقد نجح الشك ونجحت الغيرة القاتلة في تقويض أركان تلك العاطفة التي ملأت على العقاد حياته وأخصبت وجدانه في حب تلك المرأة الغريبة الأطوار التي أطلق عليها اسم «سارة» بل إن القصيدة تذكرنا بموقف آخر في حياة العقاد العاطفية ، حين تمردت عليه فتاته الصغيرة السن والخبرة بالحياة حين انفتحت أمامها أبواب الاشتغال بالفن وعرفت الطريق إلى الشهرة ، فإذا به يفاجئها بثورته العارمة وغضبه المدمر وهي ثورة وغضب مصدرهما الغيرة وانعدام الثقة في النفس وفي الآخرين ، وإذا به يوحي لصديقه الرسام بأن يسجل هذه الفورة في لوحة يضعها في حجرة نومه ، لتذكره دومًا بخيانتها له ، وأن تجمع اللوحة بين الكعكة الجميلة التي تشتهيها النفوس والذباب الذي يتساقط عليها وتشمئز منه النفوس !

والقصيدة تحمل سمات شعر العقاد في أجمل تجلياتها ، عمق التجربة ونفاذها إلى القرار البعيد من الوجدان ، والصور الشعرية المتتابعة في سياق نفسي معبر بالإيحاء والظلال يبدأ من صورة الطفل الذليل وصورة الغاص بالماء ونقيع السم الأسود وسيطرة الليل البهيم والذكريات السوداء المكشرة عن أنيابها ، وزورق الأسنة التي هي حراب مسنونة تختفي تحت البشرة الناعمة الملساء ، والتردد الطويل بين الأمس واليوم ، بين القرار والعدول عن القرار ، واللغة في القصيدة صافية معبرة ، والصياغة مستقرة ومحكمة ، والإيقاع الشعري ينساب رهيفًا أول الأمر ثم إذا به يصبح موجة عارمة جياشة تساوق حركة النفس ، وتواكب منحنى الغضب والشك والغيرة والترفع والانكسار .

(١) فاروق شوشة / مجلة العربي الكويت ، مارس ١٩٩٥ / جمال العربية .

فإذا ما تســاءلنا : وهل هناك الكثير من مثل هذا المســتوى الشــعري في دواوين العقاد العشرة ؟

كـانـت الإجـابـة : أجـل ، هنـاك الكثير الـذي يمكن التقـاطـه من بين ثنـايـا الدواوين كحبات العقد ، تنتظمها هذه الدراســة التي تتناول غزليات العقاد ونفثاته الوجدانية التي اســتوحاها من وحي تجاربه العاطفية مع المرأة محبًا وعاشقًا، في كل أحواله المتقلبة بين حب وشك وغيرة وخصام وهجر وضنى وفراق ولقاء ، لتشـكل هذه النماذج من شـعره صـورة العقاد عاشـقًا ومحبًا ، فرحًا وحزينًا ، متنعمًا بالوصال ، ومعذبًا بالشك والهجران .

وهذه النماذج العاطفية والغزلية من شعر العقاد تعد مدخلا للولوج إلى أبعاد عالمه الشعري ، الثرى بتجربته الإنسانية، وبفيض وجدانه الذي هو خلاصة عقل عظيم وشعور عميق .

الفصل الخامس : غرام العقاد بين مي وسارة

تريدين أن أرضـــي بك اليوم للهوي

وأرتـاد فيـك اللـهو بـعـد التـعبـد

وألقاك جســمًا مســتباحًا وطـالما

لـقـيـتـك جم الـخـوف جم الـتـردد

رويــدك أنـــي لا أراك مــلــيــئــة

بلـذة جثمـان ولا طيـب مشـــهـد

إذا لم يكن بـد من الكـاس والطلي

ففي غير بيت كان بالأمس مســجدي

«العقاد»

أسرار جديدة عن سارة ومي:

يتناول الأديب اللبناني الناقد «جهاد فاضـل» قصـة حب العقاد لكل من مي زيادة وأليسـا داغر (سـارة) في مقال له تحت عنوان «لبنانيتان في حياة العقاد » يكشــف فيه اللثام عن بعض خفايا تلك العلاقة العاطفية بين العقاد و هاتين الملهمتين ، ويضـــيء لنـا جوانب مجهولـة في ســيرة الملهمتين اللبنـانيتين وجذورهما وتكوينهما ، ليستكمل لنا جوانب الصـورة التي أفصـح العقاد عن بعض جوانبها دون الآخر بصـورة غامضــة تفتقر إلى المباشـرة والصـراحة يقول جهاد فاضل:

«في حياة الكاتب المصــري الكبير عباس محمود العقاد ، بطل مسـلسـل «العملاق» الذي لا يزال الحديث عنه محتدمًا في صـحف القاهرة قصـتا حب بطلة كل منهما لبنانية ، البطلة الأولى هي الأديبة الكبيرة الآنســة مي ابنة صــحافي لبناني هاجر إلى مصــر كان يصــدر في القاهرة مجلة تدعى «المحروسة» هو إلياس زيادة ، والثانية سيدة من بلدة تنورين في شمال لبنان تدعى أليس ، والدها صحافي أيضًا عمل رئيسًا لتحرير جريدة «القاهرة» في الأربعينات والخمسـينات هو أسـعد مفلح داغر الذي كان له شـأنه في الحركة العربية والذي كان صـديقًا مقربًا من الملك فيصــل بن الحســين ملك العراق وفيما بعد من الملك فيصل بن عبد العزيز ملك العربية السعودية .

كانت القاهرة في النصف الأول من القرن العشرين عاصمة العرب الفكرية ، وقد شكلت بالنسبة للبنانيين مهجرًا فكريًا ساهموا فيه بصنع النهضة العربية المعاصرة ، ولو شئنا أن نتحدث عن أشخاصهم وعن المجالات التي عملوا فيها، وعن تأثيرهم في هذه المجالات لما بقى إلا جزء بسيط للحديث عن سواهم، ولشبه لنا للوهلة الأولى أنهم هو الذين صنعوا كل شيء ، فقد كان منهم المفكر والشاعر والكاتب والصحافي والثائر والفنان والطبيب والمحامي ورجل الأعمال والمؤثر في السلطة ، وكان هؤلاء يشكلون العقل المؤثر والفاعل والمنفتح على شتى التيارات القديمة والحديثة ، المنفتحة أبعد حدود الانفتاح ، أو المنغلقة أبعد حدود الانغلاق ، وساهمت هذه النخبة التي لم يفتح ملفها العطر بعد، كما يجب ، لا بصنع ثقافة مصر ، بل بصنع ثقافة العالم العربي بكامله ، إن لم نقل العالم الإسلامي أيضًا ، ذلك أن أشخاصًا مثل الشيخ رشيد رضا وسواه ، قد جاوز تأثيرهم العالم العربي إلى سواه من عوالم الشرق والغرب .

ومن هؤلاء الذين وفدوا إلى مصر في تلك المرحلة صحافيان مارونيان الأول إلياس زيادة الذي وصلها في عام ١٩٠٨ ، وأسعد مفلح داغر الذي جاءها في عام ١٩٢٠ من دمشق بعد أن سقطت سورية في أيدي الفرنسيين ، وفي القاهرة انضم أسعد داغر إلى رفاقه المجاهدين الذين سبقوه إليها بعد انهيار الحلم ببناء دولة قويمة عربية ، ثم أنشأ فيما بعد وبمعونة الأمير فيصل بن عبد العزيز ، قبل أن يصبح ملكًا ، وبمعونات عربية أخرى صحيفة عملت للقضية العربية في مصر هي صحيفة «القاهرة» التي عادت فاحتجبت بعد موت صاحبها .

كان عباس محمود العقاد في الفترة التي تعرف فيها إلى أليس محررًا بصحيفة «البلاغ» القاهرية ، وكان بالإضافة إلى ذلك وفديًا بالغ العنف في وفديته ، ومعاركه ضد القصر والإنجليز ، وكاتبًا رافقه العنف في كتاباته الأدبية والنقدية فحمل على شوقي والمدرسة القديمة ودعا إلى التجديد .

يصف العقاد كيف تعرف إلى أليس داغر فيقول أنه خرج ذات يوم من أيام الخريف يتمشى في حي مصر الجديدة حيث يسكن ، وخلال نزهته في ذلك الحي الجميل وجد نفسه على مقربة من مسكن صديقه الدكتور محمد صبري السربوني في أحد «البانسيونات» الذي كانت تديره خياطة إيطالية تعيش في الأراضي المصرية منذ زمن بعيد وتدعى مريانا . كان ذلك «البانسيون» يعرف يومها بفيلا منتروز ويقع على شارع الأهرام ، بجوار فرع بنك مصر في شارع النزهة اليوم .

في ذلك «البانسيون» يتعرف العقاد إلى أليس التي جاءت يومها تزور الخياطة مريانا ، ظنها آنسة عزباء أول الأمر لصغر سنها ، ولكن تبين أنها متزوجة وعندها بنت صغيرة ولكنها مطلقة ، وبدأ العقاد فورًا يلاطفها بأسلوب الرجل الخبير بمعاملة النساء حتى اضطرت أليس إلى القول ما هذه التحيات وما هذا الغزل ، أخشى بعد قليل أن تقول لي : «عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك » إلى آخر هذا الموال المحفوظ .. فيرد العقاد : ولماذا عما قريب ! الآن ، وتجيب : أنت عجول وجريء في آن واحد.

وهنا يقول العقاد «إن وعدتني أن اجني للصبر ثمرة فعندها أكون أصبر من أيوب » وبحركة سريعة لا تختلف عن حركة الشبان المراهقين يقبلها العقاد على مرأى من مريانا التي قبلها هي أيضًا .

ويجلس العقاد مأخوذًا قبل غيره بما حدث لأنه كان يتوقع أن تشتمه أليس أو تترك المكان غاضبة ، ولكنها قالت له بصوت خافت : لقد آذني شاربك الطويل .. وتبدأ عند ذلك القصة التي زلزلت فيما بعد حياة العقاد ..

ومن وصف العقاد لها في روايته «سارة » يبدو أن أليس كانت المرأة الأساسية في حياته فهو يقول : «لو عمدت إلى ترتيب ألف امرأة هي منهن لنظمتهن واحدة بعد واحدة في مراتب الجمال المألوف ، نحيت أليس عن الصف وحدها ، وأن كنت لا تنكر ، ولا تبالي أن تنكر أنها تأتي بعد مئات . لونها كلون الشهد المصفى ، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء في مسحة واحدة: عيناها نجلاون ، وطفاوان ، وأن تخيفان النزعات فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة .

وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد في تناسق وانتظام ، ولها ذقن كرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة في لحمة الناظر ، وبين وجهها وجسمها جيد كأنه الحلية الغنية سبكت لتنسجم بينهما وفاقًا من كليهما . فليس هو جيد كأي جيد ، ولكنه الجيد الذي يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام .

في أول لقاء مع العقاد روت له حياتها :

كانت أمي قاسية على وفي العشرين تزوجت من رجل في الخمسين فلم يكن زواجي ناجحًا ، لقد وجد أهلي أنه ثري فأرغموني على الزواج منه لثرائه ، ولكن هل الثراء كل شيء ، لو تزوجت رجلًا يملأ عيني ، ويحقق معنى الرجولة ، لكنت عشت سعيدة وقنعت بقسمتي ولكن حظي خاب في الزواج وهكذا وجدت قلبي فارغًا من كل شيء ولم أستطع صبرًا على الفراغ الذي أعيش فيه .

ويبدو أن العقاد قد ملأ هذا الفراغ إلى حين ، لتعود صاحبته تشكو منه ، أي من الفراغ من جديد ، يقول عامر العقاد ، ابن شقيق العقاد أن عمه كان قد خبر حياة أليس وعرف أسرارها التي أفضت بها إليه حين استراحت إلى حبه فأدرك أحاسيسها ما بدا منها وما استتر ، حتى ليكاد يعرف ما يختلج في نفسها دون أن يسمعه من لسانها ، لدرجة أنها كانت إذا لبست نوعًا من الملابس فقد كان يعرف لماذا تلبسه وفي أي وقت تراه صالحًا حتى أنواع العطور غدا يعرف أوقاتها وغاية كل صنف بالنسبة لها ، فقد كانت لأليس أساليب تتبعها في ملبسها وفي زينتها لا يشاركها فيها أحد .

وفي أحد الأيام رآها العقاد في عرض الطريق فلفت نظره تغيير في نظام ملبسها ، وتناثر في خصلات شعرها ، واستعمالها نوع من العطور لا تستخدمه لغير غرض ، فلم يستطع أن يعلل ما رأى .

ويهرع العقاد إلى حيث تسكن فيسمع ابنتها الصغيرة تنبس بكلمات مريبة فيدب الشك في نفسه وينصرف إلى منزله حزينًا كئيبًا وفي روايته «سارة» التي يؤرخ فيها هذه العلاقة فصول في وصف حالته هذه ، وحديث عن الشكوك المريرة التي انتابته والتي لا تغسل مرارتها كل أنهار الأرض وكل حلاوات الحياة :

«كانت كأنها جدران سجن مظلم ينطبق رويدًا رويدًا ولا يزال ينطبق وينطبق حتى لا منفس ولا مهرب ، وفرار كثيرًا ما ينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الهرة اللئيمة في مداعبة الفريسة قبل التهامها فينفرج وينفرج حتى يتسع اتساع الفضاء بين الأرض والسماء ، ثم ينطبق دفعة واحدة حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض مكان للتحول والانحراف : بطل المكان فلا مكان ولا أمل في المكان ، ووجب البقاء حيث أنت في ذلك الضيق والظلام فلا انتقال ولا رجاء في الانتقال » !

وفي الفترة المرحلة ينظم العقاد عدة قصائد تصور حالته هذه ومنها هذه الأبيات :

ظمآن ظمآن لا صوب الغمام ولا
عذب المدام ولا الأنداء ترويني

حيران حيران لا نجم السماء ولا
معالم الأرض في الغمام تهديني

شعري دموعي وما بالشعر من عوض
عن الدموع نفاها جفن محزون

يا سوء ما أبقت الدنيا لمغتبط
على المدامع أجفان المساكين

هم أطلقوا الحزن فارتاحت جوانحهم
وما استرحت بحزن في مدفون

يديك فامح ضنى يا موت في كبدي
ولست تمحوه إلا حين تمحوني

وفي فترة الشك تلك يطلب منه أحد أصدقائه أن يقنع بحصته في تلك المرأة أي أن يرضـــي بما تيســـر ، فلا يفكر بمصـــادرتها مصـــادرة كاملة وعندها يستريح مما عذبه عليه ، ولكن العقاد يرفض :

تـريـديـن أن أرضـــى بـك الـيـوم لـلـهـوي
وارتـــاد فـيـك الـلـهـو بـعـد الـتـعـبـد
وألـقـاك جســـمًـا مســتـبـاحًـا وطـالـمـا
لـقـيـتـك جـم الـخـوف جـم الـتـردد
رويـــدك أنــــي لا أرك مـــلـــيـــئـــة
بـلـذة جـثـمـان ولا طـيـب مشـــهـد
حـمـالـك ســم فـي الضـــلـوع وعـثـرة
تـرد مـهـاد الصـــفـو غـيـر مـمـهـد
إذا لـم يـكـن بـد مـن الـكـاس والـطـلـي
فـفـي غـيـر بـيـت كـان بـالأمـس مســجـدي

عرف عباس محمود العقاد بأنه عدو كبير من أعداء المرأة ، عدو للمرأة كما هتلر عدو لليهود ، وكما اليهود أعداء للعرب ، ويبدو أن عداوة العقاد للمرأة التي لا حلم فيها ولا مفاوضـــات ولا اعتراف نابعة من مثل هذه الحالة التي مر بها والتي من شـــمائل حواء أن تجعل أقوى الرجال يمر بها . هناك قطرة في النفس مطبوعة لا تملك حواء لها تبديلا .

يرى العقاد أن الرجل مخلوق مستقل وان المرأة مخلوق تابع والمرأة امرأة بكل عناصـــر تكوينها حتى الفكر وحتى الكلمة ، نطق الرجل هو غير نطق المرأة ، واختلاف الجســم لا يكفي وحده في التمييز بين المرأة والرجل ، وإن الفرق الحقيقي بين جنس الرجل وجنس المرأة يكمن في الاختلاف النفســـي والفكري ، ولا يتورع العقاد عن الوصـول في نظريته حول المرأة إلى إجراء النتائج ، بل إلى أخطرها فهو يرى «إن إكراه الأنثى على تلبية إرادة الذكر لا يضـــير النوع ولا يؤذي النســل الذي ينشـــأ من ذكر قادر على الإكراه وأنثى مزودة بفتنة الإغواء ، فهنا تتم للزوجين أحســن الصـفات مصـــالحة لإنجاب النســـل من قوة الأبوة وجمال الأمومة ، ويتم للنوع مقصــد الطبيعة من غلبة الأقوياء الأصحاء القادرين على ضمان نسلهم في ميدان التنافس والبقاء » .

واثناء حالة الشك التي هدت كيان العقاد يستنفر أصدقاؤه أنفسهم للبحث عن الأدلة والبينات في تصرف المحبوبة .

وبعد البحث والتدقيق يشاهد أحد أصحاب العقاد أليس تسير يومًا بميدان المحطة في القاهرة وهي تلتفت يمينًا وشمالاً ثم تلتقي بضابط كان يرتدي الملابس الرسمية ويقف أمام سيارة عند باب قطار كوبري الليمون وما أن دنت منه حتى حياها وركبا السيارة معًا وانطلقا عن طريق حدائق القبة ..

وتمشي سنوات قبل أن يستريح العقاد منها ..وعندما شبه له أنه قد استراح وجد نفسه في غير الراحة الحقيقة ، فهل هو في حالة «شفاء من ينظم هذه الأبيات في صديقته القديمة :

غفر الذنب من بكائي عليك

أنني لا أعود ما عشت أبكي

لا يساوي وقد تعلمت منك

نسل حوائكن دمعة شك

خير ما في النساء ساعة ضحك !

ولكنه بعد عشر سنوات يلتقي مرة بها . كان العقاد يلقي في الجامعة الأمريكية بالقاهرة محاضرة ، ومدير الجامعة إلى جواره ويناوله أوراق الأسئلة التي يكتبها الحاضرون بعد المحاضرة .

ويتناول العقاد ورقة غريبة ، نظر فيها فإذا الخط معروف عنده . أنه خط أليس . وقد ورد في الورقة «السؤال التالي :

«أنت وحشتنا » ولكن يطوي الورقة رويدًا رويدًا ، ويجيب على باقي الأسئلة...

في روايته «سارة » يعقد العقاد مقابلة بين مي زيادة وبين أليس داغر . فهو يرى أن مي وأليس على مثالين من الأنوثة متناقضين : كلتاهما أنثى حقًا لا تخرج عن نطاق جنسها ، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى أحداهما أن تحل محل الثانية ، وتوشك أن تزدريها .

فإذا كانت هذه قد خلقت وثنية في ساحة الطبيعة ، فمي قد خلقت راهبة في دير ، من غير حاجة إلى الدير .

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشيها بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجوهر .

الحزن الرفيع والألم العزيز شفاعة عند مي مقبولة إذا لم تكن هي وحدها الشفاعة المقبولة ، أما عند أليس فالشفاعة الأولى ، بل الشفاعة العليا هي النعيم والسرور ، تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم .

تلك تشكو ويخيل إليك أنها ذات أرب في بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوك ، وهذه تشكو كما يبكي الطفل لينال نصيبًا فوق نصيبه من الحلوى .

تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون ، وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضر الخجل والمسبة ، وتعرضها في معرض الزينة والمباهاة .

كلتاهما جميلة ، ولكن الجمال في مي كالحصن الذي يحيط به الخندق ، أما الجمال في أليس فالبستان الذي يحيط به جدول من الماء النمير ، هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور .

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة . وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف !

في مجلة «الرسالة » يقول أحمد حسن الزيات أن مي ألهمت العقاد وأوهمت الرافعي .. وبذلك يشير إلى أن مي كانت في حياة العقاد مادة إلهام ، بينما أساء الرافعي تفسير لطفها ومجاملاتها له في صالونها الشهير فأدخل كل ذلك خطأ في مادة الحب والغرام ..

ويبدو أن كل من شهد صالون مي الذي كان يعقد مساء كل ثلاثاء أحب مي من لطفي السيد إلى ولي الدين يكن إلى شبلي شميل إلى إسماعيل صبري إلى الشيخ مصطفى عبد الرزاق إلى أنطوان الجميل وسواهم ...

فالجميع كانوا يتشوقون إلى يوم الثلاثاء وتحوم أرواحهم حول منزل يقع في أحد مباني شارع مظلوم باشا في القاهرة كما تحوم الطير فوق مجاري المياه العذبة، وها هو إسماعيل صبري باشا يقول بلسانهم جميعًا :

روحي على بعض دور الحي هائمة

كظامئ الطير حواما على الماء

إن لم أمتع بمي ناظري غدا

أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

العقاد يزعم أنه نشأ بينه وبين مي بعض «الألفة» المختلفة عن الألفة التي كانت مي تعطيها للآخرين . طبعًا ظلت هذه «الألفة» نقية صافية لم تتدنس بعالم الكدر والطين ، ولكنها ألفة سكنا إليها فأينعت في نفسيهما شتى حالات الإلهام والغبطة الروحية ، والعقاد في بعض مقالاته التي نشرت في «الهلال» يتحدث عن «شعور التبتل العميق في سليقتها الدينية» .

تبادل العقاد ومي رسائل أدبية وشخصية بدون حصر ومن أطرف ما ورد في رسالة منه إلى مي رأيه في أدب جبران .

كـان جبران خليل جبران قد أصـــد عـام ١٩١٩ مجموعتـه الشـــعريـة «المواكب» فلم تنزل عند العقاد منزلة حســـنة «فهجاها » ، بينما كانت مي تميل إلي «الرأفة » بجبران لأسباب توضحت فيما بعد ، هي تلك الناشئة عن الرابطة الروحية التي كانت تجمع بينهما والتي كانت يومها غير معروفة . ففي رأي العقاد «أن جبران لو طرق باب الشـــعر المنثور لكان ذلك أفســـح مجالا لآرائه وأقرب إلى سليقته وقدرته اللغوية من معالجة الشعر الموزون ، وحبذا لو أقل من المعاني الرمزية فإنها بقية من بقايا إيهام الكهان الأقدمين فيما تصرم من العصور » .

وترسل إليه مي رسالة تقول فيها : « لقد لاحظت فسوتك على جبران خليل جبران وإن كنت أوافقك على بعض ما قلت ، وأعارضـك في بعض ما قلت ، ولا تتسع الرسالة لأن أقول لك ما أوافقك عليه ، وما أعارضك فيه وأترك ذلك لفرصة أخرى » ..

ويروي العقاد في «سـارة» أنه كان يتواعد مع مي فيذهبان إلى السـينما في مكان لا غبار عليه ويتحدثان بلســـان بطل الرواية وبطلتها ، ويســـهبان ما احتملت الكناية والإســهاب ، ثم يغيران سـياق الحديث في غير اقتضـاب ولا ابتسار ..

ويقول عامر العقاد أنه سأل عمه يومًا عن تلك التي كانا يزورانها لمشاهدة العرض فيها ولا سيما حين يصفها بأنها لا غبار عليها .. فيرد العقاد أنهما كانا يذهبان إلى دار توجد في حديقة أحدى الكنائس بحي الظاهر في القاهرة ، ففي ذهاب الآنســة مي إليها وقت الأصـيل قبل بداية العرض بمفردها وانتظارها العقاد بها أمر عادي لا يثير شــكا ممن يراها تقصـــده لا ســيما وأنها كانت نصرانية .

ترسم مي صورتها في رسالة بعثت بها من القاهرة إلى السيدة جوليا طعمة دمشقية في بيروت فتقول :

«صـحيح أن لم تهتد بعد على صـورتي فهاكها ، استحضـري فتاة سـمراء كاللبن أو كالتمر هندي ، كما يقول الشـــعراء ، أو كالمســـك كما يقول متيم العامرية ، وضـيفي إليها طابعًا سـديميًا ، وليسـمح لي البلاغيون بهذا التعبير المتناقض ، ومن وجد وشـوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي وعطش روحي لا يرتوي يرافق أولئك جميعًا استعداد كبير للطرب والسرور واستعدادا أكبر للشـجن والألم ، وهذا هو الغالب دومًا ، وأطلقي على هذا المجموع اسـم مي ترى من يساجلك الساعة قلمها» ..

وتضـــيف ايميه خير ، من اللبنانيات اللواتي عرفنها في القاهرة ، إلى هذه الصـورة ما يلي» ، كانت كل حاسـة من حواسـها، أو جارحة من جوارحها ، تنم عن الذكاء ، فعيناها اللامعتان وتعبيرها الحار ، ولطف أشـارتها وحسـن حديثها ، كل أولئك نم عن ذكائها كما ينم ريح المسك على المسك . تستطيع أن تؤثر فيك بكلامها ، وتنقلك إلى صـفها ولو كنت من الملحفين في الخصـومة المعنيين في المجادلة والمعارضـــة ، وكانت فيها على جانب عملها وفنها جوانب وحواشـي رقيقة من اللطف والدعة واللين والرقة ، فكانت تحترم أمها وأباها ، وتقف أمامهما كما يقف الطفل في حضرة والديه » .

ويعرض الدكتور منصـــور فهمي باشـــا في محاضـــراته عن مي في معهد الدراسات العليا التابع لجامعة الدول العربية صورة حسية دقيقة لمي :

«فتاة ربعة بضـة ، وجهها الصبوح أقرب إلى الاستدارة وتقاسيمها مليحة مشـــرقة وعيناها دعجوان واسـعتان وسـبلاوان يشـع فيهما بريق الذكاء ، ويعلوها حاجبان يمتد كلاهما عريضًـــا أســـود من أول العين إلى آخرها في تقوس منســـجم دون أن يقتربا أو يتقاربا من أعلى أنف أزلف جميل ، وفمها يزدان بشـفتين رقيقتين قرمزيتين لا يمتدان في خديها الريانين إلا بما يتجاوز قليلا نهاية الأنف وهي ذات جيد ملئ لا يعجبه قصـــر ، وقد يزينه عقد قاني الحمرة أن لبسـت ثيابًا قاتمة اللون ، وأسـنانها بيضـاء فيها فلج وفي الغالب لا تفارق الابتســـامة محياها وشـــعرها أســـود فاحم لامع ، وقد تقترن أحاديثها بحركات ناعمة متواصلة عند رأسها وجيدها فتبدو هذه الحركات الخفيفة كأنها نبرات من الضحك الهادئ ينسجم مع البسمات المتواصلة الرشيقة ، تزيدها ظرفا وتكسبها سحرًا » .

ويصف سليم سركيس صالون مي في القاهرة سنة ١٩١٤ : « مساء كل ثلاثاء يتحول منزل إلياس أفندي زيادة صـــاحب جريدة «المحروســـة» إلى منزل فخم في باريس ، وتتحول مي التي لا تزال في أواخر العقد الثاني من عمرها إلى مدام دي ســـتايل ومادم ريكاميه وولادة بنت المســـتكفي وورده اليازجية في شخص ومدارك الآنسة مي ويتحول مجلسها على فرع من سوق عكاظ والأكاديمية ، وتروج المباحث العلمية والفلســفية والأدبية في مجلس يحضره إسماعيل صبري ولطفي السيد وشبلي شميل وخليل مطران وأحمد زكي باشـا ، هؤلاء جميعًا يهزون بأحاديثهم ومناقشـاتهم أغصـان شـجرة ذات ثمر ويحركون وردة ذات أريج ، والآنسة مي من بينهم تناقش هذا وتدفع حجة ذاك ..

هذه الأديبة الكبيرة أصـــيبت في ســـنواتها الأخيرة بمحنة رهيبة ليس الآن موضـع بحثها ، وينقل العقاد الذي ظل وفيًا لذكراها دومًا صـورة عن وضـعها قبل موتها بقليل ، فيقول :

«زرت الآنسة مي ورأيتها ترتجف وهي تفتح الباب ، وتشير إلى المسكن الذي أمامها وتضـع أصبعها على فمها تحذرني من الظلام ، وتقول : ألا ترى هذه الحجرات وما فيها من نور ؟ أنها خالية وخاوية فلماذا ينيرونها في هذه الساعة ؟ فاتجهت إلى تلك الحجرات ، يقول العقاد ، وسألت عاملاً وجدته عند بابها ، فعلمت منه أنهم يعدونها للتسليم في اليوم التالي وهو أول الشـهر وأول تاريخ الإيجار ، فلما أنبأتها بما علمت بدا عليها الخوف وخطر لها أنني أخفي عنها المؤامرة أو أشترك مع المتآمرين » ..

وتنتهي محنة مي بموتها وهي في الخامسة والخمسين من عمرها وفي يوم جنازتها يلتقي هناك الشـيخ مصـطفى عبد الرازق ، شـيخ الجامع الأزهر فيما بعد ، وكان ينتحب كالأطفال ، وعندما كان جثمان مي يودع في التراب ، قال العقاد مشيرًا نحوه : « كل هذا في التراب ؟ آه من هذا التراب » !

وفي يوم تأبينها في دار الاتحاد النســائي بالقاهرة يقف العقاد ليقول في تلك الرفيقة الخالدة :

تــلــكـم الـطـلــعــة مــازلــت أراهــا

غضـــــة تــنشـــــر ألــوان حــلاهــا

بــيــن آراء أضــــاءت فــي ســـــنــاهــا

وفــروع تــتـــهــادى فـــي دجــاهــا

ثم شـــــاب الفرع والأصـــــل وغـاب !

الفصل السادس : بين أليسا وسارة - أليسا الأديبة والمترجمة

سارة الأديبة:

وإذا كان الأديب والصحفي جهاد فاضل قد خمن أن أليسا هي ابنة الصحفي اللبناني «أسـعد مفلح داغر» رئيس تحرير مجلة «القاهرة» في الأربعينيات والخمسينيات إلا أن الأديب الباحث أحمد حسين الطماوي يكشف الستار عن شـخصـية «أليسـا داغر» الحقيقية فنعرف أنها كانت كاتبة ومترجمة وابنة صـحفية كبيرة من رائدات الحركة النسـائية العربية في القاهرة وأن اسـمها الحقيقي هو أليسا عبده هاشم ولكنها بعد أن تزوجت أسعد داغر أصبح اسمها «أليسـا داغر» على عادة الأوربيين ، وذلك كله في بحث له بعنوان «سـارة العقاد بين الحقيقة والخيال» .

حيث يتساءل عمن تكون سارة؟

تلك الرواية التي كتبها العقاد ونشـرها عام ١٩٣٨م . وشـغلت النقاد فترة طويلة من الزمن ، هل هي شخصية متخيلة؟ هل هي شخصية حقيقية. الواقع أنها شخصية حقيقية تعرف عليها العقاد واسمها أليس داغر ، وكانت مترجمة وصحفية وكاتبة ، وكانت أمها صحفية وكاتبة وشاعرة وكان زوجها صحفيًا وكاتبًا ، وكان صاحبها العقاد كاتبًا موسوعيًا ، وهو ما لم يعرف عنها من قبل وقد أوحت إلى العقاد بطائفة من الشعر وبرواية «سارة».

واللافت للنظر أن العقاد كتب روايته «سارة» بعد أكثر من عشر سنوات ، من نهاية الأحداث ، ومع ذلك فقد كان متقدًا مشـتعلاً ، متوهج الروح ، وكأن الحوادث ما زالت تجري ، أو كأنه يشيع الحب وهو في ملابس الحداد [١].

وشـخوص رواية سـارة حقيقيون ، فسـارة هي أليس داغر ، وهمام هو العقاد ، وأمين الذي كان يراقب سـارة هو الشـاعر الباحث طاهر الجبلاوي والأستاذ زاهر هو د. صـبري السـربوني ، والعشـير القديم الذي لم يذكر اسـمه في الرواية هو الشـاعر عبد الرحمن صـدقي ، لذلك لم يكن العقاد في حاجة إلى التخيل ويكفيه من الخيال ما يجلي الصور .

ولسـنا في حاجة إلى ذكر حوادث الرواية لكثرة طبعاتها ولكثرة ما كتب عنها بأقلام كبار الكتاب مثل ما كتب عنها بأقلام كبار الكتاب مثل عبد القادر حمزة والزيات وعلي الراعي وعبد الرحمن صـدقي وعبد الحميد جودة السحار وغيرهم.. وغيرهم، وإذا كان لابد من تلخيص سريع فإن همامًا بطل الرواية ذهب في يوم من أيام الخريف لزيارة الأسـتاذ زاهر (السـربوني) فلم يجده وإنما وجد صـاحبة البنسـيون التي يسـكن عندها زاهر (السـربوني) وبجواره سيدة ، هي سـارة وتم التعارف بينهما ، وتتابعت اللقاءات ، ونشـأت قصـة حب بينهما ، إلى أن بدر منها ومن ابنها ما يدعو إلى الشـك والريبة فقاطعها العقاد ، ودفع بأمين (الجبلاوي) لمراقبتها إلى أن تبين غدرها وخيانتها .

(١) الهلال: يناير٢٠٠٤ ، أحمد حسين الطماوي: سارة العقاد.

وكان الدكتور السربوني قد عاد من باريس عام ١٩٢٤، بعد حصوله على الدكتوراه وكان يقيم في منزل يحمل رقم (٢١) بشارع الأهرام بجوار كازينو «بالميرا» بمصر الجديدة .

وما زال البيت قائمًا وإن جرت تعديلات في طابقه الأرضي، وعلى هذا فتاريخ بدء العلاقة بين العقاد وصاحبته هو ١٩٢٤، لأنه يقترن بعودة السربوني من فرنسا ويساير ما قاله الجبلاوي والزيات وغيرهما من أن عمر العقاد كان خمسة وثلاثين عامًا عندما أحب سارة والمعروف أن العقاد ولد عام ١٨٨٩، وقد امتدت علاقة العقاد بسارة إلى مطالع عام ١٩٢٦، فبعد القطيعة سافر العقاد إلى الإسكندرية ليسلو ، ويغرق أحزانه في أمواج البحر ومن هناك بعث برسالة إلى عبد الرحمن صدقي مؤرخة في ١٩٢٦/٤/١٢م . نشرها محمد محمود حمدان في كتابه «من رسائل العقاد» يشرح فيها حالته النفسية على أثر القطيعة ، ولم يعد الصفاء مرة أخرى بين الحبيبين ، أما سارة فقد عاشت في مصر فترة ، وظل العقاد على علاقة بسارة ، حتى خلال الحرب العالمية الثانية وكانت دائمة الاتصال به هاتفيًا حتى هاجرت نهائيًا إلى باريس عام ١٩٥٠م.

وكانت لها بنت تزوجت فيما بعد من رجل من رجال التجارة في فرنسا، ولحقت بها سارة عندما مات ذلك الرجل عام ١٩٥٠، وورثت عنه الفتاة وأمها ثروة طائلة ولا تزالان تعيشان في باريس .

من هي ؟

دون العقاد في مقدمة الطبعة الثانية من رواية سارة الصادرة عام ١٩٤٣، أن اسمها الحقيقي «أليس» دون أن يفصح عن بقية اسمها فظلت شخصية روائية غامضة إلى أن نشر عامر العقاد صورتها مع العقاد في مجلة «المصور» بتاريخ ١٩٦٩/٣/٢١م ، وقال إن اسمها الحقيقي «أليس» وأنها تنحدر من أسرة تعمل في الصحافة نعني بها أسرة الصحفي الكبير أسعد داغر الذي توفي عام ١٩٥٨، وهو كلام فيه التباس وخطأ إذ أن أليس ليست منحدرة من أسرة أسعد داغر وإنما ملحقة عليها ، فقد كانت زوجته ، وحملت اسمه فصارت تعرف باسم أليس داغر ، وأسعد داغر هذا الذي نعنيه غير أسعد خليل داغر الذي كان يحرر في المقطم والمقتطف والمتوفى عام ١٩٣٥.

ويقول يوسف أسعد داغر في كتابه «مصادر الدراسة الأدبية ج٣ قسم ٢، ص١٣٦٥-١٣٦٧ عن لبيبة هاشم : «بعد معركة ميسلون ١٩٢٠ سافرت (أي لبيبة) إلى الأرجنتين (الصحيح شيلي) فأصدرت في سنتياجو بتاريخ ١٥ أيلول ١٩٢٣ مجلتها الشرق والغرب الأسبوعية فعاشت سنة ، وتولت كريمتها أليس أسعد داغر شئون مجلة «فتاة الشرق» في غيابها.

وهذا الكلام مهم جدًا ومفيد لأنه يبين أن أليس بنت لبيبة هاشـم، ويوضـح انتساب اسمها إلى أسعد داغر ، ومن جهة ثالثة يعرب عن اشتغالها بالصحافة. ويوسف أسعد داغر الذي أشرنا ليس ابن اسعد وإنما من الأسرة الداغرية الكبيرة، إذن أليس هي بنت لبيبة هاشـم أو لبيبة ماضـي القاصـة الطليعية ، الشاعرة ، الكاتبة المسرحية ، والرائدة في مجال الصحافة النسائية ، وصاحبة مجلـة «فتـاة الشـرق» التي أصـدرتها في الفترة من ١٩٠٦ إلى ١٩٣٩ والمحاضرة في الجامعة المصرية ، هذا علاوة على أن لها فكرًا تربويًا قوامه أن تتعلم المرأة وتتقن فن التربية ولا تلتحق بالعمل إلا إذا كانت في حاجة إليه فالمرأة بالنسـبة لها مربية أجيال وفاضـلة، وكانت تقول لا نريد من المرأة أن تكون فيلسـوفة وهذا يعني أنها امرأة محافظة ، ولكن يبدو أنها لم تفلح في تطبيق نظريتها على ابنتها، فكانتا متناقضتين .

تزوجت لبيبة ماضـي من عبده هاشـم (١٨٧٠-١٩١٦) في مطالع عام ١٨٩٧ وانتسبت إليه وعرفت باسم لبيبة هاشم وأنجبت اثنين وهذا يؤخذ من خطاب تعزية بعثت به «مي» إليها عندما مات زوجها حيث قالت : «ولئن أوجعك بكاء ولديك فأنت الأم الراقية تكونين لهما خير أب» (سركيس مارس ١٩١٦) وإذا كنا نجهل ترتيب المولدين فإن عام ١٨٩٩ مناسب جدًا لأن يكون تاريخ ميلاد أليس عبده هاشـم ، ولا ننسـى أن العقاد قدر عمرها في بداية التعارف بخمسة وعشرين عامًا .

وتزوجت أليس وهي في سـن العشـرين عام ١٩١٩ من أسـعد داغر (١٨٨٦-١٩٥٨) وهو صـحفي كان يكتب في الأهرام ، وله مقالات كثيرة عليها مسحة علمية نشرها عام ١٩١٦ في فتاة الشرق ويبدو أن تردده الكثير على «فتاة الشـرق» قرب بينه وبين لبيبة فزوجته بنتها أليس ، ولأسـعد داغر نشاط صحفي آخر فقد اصدر عام ١٩٢٧ بالاشتراك مع توفيق اليازجي مجلة «مصـر الحديثة المصـورة» وهي مجلة راقية كانت تعنى بشـئون الأدب والمسرح وتعرض للمشاكل الاجتماعية ، والموضوعات السياسية وكان من كتابها خليل مطران وأنطون الجميل وأحمد زكي باشـا وغيرهم من كبار الكتاب وفي ١٩٥٣/١/١٢، تولى إدارة جريدة «القاهرة» وكانت وجهتها قومية عربية ، وكان مستشارًا في الجامعة العربية.

أليس الكاتبة الصحفية:

نشأت أليس في أسرة صحفية أدبية علمية ن ففضلاً عما ذكرناه عن أمها وزوجها كان جدها ناصيف ماضي عالمًا في الرياضيات وله فيها ثلاثة كتب غير مؤلفاته في مسك الدفاتر والفلسفة الطبيعية والمنطق (فتاة الشرق يوليه ١٩١٨) وكان خالها نجيب ماضي صحفيًا أديبًا حرر في «فتاة الشرق» كثيرًا . ودعته حكومة فلسطين ليشغل منصب وكيل حاكم الناصرة ثم عينته حاكمًا لمنطقة «بيسان» وتوفي عام ١٩٢٦٣ (فتاة الشرق نوفمبر ١٩٢٣) ، فلا جرم أن سايرت أليس هذه الأجواء .

وقد رجعنا إلى «فتاة الشرق» في العام (١٩٢٠-١٩٢١) فألفينا قصصًا ملخصة عن الفرنسية ومقالات اجتماعية ممهورة بتوقيع «أليس داغر» ومنها مقال «السعادة البيتية وواجب الزوجة» تنتقد فيه بشدة المرأة النائحة والمرأة القوية المستبدة ، والمرأة المتكبرة التي تحاول أن تحجب زوجها في المجتمع والمرأة الثرثارة والمرأة المبذرة والمرأة العنيدة والمرأة المتقلبة والمرأة المعجبة بجمالها التي ترغب في أن تكون موضع إعجاب الناس بها دائسة بذلك على عواطف مزوجها وشرف مقامها ، فهذه المرأة تعرض ذاتها للاحتقار أما السيدة الفاضلة لا تتوخى إعجاب الناس بها بل تتحاشى لفت الأنظار إليها بما يثقل حمله عليها وعلى زوجها» .

والمرأة الفاضلة عندها هي التي تدير شئون منزلها فإذا عاد زوجها إليه بعد عناء الأشغال قابلته بابتسامة ملكية وفتحت له كنوز قلبها .. وأسعد ساعة في حياة هذه الزوجة هي الساعة التي يعود فيها زوجها من العمل وتستعد له وتصلح هندامها وتتناسى أتعابها ولا تفكر إلا فيما يجلبه لها من السعادة وتكون في كلامها بعيدة عن الكذب لا تخجل من عمل تأتيه لأنها لا تعمل ما يخجلها . وتنتصح بنصائح زوجها وتحترم مبادئه .. وهذه هي الزوجة الكاملة التي تصلح لأن تكون ربة للبيت الشرقي فتملؤها غبطة وسعادة .

وهذا الكلام العذب يمثل رؤية جميلة من المرأة ، ومتى كانت الزوجة كذلك شع نورها على البيت والزوج لأنه يدل عل عقل وافر وسريرة طيبة وجميل أن ينطلق من بين النساء صوت يستقصي عيوب النساء ، ويطامن من خيلائهن وينتقد رعونتهن ويردهن إلى الصواب فهي تقاوم نزوات المرأة وتعيب عليها شغفها بالإثارة مما يعرض شرفها وشرف زوجها للانتقاص . ولكن خواطر أليس تدعو إلى التأمل وتثير الشجن لا لخطأ فيها ولكن لأن الكلام الصادق لا يتنافى مع السلوك في الواقع .

ولها مقالة عن «المرأة الراقية في العالم» توازن فيها بين المرأة الأمريكية والمرأة الإنجليزية والمرأة الفرنسية والمرأة الألمانية وغيرهن من نسوة أوروبا وتذكر الفروق بينهن من نواح عديدة مثل الجمال والعلم وإدارة شئون البيت : وتظهر المقالة سعة اطلاعها وتوجهات ذهنها وبخاصة نحو الجمال ومن مقالاتها المفيدة مقالة «واجب المرأة العصرية يجب أن تحيط بالنهضة العلمية وتتابع شئون المجتمع والسياسة وأحداث الكون وترى أن هذا مفيد في تربية الطفل وتغذية عقله ، وتوصي المرأة الشرقية بتعليم تاريخ بلادها لأنها ينمي روح الوطنية في النفوس وتشير إلى أهمية الجغرافيا لأنها تزيد التاريخ وضوحًا هذا إلى جانب الإلمام بمبادئ العلوم الطبيعية لكي تجيب على أسئلة أطفالها . وعندها أن الفلسفة والأخلاق تعدان الأطفال ليكونوا نافعين في المجتمع ، وتبين أن هذه العلوم مفيدة للمرأة لأنها تجعلها محدثة لبقة في مجالسها وفي مقالة لها عن «السعادة وما يحول دونها» توضح أن السعادة في البساطة والعيش في جو نقي ملؤه الحقيقة .

وهذه المقالات التي كتبتها «أليس» تساير اتجاه مجلة «فتاة الشرق» وتتناسب مع أفكار أمها لبيبة فقد كانت لبيبة تلح على ضرورة تعليم المرأة وتربيتها لتعدد الأجيال الفاضلة ومن ناحية ثانية كانت ترتكز على ترسيخ السعادة في البيت وذلك عن طريق تعزيز المحبة بين الزوجين وتحميل المرأة مسئولية ذلك .

وللسيدة أليس قصص ملخصة من الفرنسية مثل «الماضي لا يموت» و«الخنجر الحي» وقصة بدون عنوان منشورة تحت عنوان «فكاهات » وهناك قصة علمية فلكية أوردتها تحت عنوان «في الفضاء الواسع» تزعم أنها من قلمها وأعتقد أنها ملخصة وقد توقفت مقالاتها الاجتماعية وملخصاتها القصصية بعد عدد يوليه ١٩٢١، ويبدو أنها كانت تنشر ملخصات قصصية بدون توقيع ، ذلك أن القصص الملخصة تواصلت في المجلة بنفس الأسلوب وثمة ملاحظة أخرى وهي أن أسعد داغر لم يعد ينشر في «فتاة الشرق» منذ أواخر سنة ١٩٢٠، والظاهر أنه وقع خلاف بينه وبين أليس ويلوح لنا أن هذا الشقاق استمر لأن العقاد يقول في روايته «وليس لسارة زوج» والمقصود من هذه العبارة أنها لا تقيم مع زوجها .

بين أليس وسارة:

إن الموازنة بين أليس وسارة بالغة الصعوبة لأننا لا نعرف من أمر أليس ما نعرفه من أمر سارة ، فبالرغم مما اهتدينا إليه ما زالت أليس غامضة والنظرة العاجلة أو المتأنية إلى أليس وإلى سارة تظهر فارقًا كبيرًا بينهما مع أنهما شخصية واحدة وليس من أدواتي في الموازنة غير ما كتبته أليس وما دونه العقاد عن سارة .

تقول أليس في مجال الزينة وإسعاد الزوج على المرأة «أن تعرف ما يتطلب الزوج منها» وحين يعود يجب أن «تستعد له وتصلح هندامها» أما سارة فتقول لهمام «أو تحسب أن المرأة لا تتزين إلا لزوج أو حبيب؟ إنها لتتزين لنفسها وإنها لتتزين للرجل الذي في عالم الخيال» وتهكمت وهي تسأله «أأرضى زوجًا؟» فأليس تسعى إلى إرضاء الزوج وسارة تسعى إلى إرضاء نفسها لا إرضاء زوجها وهذا التباين مرده إلى أن أليس تقول ما يجب أن يقال في مجلة يقرؤها الجمهور ولا تستطيع أن تشطح أو تحيد عن الصحيح فإنها تفعل ما تريد وتساير أهواءها ونزعاتها .

وإذا كانت أليس تبدو من مقالاتها أنها محبة لزوجها فإن سارة على عكس ذلك. تقول حسب رواية الجبلاوي التي مصدرها العقاد «الحقيقة إنني مظلومة في حياتي وخصوصًا في الزواج لقد جني على أهلي فقدت رحمة الأم وأنا صغيرة ولم أجد أهلي وأنا كبيرة كنت بنتًا بريئة فلما كبرت كانت نفسي متفتحة للحياة وأفكر في مستقبل سعيد لكن خاب أملي.. تزوجت في العشرين من رجل في الخمسين فلم أسترح في زواجي وكان أهلي يلحون علي في الزواج منه لثرائه ، ولكن هل الثراء كل شيء لو تزوجت رجلاً يملأ عيني ويحقق معنى الرجولة كنت عشت سعيدة.. ولكن حظي خاب في الزواج ووجدت قلبي فارغًا من كل شيء ولم استطع صبرًا على الفراغ الذي أعيش فيه، وقد قال العقاد مثل هذا الكلام في فصل «كيف عرفها؟» وآثرنا رواية الجبلاوي التي أوردها في كتابه «في صحبة العقاد» لأن فيها زيادة وتفصيل وأليس في كتاباتها تدعو إلى بساطة المظهر لتحقق السعادة وتتساءل قائلة «ما هذه التغيرات المدهشة التي نراها يوميًا في الأزياء؟» أما سارة كما يقول العقاد «تقرأ أوروبا كما تعبد أزياءها»[1] .

(١) المرجع السابق.

أليس صحفية وكاتبة ومترجمة أما سارة فـ«قارئة صحفية» تقرأ لهمام «أسفار النوابغ من أساطين الأقدمين وفحول المحدثين الغربيين» . وتقرأ الشعر والنثر وتنتقد الصور المتحركة ، وقد يكون لإغفال العقاد كتاباتها مبرر وهو محاولة إخفاء معالمها الخارجية حتى لا يحدد القارئ شخصيتها .

وعلى هذا النحو تجد فوارق بين أليس وسارة أو بين المثال والواقع .

الرواية

ورواية سارة وإن كانت حقيقية وجميع أبطالها من الأدباء والكتاب فإنها رواية نفسية تتناول الشك والتخمين والحيرة والغيرة والوهم والحقيقة والرياء والصفاء والكدر والتذكر والسلو وغير ذلك من أحوال النفس وإذا كانت رواياتنا تتراوح بين الرومانسية والواقعية فإن رواية سارة النفسية تدخل إلى نادي القصص أو معرض الروايات وتحتل الركن النفسي .

ويكاد يكون الشك هو بطل الرواية فلم يكن في مقدور العقاد طرح الوساوس والظنون من نفسه ثم يتأسى ويخلد للراحة . وقد استغرق الشك وما نجم عنه من اضطراب وألم ورقابة صفحات كثيرة ولولا هذا الشك ربما لم تكن هناك رواية سارة كذلك فإن هذا الشك أنتج أدبًا ونثرًا في الرواية وأدبًا شعريًا نستطيع أن نطالعه في ديوان «أشجان الليل» للعقاد وبخاصة قصائد ، «يوم الظنون»، «الشك» ، «الحب المريب» ، «اليقين» وغيرها .

ولعل الفصل الذي كتبه العقاد تحت عنوان «لماذا هام بها» هو من أعمق فصول الرواية النفسية فهو يرى أن الرجل ليسره أن يستكشف المرأة ويسره أن يراقب المرأة وهي تستكشفه...» ، وتمضي مع هذا الفصل التحليلي لا لتعرف أسباب الهيام فحسب وإنما لتتعرف على عقل العقاد الوثاب الناهض وهو يتعالى وبتسامح ليصل إلى الحكمة الكلية .

***

وبالرغم من أن رواية سارة غنائية ذاتية فإنها رواية فنية ، فكاتبها لم يسرد أحداثها وفقًا للتعاقب الزمني ، وإنما فكره يتأرجح بين الوصل والفصل حسبما يثبت له من براءتها أو إدانتها وهي فترة يمكن أن تكون فاصلة بين ما كان وما سيكون . ويصح أن هذه البداية مناسبة لمقتضيات الفن ويقول عبد الرحمن صدقي عن هذه البداية إنها تأتي «في مقدمة الوسائل الفنية التي تضفي على الواقع صفة الفن» .

إن هذه البداية جاذبة لموضوع الرواية ومشوقة إلى معرفة ما سينتهي عليه الأمر ويقول العقاد : «ترتيب الحوادث أن تنتهي ثم نكر راجعين للسؤال عن بداياتها وسبيل التاريخ أن تنطوي السير وتنصرم الدول ثم نقتفي مناشئها» ولا أذهب إلى أن هذه الطريقة هي الطريقة المثلى في القص وإنما لكل قصة طريقة تناسبها.

ولأن الرواية لا تشتمل على شخصيات عديدة فقد عني العقاد بوصف جوانب كثيرة في شخصيتي سارة وهمام فقد أبرز في همام شدة عشقه وعلو فكره ويقظته وأظهر في سارة أوصافها الخارجية وتسلل إلى باطنها واستظهره ومع أن معظم الكلام دار حول سارة فإننا نشعر أن همام هو المسيطر وعلى أجواء الرواية لأنه يتفلسف ويتتبع ويعرف أين يقف ومتى وفي أي طريق يسير .

يتحدث صديق العقاد الحميم الشاعر الأديب عبد الرحمن صدقي (١٨٩٧-١٩٧٣) عن قصة «سارة» والجوانب المجهولة وراء هذه القصة ... وكيف نشأت فكرتها ، وما هي مكانتها في «فن القصة» ، فيقول :

«الحب كان ولا يزال ، في طويل الأزمان وعلى تعاقب الأجيال ، موضوع القصة الرئيسي في معظم الأحوال، سواء أكانت القصة حقيقية أم من نسج الخيال.

ومع ذلك، فإن القارئين لأدب العقاد، ما كادت تطلع عليهم سارة في قصتها المقتضبة التي نشرها صاحبها سنة ١٩٣٨، على نفقته أول ما نشرها ، حتى اشتد الجدال في صحة نسبتها إلى فن القصة ، ثم كثر سؤال المؤلف لم كتبت سارة ، ولم كتبتها على هذه الطريقة؟ ولم اخترت لها هذا الاسم بالذات ؟ وهي هل واقعية أو خيالية.

فكان من شأن هذه الأسئلة أن حركت عند أستاذنا الشبهة في حسن نية بعض السائلين .

فكتب عند صدور الطبعة الثانية بعد خمس سنوات مقدمة لها – لم يتكرر بعد ذلك نشرها – بعنوان «قصص عن قصة – متحديًا الخصوم على طريقته:

يقول العقاد «نويت أن أكتب قصة «سارة» لأنها تجربة نفسية لابد أن تكتب في يوم من الأيام ، وإن كنت قبل كتابتها قد أرجأتها من حين إلى حين، متخيرًا للوقت، ملاحظًا ما تقضيه دواعي التفصيل والإجمال» .

أما تحقيق تلك «النية» التي كانت في ضمير أستاذنا العقاد – وما أكثر أمثالها في ضمائرنا نحن الكتاب – فكان على يد «دار الهلال» التي تنسمت خبرها ، فلم تضيع الوقت في انتظارها ، بل أمسكت بزمام المبادرة كما تفعل دور النشر في البلاد المتحضرة، فاتصل بالأستاذ العقاد على الفور رئيس تحرير مجلة «الدنيا» الأسبوعية المرحوم طاهر الطناحي، واقترح عليه أن يكتب لمجلة الدنيا سلسلة مقالات بعنوان «مواقف في الحب» . وفعلاً بدأت السلسلة في أواخر سنة ١٩٣٥ بظهور الفصل الأول والثاني ، وظهر الفصل الثالث في أول سنة ١٩٣٦، وانقطعت بعد ذلك السلسلة ، ويقول العقاد في تعليل انقطاعها : «ثم عاقني من مواصلة الكتابة عائق عارض، فأمسكت إلى أجل ، ثم فرغت لإتمامها بعد برهة ، فأتممتها على الصورة التي ظهرت بها رواية تحليلية أو تحليلاً روائيًا كما يشاء من يشاء .

كان العقاد حين عرفته – قبل العشرينيات – لا يخلو جيب سترته من قصة يقرؤها بالإنجليزية لبعض مشاهير الروائيين ، في المقهى أحيانًا ، وفي الترام دائمًا، وإذا كانت قد أخذت بمجامع قلبه واستغرقت حسه واستولت على عقله فإنه ينكب عليها بعض الوقت في مكتبه ويخلو بها قبل النوم هنيهة في فراشه.

بيد أن هذا الاهتمام كله بقراءة القصص العالمية ، لم يمنع العقاد من أن يقول في صراحة : «نحن نقرأ القصص التي تجود بها قرائح العباقرة من أمثال ديكنز ، وتولستوي ، ودستيفسكي ، وبورجيه ، وبروست ، وبيراندولو فنؤمن بتلك العبقريات التي لا تجاري في هذا المضمار ، ولكن إيماننا بها لا يلزمنا أن نضع القصة في الذورة العليا من أبواب الآداب ، ولا يمنعنا من أن نقدم عليها غيرها في التقدير والتمييز» .

وهو يرى أنه ليس من البر بجماهير الشعب ولا من المصلحة العامة تعويدهم على قراءة القصص وحدها كأنهم لا يرتقون إلى ما فوق الحكايات ، بل الواجب تشجيعهم على التطلع إلى مطالعات غير قصصية أيضًا، توفيرًا لمعارفهم واستكمالاً للجوانب الأخرى من ثقافتهم .

والعقاد يقول فيما يتعلق به : «إني لا أقرأ قصة حيث يسعني أن أقرأ كتابًا أو ديوان شعر» .

وهذا يعود بنا إلى سؤال سائليه :

لماذا – إذن – كتبت «سارة» ؟.

هل كتبها كما زعم البعض ، ليجرب قلمه في القصة؟

يقول العقاد ردًا على هذا الزعم من مزاعم الزاعمين :

«هو سبب قد يصح ، أو يكون له نصيب من الصحة ، لو أنني أعتقد أن القصة ضريبة على كل كاتب ، أو أعتقد أن القصة أشرف أبواب الكتابة في الفنون الأدبية ، أو أعتقد شيئًا في ذلك ، فإن القصة عندي لا تعدو أن تكون بابًا من أبواب الكتابة الأدبية ليست بأشرفها ولا بأوجبها على الكاتب . إنها إن أحسن مؤلفها فهي حسنة، وإن أساء وأسف ، فهي من أسوأ المكتوبات وأدناها إلى الضعة».

وقد خطر للكثير من القراء – بل القارئات على الأصح – التوجه إلى العقاد بهذا السؤال : لم كانت فتاة القصة أجنبية أو إسرائيلية ، ولم تكن مصرية؟

ونسوق فيما يلي جواب العقاد على لسانه :

أما فتاة القصة ، فلم تكن أجنبية ولا إسرائيلية وإنما كانت اسم «سارة» على عمومه بين الأديان بمثابة الترجمة لاسمها ، كما كانت أسماء شخوص القصة الآخرين ، ونعني بالترجمة هنا المشابهة بالدلالة أو بالوزن أو باقتران الأسماء على الألسن وفي «الأسماع» .

وقد ذكر أن اسم سارة الحقيقي هو «أليس» ولكننا نعتقد وقوع بعض التحريف هنا، والصحيح أن اسمها كما نذكر من كتابتها له بالإفرنجية هو «السا **Elsa**» كما جاء في جواب العقاد نفسه وهي غير يهودية .

الاختيار بين النور والنار:

هذا كيان إنســـان بأســـره يهتز للحب ولا نعني بالحب ما يقع كل يوم من استحسان رجل لامرأة ، مهما يبلغ هذا الاستحسان حد التولع والكلف، ومهما يبعث من حرقة الشـــوق ويعقب من حســـرة أنه هنا أكثر من هذا .. أنه نحب الرجل يجمع بين النفس البشـرية الشـاعرية ، السـابحة وراء المعاني اللطيفة الروحية ، وبين الحس المرهف المتفزز ، المتفتح على الدنيا المشبوب الحيوية . مثل هذا الرجل كثيرًا ما نراه يحيا حياة مزدوجة ، حياته الروحية وحياته الجسدية كلاً منهما على حدة .

وهو في مداولته بين الارتياض الروحي والاسـتمتاع الجسـدي المتنقل بين سـماء علوية وجنة أرضـية ، يجد ما لابد أن يجده مثله من الكلفة كل مرة من عبور البرزخ الذي لابد أن يعبره بينهما ، وهو فيما يتكلفه من هذه النقلة يستشعر في كل حالة شيئًا من الوحشة أو الخيبة بمقدار ما بين هذين القطبين من بعد الشـــقة ، وما أبعدها شـــقة عند هذا الرجل ومن على شـــاكلته ، حتى ليصبح القول أنه في حاليه ، إنما يحيا بأحد شطريه ، لا بهما معًا ، مفرقًا ، لا بكيانه جملة .

هذا الرجل شـــاءت له الأقدار – على الرغم مما بذله من المحاولة وصـــبر عليه من المطاولة – أن يخفق في الاحتفاظ كما يشـــاء بهذا الحب أو ذلك ، كتمثلها – في اللوحة المعروضـــة في متحف بورجيزي في روما ، لفنان النهضة الإيطالي «تيسان **Tician**» امرأتان كاسية وعارية ، تجلسان إحداهما قرب الأخرى على حافة الحوض الذي يحيطه «نبع الحب» في انتظار الواردين العطاش إلى الحب.

ولم يكن الإخفاق في الاحتفاظ بالمرأتين مرجعه زهد أو تقصـير من جانب هذا الرجل الذي كان فهمه للحياة يزداد كل يوم ، بل جاء من جانب إحدى المرأتين ، وهي بطبيعة الحال – التي تمثل الحب العلوي ، ولم يكن ذلك لأن «هند» تزعم بينها وبين وجدانها أنه معزول عن عالم النســـاء ، غير أنها لم تكن تحفل اتصاله بالنساء ما دام اسمهن نساء لا يلوح بينهن اسم امرأة واحدة ، فلما شعرت بأن النساء تحولن إلى امرأة لها شأن ، غير شئون أخواتها من بنات حواء ، زارته على حين غرة في مكتب عمله ، وهي الزيارة الأولى والأخيرة من قبيلها ، ولم يكن لها مسـوغ من طول الغيبة وسـلا امتناع حديث التليفون .. فرحب بها ، وأبدى لها اسـتغرابه لزيارتها وابتهاجه بسـؤالها عنه، وأنصت مترقبًا ...

فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج :

لست زائرة ولا سائلة !

قال : إذن ...

ولم يتمها لأنها نظرت إليه كمن يستحلفه ألا يتكلم ، وانحدرت من عينيها دمعتان ، فما تمالك أن تناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها ، فمانعته ، ولم تكف عن النظر إليه . ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة ، وهي تتمتم هامسة : «دع يدي ، ودعني!» ثم انصرفت بعد أن سكن جأشها وزال من صفحة وجهها أثر الدموع. وللقراء أن يرجعوا إلى صفحة ٢٩٥ من الجزء الرابع من ديوان العقاد ليعرفوا قصة أتبكين أثر هذه الدموع في نفسه .

ويقول العقاد في قصته :

«لو جاءت هذه الزيارة و«همام» في بداية العلاقة بسارة ، لما كان بعيدًا أن تقضي على تلك العلاقة ، وأن ترد سارة اسمًا مغمورًا في عامة عنوان النساء. بيد أنها جاءت وقد أوغلت العلاقة بينهما إيغالها الذي لا تراجع فيه، وصمدت على طريقها تعدو مع الأيام عدوًا لا تنظر فيه إلى الوراء. وفسح لها الطريق أن همامًا لم يكن يوغل مثقلاً بتبكيت الضمير ، لأنه لم يخن هندًا ، ولم يقصر في حقها عليه.. ولا وهم أنها تغضب من أمر لا عهد بينه وبينها فيه ».

والواقع أن الذي كان بين العقاد والآنسة «مي» حتى إذا استقبلته في موعد خاص في البيت ، أو واعدته في دار خاصة للعرض السينمائي ، لا يخرج عما وصفه الشاعر مهيار الديلمي :

قد كان ما أرضى العفاف كله،   وبعض ما يرضى الغرام لم يكن

فالعقاد من حيث هو رجل ، لا يعرف الحب بالروح دون أن يشترك فيه الحس بنصيب. وهذا واضح جلي ، ومفهوم للقارئ من خاتمة العبارة التي نقلناها عنه في اعتذاره لنفسه. وقد اجتمعت لنا الأدلة العديدة على ذلك من مراجعة الجزء الرابع من ديوانه تحت هذا الضوء . فقد استطعنا التعرف على كل ما نظمه في الآنسة «مي» معتمدين في المراجعة على تلك العلامة الدامغة المشتركة في حصة «مي» من أشعار الديوان سواء ذكر فيها اسم «هند» أم لم يذكر ، فهي جميعها في الشكوى مر الشكوى من ضن الحبيبة وتمنعها ، وقد كانت الآنسة العاقلة الفاضلة حريصة على ألا يصارحها العقاد بحبه ، أو يسمى حبه لها حبًا ، خشية أن تضعف أمام هذه الكلمة ، أو حذار أن يزداد اجتراء على استوائها وتزيين الخطيئة لها ..

تقول لها أحبك، وهي غضبى

أتقلاها إذن لتلين قلبًا؟

وما بيديك أن تقلي، ولكن

أنا لا أعرف في شرع الهوى

خصلة يندى لها ذاك الجبين

أتلعبين بحبي أم تجدينا

وتضمرين الهوى أم أنت تلهينا

إني لأعلم أن الهزل يتبعه

في الحب جد، وأن ماريته حينا

فالهي بنا أو فجدي، لست ناجية

منه وإن رغت منا ما تروغينا

وأكبر الظن أن العقاد أحس منها المزيد من العطف ، فأسرع في لهفة إلى الاعتقاد بأنه «مولد الحب» وأرسل لها القصيدة التي نظمها في هذا المعنى، فتعهدت أن تقسو عليها وتعرض عنه، حتى يتراجع إلى موقفه الأول. فأسرع إلى نظم قصيدة «موت الحب» ومطلعها :

ولد الحب لنا ، وافرحتاه

وقضى في مهده ، وا أسفاه

كان هذا هو الحب بالروح والحس كما أراده العقاد حتى من الآنسة «مي» التي يجلها ويعرف لها المنزلة الرفيعة في الأدب والمجتمع.

أما الآنسة «مي» فكان حبها للرجل من نوع آخر ، فلا شك أنها كانت تأخذ على العقاد ما يغلب عليه حيال المرأة من أنانية الرجل الطبيعية ، بدليل قوله لها :

لا تعدي على عيبا ، فإني

لك كل محاسني وعيوبي

وعيوب المحب أولى بعطف

من كمال فيه وحسن وطيب

هي كالطفلة الشقية تلقى

من حنان الآباء أوفى نصيب

بيد أنها مع ذلك لم تمكن تنسى العقاد حتى وهي بعيدة عن مصر ، فكانت تراسله من الخارج لا بإرسال بطاقة مصورة من كل مكان تزوره كما هي عادة المسافرين، بل كانت تعني بتدبيج الرسائل المطولة إليه ، وكان فيما تسطره ما يدل على أنها تفكر فيه ، ومن ذلك اهتمامها بالبحث عن كتاب للأديب الإيطالي أما تولى كان مهتمًا به أو كانت هي المهتمة بأن يقرأه ، فهي تقول في رسالتها للعقاد «أن رأيت أن أرسله لك، أو يكون معي لحين عودتي فاكتب لي بذلك.. وسأحضر لك مجموعة من صور روما العريقة في الفن والجمال والمدنية» ، ثم أرفقت بالرسالة وصفًا من أربع صفحات عنوانه «نشيد إلى ينابيع روما» .. وفيما يلي فقرة من هذا النشيد تنم على ما في تلك النفس من الحب المكبوت وثورة القلب المحروم :

يا ينابيع روما، كم ذا سألت خريرك أن ينسيني نفسي الجريحة .

نسيت نفسي ! يا للرغد ويا للهناء .. لكني أعود فأذكرها ويشتد عطشي الملتهب العميق ، وأتلقى من مائك يا ينابيع روما ، وأشرب شربة لها في فمي طعم الترياق والكوثر .

«لحظة ليس غير ، فقد رجعت إلى حالي ، فما ارتويت بقطرة إلا كانت لهيبًا في الأوان الذي لا يرتوي . وما فزت بفهم جديد إلا كانت الخاطرة المستحدثة وقودًا لعذاب فكري وطمعة إلى توسيع حدوده ، وما نعمت بنعمة عطف إلا كانت زكوة لعاطفة الحنان التي لا تشبع ولا تكتفي» .

ولقد أرسل العقاد ردًا على رسالة روما هذه بقصيدة مطولة إلى «مي» في روما ، ومطلعها :

آل روما لكمو منا الولاء

وثناء عاطر بعد ثناء

في حماكم كعبة ترمقها

مهج منا وأمان ظماء

كعبة لا كالتي يعمرها

من حياة هي، لا من بنية

شادها صخر، ووشاها طلاء

قبلتي يا «مي» في ذاك الحمى

أنت، لا القبلة من ذاك البناء

فبعثت إليه «مي» وهي في برلين رســـالة ختمتها بقولها «لقد أعجبتني أبياتك وأبكتني، هذه النفس الحساســة العالية ، الجياشــة بالمشــاعر ، الزاخرة بالحب الرفيع، هي الحب الأول الذي انصــرف عنه العقاد إلى «ســارة» ذلك الانصــراف الجسـدي المشـبوب ، حين لم يبق أمامه إلا الاختيار بينهما ، بين النور والنار.

بين الفتنة والحكمة:

وكان العقاد بعد خمســـة وثلاثين ســـنة من الحرمان ، قد صـــار في دور «المراهقة» الثاني، فلم يتمالك العقاد أن أذهلته تلك النار المتراقصة المتوهجة بألوانها القاني منها والأرجواني ، فانجذب إليها متعزيًا عن النور بما يلمح وسط الدخان من بصيص .

أترى العقاد كان واهمًا في هذه المرأة «سارة» وهمه الأكبر؟

حسنًا أن تقرأ قصة «سارة» لنعلم حق العلم ، أنه لم يكن هو نفسه – حتى في غمرة هذه الفتنة – غافلاً عن حقيقة وهمه بدليل قوله :

«منذ الأزل وقفت هذه الفتنة إلى جانب ، ووقف إلى الجانب المقابل لها حكماء الأرض وهداتها ومشترعوها وأصحاب النظم والدساتير فيها.

وقالت هذه الفتنة ، وقال الحكماء والهداة كلمتهم ، ونظرت ونظروا ، ووعدت وأوعدت ، ووعدوا وأوعدوا أمام الناس جميعًا ، فاســـألهم واحدًا واحدا: كم مرة سمعتم هذه ، وكم مرة سمعتم هؤلاء؟

وأنا الضــمين لك ، أن في تاريخ كل إنســان مرة واحدة على الأقل – سـمع فيها لهذه الفتنة ، ولم يســمع معها لحكمة الحكماء ولا لشــيء من الأشــياء ! ليست هي «المرأة» المسموعة هنا ، ولكنها هي «الطبيعة» .

ليست ترجمة ذاتية

الواقع أن المقارنات التي عقدناها بين قصة «ســارة» للعقاد والجزء الرابع من دواوينه لا تترك مجالاً للشـــك في أن القصـــة واقعية ، بل لعلي آخر من يجوز له الشك، وأنا لي آخر دور فيها .

فأنا ذلك العشـــير القديم الذي شـــهد خاتمة ماســاة صـــديقه العظيم في يوم «القطيعة» (الصفحات من ١٠٩-١٢٠) ، وكم كان بودي – لولا ضيق الرقعة – أن أنقل إلى القراء وصـف العقاد الرائع الفاجع لذلك المشـهد الأليم في اليوم الذي تواعدا فيه للمقابلة الأخيرة القصـــيرة عند غبش المســـاء، في مفترق للطريق كان ملتقاهما مدى ســنين ، ليســـترد كل منهما رســائله وصـــوره وذكرياته ، ثم يفترقان ذلك الفراق الذي ليس له حتى آخر الدهر من تلاق. وكان العقاد قد دعاني لأن أكون في بيته قبيل الموعد أو ذلك فيما أمكن حتى يمنعه وجودي من التفكير في العدول عن قرار القطيعة .. وهذا هو ذاك يخرج أمامي والعزم كله في وجهه ، وأن يكن علام الغيوب وحده هو الذي يعلم ما بقلبه. ولم تمض ربع الســـاعة حتى عاد . ولم يكن يدخل المنزل حتى تهافت على أقرب كرسي في الحجرة التي كنت فيها .

فلو شــهده شـاهد يجهل ما كان فيه . لخاله قادمًا من مسـيرة أيام لا مسـيرة لحظات .

وأترك للأســـتاذ هنا أن يصـــف موقفه من كلمتي في العزاء التي ما كان ليسعني أو يسع غيري أن يجد ما كان يمكن أن يجدي بعد القطيعة غيرها، إلا إذا كان خير العزاء بعد القطيعة هو التهويل في ضربة القضاء[1].

«سارة» ومكانها من الفن:

الفن أو الأســـلوب الفني ، هو أول ما نلمســـه لأول وهلة ، حين نفتح من «ســارة» أول صـفحة «مضـت خمسـة أشـهر قبل أن يجرؤ على عبور ذلك الشارع مشيًا على قدميه. وليس الشارع مقفرًا أو مخيفًا ، لأنه محاط بالعمار ، مزدحم في جوانبه بالســـابلة والســـكان ، وليس هو بالبعيد عن طريقه ، لأنه يوشك أن يحتاج إليه في ذهابه وإيابه إلى حيث يقيم في ضاحية المدينة . ولكنه كان شارعًا يلتقيان فيه عند ذهابهما إلى دار للصور المتحركة ن ثم يلتقيان فيه عند خروجهما منها .

فلما وقعت الجفوة بينهما، وانقطع طريقهما إلى تلك الدار ، كانت كل خطوة في تلك الطريق كأنما تثقل النفس بآلام فوق أكام من الذكريات والآلام، وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفي فيها رصـــدًا من الشـــياطين الثائرة والعقبان الكاسرة، وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الأمور وأهون المحذورات.

ثم مضـت الأشـهر وخيل إلى صـاحبنا أنه لم يعد يخشـى أو يذكر، فاجترأ على العبور بـالطريق مرة بعد مرة ، وعبر بهـا ثلاث مرات أو أربعًـا على الأكثر .

فلما عبر الشـارع المهجور تلك الليلة ، مطرقًا كعادته حين يسير على غير قصد إلى مكان معلوم ، سمع من جانبه صـوتًا يناديه ، صـوتًا يعرفه بين ألف صــوت ، بل بين جميع ما خلق الله من الأصــوات والأصــداء : صــوتها هي بعينها يهتف به : أهو أنت؟

أهو أنت؟ .. سـمع هاتين الكلمتين فأحس لهما صـدى كانفغار الهاوية تحت السـفينة في البحر اللجي من أثر عاصـفة أو زلزال ، وقبل أن يجيب عن ذلك السـؤال الذي لا يحتاج إلى جواب ، وفي أقل من رجع الصدى بل في أقل من اللمحة الخاطفة التي انقضت بين ارتفاع رأسه إليها والتقاء نظره بنظرها هجم على نفســـه طوفان من الدوافع والهواجس التي لا يوجد لها اســـم في اللغات الإنسانية ، لأن اللغات الإنسانية لا تستطيع أن تضع اسمًا لألوف من النقائض والمفاجآت التي يجتمع فيها الرعب والســـرور ، والشـــوق والنفور ، والهيام والاشمئزاز ، وتريد فيها النفس أن تقف ، وتريد فيها القدم أن تسير ، بل تريد فيها النفس أن تقف ، لأنها لا تقوى على أن تريد.

***

(١) عبد الرحمن صدقي : الهلال – أبريل ١٩٦٧.

نقف عند هذا الابتداء الذي خرج به العقاد عن الترتيب الزمني للوقائع ، حين اختار موقفًا مكانه في وسط القصة ، فجعله فاتحة القصة لنرى ما في المخالفة لمنطق الواقع في هذا التصرف من موافقة للفن.

إن هذه اللحظة بالذات من القصة، هي – عند العقاد وعند القراء – بمثابة موجة وقفت به وسط البحر المضطرب الأشباح المعتلج الأمواج، وهو على قمته وبه شيء من الدوار ، وليس في الإمكان في هذه اللحظة الاطمئنان حق الاطمئنان .. والبحر على الحال التي هو عليها – أن سيستمر انحدار الموجة به في وجهتها إلى ناحية البر ، أم أن ريحًا معاكسة ستهب فتدفع الموجة إلى الانحدار من جانبها الآخر عائدة من حيث جاءت إلى لجة البحر التي ليس لها قرار ، إلى الدوامة نفسها الإعصار المائي الموار الذي ظل أمدًا يدور به حتى كاد من الدوار أن يفقد وعيه ، وهو تارة مستطار به إلى الآفاق ملحقًا ، ثم أخرى مخسوف به حتى أعمق الأغوار مغرقًا وقد أوشك على الهلاك .

هذه اللحظة الحاسمة التي ساقته إليها الأقدار ، والتي لا نشك مع ذلك في أن العقاد أسهم – من حيث يشعر أو لا يشعر – في تعريض نفسه لها .. هي لا شك من الأهمية ، بحيث يقضي الفن جعلها في مقدمة القصة – تمامًا كما فعل العقاد لأن هذا الإجراء في مقدمة الوسائل الفنية التي تضفي على الواقع صفة الفن.

وقد يحرر العقاد متعمدًا في مواضع خاصة أخرى من القصة ، وسائل التقديم والتأخير في طلب التأثير .

ونكتفي ، بعد ما قدمناه في الابتداء من المثال على التقديم ، أن نقره بهذا المثال على التأخير . فقد انتظر العقاد حتى استوفى الكلام العلاقات بين بطل القصة وبطلتها ، وما قام في نفس الرجل من الشكوك في وفاء المرأة ولجوئه إلى فرض الرقابة عليها ، وما كان من تعثرها أول الأمر ، ثم الوقوع على الحقيقة ومن بعدها القطيعة هذا الشوط الطويل كله انتظر العقاد حتى قطعه ، وبعده فصلان في تحليل البطلة ، بعنوان : «من هي» و«وجوه» .. أي انتظر حتى صفحة (١٤٣) ليروي لنا «كيف عرفها؟» ، على خلاف العادة التي تقضي بأن يكون هذا التعريف في البداية .

هذا التصرف من العقاد ، في سرد الوقائع على غير الترتيب الواقعي ، متعمدًا ذلك لإحداث ما يريده من التأثير قد خرج بكتاب العقاد من كونه تسجيلاً لسيرة حياته في إطار الترجمة الذاتية إلى كونه قصة في عداد الأعمال الفنية .

ونعود الآن إلى «قصة سارة» لنزيد على ما قلناه في صفتها الفنية كقصة ، أنها لا تعيش على واقعيتها . فنحن لا نكاد نعنى بواقع حوادثها في ذاتها ، لأننا لا نكاد نحس لها على مسرح الواقع وجودًا مستقلاً عن المؤلف . ذلك أن مسرح وقائعها أولاً وآخرًا هو قلب العقاد وفكره ، تخطر فيها كالأطياف في صورة ذكريات متقطعة تصدر عن ذاكرته على حسب المناسبات، سعيدة كانت أم تعيسة، فتلبس لبوسها وتتلون بألوانها ، حتى صورة «سارة» نفسها، وبعد هذا كله أحسبنا نكون مقصرين التقصير كله في حق «قصة سارة» ، إذا لم نذكر بالإعجاب الذي لا حد له ، وما تزخر به من التحليل النفسي حتى «في بيتي» وهو أصغر كتبه حجمًا ، بل في عبقرياته الإسلامية، حتى آخر مؤلفاته التي أوفى عددها على المائة .

ولا غرابة ، فالتحليل النفسي ربما كان أكبر ملكات العقاد التي لا ينازعه فيها منازع. وهذا يحدونا إلى أن نعيد مرة أخرى في ختام مقالنا قولة أستاذنا على طريقة التحدي التي لازمته ولازمها ، حتى صارت مألوفة عنه ، بل لطيفة منه : «وأخيرًا فرغت لإتمام «سارة» ، فأتممتها بعد برهة، على الصورة التي ظهرت بها : رواية تحليلية أو تحليلاً روائيًا ، كما يشاء من يشاء».

***

كانت هذه نظرات تحليلية لقصة سارة بقلم أحد ابرز أصدقاء العقاد وأكثرهم قربًا له وكان كاتمًا لأسراره ولكنه ظل صامتًا لم يتكلم عن الأسرار التي عرفها عن العقاد وغرامياته حتى رحل أديبنا وشاعرنا عبد الرحمن صدقي عن الحياة في العشرين من يناير سنة ١٩٧٣.

الفصل السابع : رواية سارة وعبقرية الشك

سارة وعبقرية الشك:

ترى د. سـهير القلماوي أن الحقبة التي أحب فيها العقاد «سـارة» (وهي حقبة العشـرينيات) قد عانى فيها الشـباب من الاسـتبداد وخيبة الأمل فخلق عندهم الشـك، وسـوء الظن ، والضـياع ، وإذن هذه التجربة في حياة العقاد (حبه لسارة) تكون سببًا لأن يخرج لنا عبقرية لعلها أولى عبقرياته إنشاء وهي حتمًا أولى العبقريات معاناة ، إنها عبقرية الشك .

تقول د. سهير القماوي:

إنها تجربة الشـك الذي يترجم لها كما يترجم للعبقريات بنفس الأسـلوب الذي يجرد العظمة تجريدًا فيجعلها فوق التفاصـيل أو الألوان المحلية وفوق الهنات أو الحواشي الإنسانية لتصبح عبقرية مصفاة .

وهذا سـارة الحافز الذي فجر التجربة الكبرى يتخذها العقاد عنوانًا لروايته اليتيمة ولو أنصف لسماها الشك. حتى «سارة» تلك أنها مجرد اسم لهذه التي فجرت في نفسه عبقرية الشك إنه يقول وليكن اسمها «سـارة» وكذلك وليكن اسـمه «همام» . حتى عندما يستحدث شخصيته ليكشف بالمقابلة بينها وبين سارة خصائص تفصيلية في سارة يقول أيضًا وليكن اسمها «هند» .

إن الأسماء كلها مجرد أسماء ليستقيم السرد أما في عالم التجربة فقد كانوا جميعًا عناصر كيماوية تكون منها هذا المزيج العبقري الشك .

ويصدق العقاد في تصوير الشك في عصره من أول الرواية إلى نهايتها. ففي أولها، لا نبدأ من أول اللقاء ، لأن الحوادث تنمحي وتتأخر إلى ما خلف السـتار . إننا نبدأ الرواية بموقف فريد في مرحلة حاسـمة من مراحل الرحلة في ثنايا الشـك أنه يبدأ بعد قطيعة خمسـة أشـهر بينه وين سـارة وهو يمر في نفس الشـارع الذي كانا يسيران معًا فيه ، وبسرعة المؤلف الدرامي وتركيزه تظهر سارة فإذا .. ولندعه يتكلم :

«هجم على نفسـه طوفان من الدوافع والهواجس التي لا يوجد لها اسـم في اللغات الإنسـانية لا تسـتطيع أن تضـع اسـمًا لألوف النقائض والمفاجآت التي يجتمع فيها الرعب والسرور والشوق والنفور والهيام والاشمئزاز وتريد فيها النفس أن تقف وتريد فيها القدم أن تسـير بل تريد فيها النفس أن تقف لأنها لا تقوى على أن تريد» .

ويمضـي طوال الرواية أو السيرة العبقرية للشك في أمواج تعلو به وتهبط حتى ينتهي إلى ما يشبه راحة اليأس وفراغ الضياع :

ثم خرج همام من هذه الراحة الموقوتة «راحة القطيعة» إلى شـيء آخر إلى شـيء غير الراحة وغير السلوى، إلى الشعور القاصم بالفراغ وبالحرج والضيق ونفاد الحيلة كلها في ذلك الفراغ .

كل حاسة من حواسه فقدت شيئًا وكل لحظة من لحظاته فقدت شيئًا وكل مكان يغشاه فقد شيئًا وكل سرور من مسراته وكل ألم من آلامه فقد معناه وغايته ولبابه . وماذا عوضها جميعًا؟ عوضها نقيضها الذي يلفيها ولا ينوب عنها فإما غم محبوس كظيم وإما حيرة عمياء ليس لها اتجاه وإما سكون موحش بعد حركة وجيعة . وكل أولئك في فراغ لا مبدأ به ولا نهاية ولا مهرب فيه ولا قرار .

ولكن أتنتهي رحلة الشك العبقرية في الأحداث المفجرة لهذا الموقف إلى نهاية؟! كلا إنه يختم روايته مرة أخرى بالشك وكأنما كان يريد أن يستأنف الرحلة من جديد أو كأنما كان يريد أن يرد لنفسه الكبيرة المتشامخة كرامة تخفف عنها لوعة الانهزام .

نعم إن سارة خانت ولكن هل كانت معذورة في خيانتها له ، إنه لا يزال يحبها ، لا يزال يحس هذا الشيطان المريد ، يقول مختتمًا :

«ألا أن كيوبيد شيطان مريد له لؤم الشياطين ونزعاتهم ومكايدهم وكراهتهم أن يتركوا الناس هانئين وادعين . فمن حين إلى حين كان همام يسمعه يهجس له ويوسوس في صدره ليسلبه ارتياحه إلى فراق سارة وقدرته على تناسيها فلا يفتأ أبدًا يعاوده بهذا السؤال : أليس من الجائز أنها وفت لك أيام عشرتها واستحقت وفاؤك لها وصيانتك إياها وغيرتك عليها؟ أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق» .

وهكذا ينتهي وهو يوشك أن يبدأ من جديد. وهذا هو الشك في عبقريته . إنه لا ينتهي إلى الناس وإلا تغير اسمه ، ولا يبدأ بالاطمئنان وإلا تغير اسمه ، وهكذا تبدأ عبقرية الشك بالشك وتنتهي به لأنها علي نسق العبقريات «العقادية» عبقرية مصفاة لا تشوبها شائبة. إنها عبقرية صامدة تظل دائمًا خالية من عوامل الضعف أو شبهة الانزلاق من فوق قاعدة التمثال .

وهذا هو العقاد في مغامرة حبه يمثل شباب عصره بأهم ما كانوا يعانونه من أثقال الشك والحيرة والضياع. شاب جاوز الثلاثين يقول في (ص١٢٥) طبعة «اقرأ» أنه فوق الاثنين والثلاثين وفي (ص١٤٧) «نفس الطبعة» أنه جاوز الثلاثين وأوشك أن يصعد إلى الأربعين. وعلى أية حال فالمغامرة بهذا تكون في الفترة التي سبقت الثلاثينيات وجاءت بعد اليقين بأن ثورة سنة ١٩١٩ قد أجهضت ولم تلد حرية ولا استقلالاً . هذا الفترة التي زيفت فيها القيم ، ولعب الاستعمار مع مصر لعبته الجديدة لعبة الاستقلال الصوري ليضعه بديلاً عن الاستقلال المنشود يخدر به الأعصاب ، ولكن الشباب يشك ويتطلع وييأس ويأمل وفي خضم هذه العوامل المتجاذبة يحاول أن يخط حروفًا على صفحة أمل جديد .

وعبقرية الشك التي تصور حال عصرها وما عكسته على طبيعة الشباب إذ ذاك، كما يصورها العقاد عبقرية عاطفية لا فلسفية . يحاول العقاد أن يفلسف بعض ظهورها ولكنه يلجأ دائمًا إلى الأسلوب الأدبي فإذا هو فعلاً أقوى دلالة على واقع المعاناة العاطفية .

يقول : «كانت شكوكًا مرة لا تغسل مرارتها كل أنهار الأرض وكل محاولات الحياة. كانت كأنها جدران ســجن مظلم ينطبق رويدًا رويدًا ولا يزال ينطبق وينطبق وينطبق حتى لا منفس ولا مهرب ولا قرار .

ألم يكن شباب هذه الحقبة يحسون في يأسهم وتطلعهم ممزوجين انطباق هذه الجدران جدران الســجن الذي فيه يعيشــون جدران الســجن الكبير . وانظر إليه يحلل فترات هذا الشك من خلال تجربة حب :

فلما ســاورته شــبهات الشـك توالت أمامه الدلائل من فلتات اللســان وشــوارد الخواطر وعلامات الزينة والحلي والملابس.. ورانت الســـآمة على كل لقاء وتغلغلت اللواعج والأشــجان في كل فراق وغلبت الأكدار على كل صــفاء وكل رجاء.

ثم يلخص الموقف بتناقضاته وينتهي إلا أنه لم يبق إلا القطيعة . ولكن أيطمئن إلى القطيعة أيســتطيعها . وإذا اســتطاع الإنســان يأسًــا ، أيعاوده شــيطان الشــك المريد. والعبقرية عبقرية الشك وليست متاهات اليأس وضياع الفراغ وإذن يعود . يعود وهو لا يقوى على أن يواجه الحقائق ويحلل الموقف، موقف الحقيقة ،هل هذا ممكن ؟ كلا :

أولاً : لأننا لا نعرف ما هي هذه الحقيقة ؟

وثانيًا : لأننا لا نعرفها إلا مضطرين .

وثالثًا : لأن معرفتها تكلفنا تغيير عادة من العادات «وليس أصـــعب على النفس من هذا بل إن الموت نفسه لا صعوبة فيه لولا أنه يغير ما تعودناه ».

هذا ما يراه العقاد . وإذن فمواجهة الحقيقة أمر يكاد يكون مســتحيلاً ولكننا مضطرون إلى ذلك ولابد من أن نركب الصعب والحقائق في زمانه مرة والواقع أشد مرارة ولكن لابد من مواجهة هذا الواقع ومحاولة التغيير.

وهنا نتســاءل أكان لابد من قيام جيل ثان لم يســتنفد جهده في مكابدة الشــك لنصــل إلى الجيل الذي يؤمن بالمستقبل وبضــرورة تغيير الواقع – بحيث يتلاءم مع ما يختلج في النفس من آمال وتطلعات؟!

على كل حال لقد استنفد العقاد جهده في هذه العبقرية :

في معاناة الشــك والهروب من الواقع ، مرة إلى شــعره الرومانســي وأخرى إلى شعره الإصلاحي والتجديدي ومحاولات البحث عن مضمون جديد في إطار الشك القديم .

وأما في «ســـارة» التي ألفت قبل ذلك أو مرت به تجربتها قبل ذلك وإن خرجت مطبوعة سـنة ١٩٣٨ ، فإنه ظل يبحث عن منهاج حياة جديدة فضــاع في طوفان الشــك وســوء الظن والفراغ . فواقع الشــباب في تلك الحقبة كان غلابًا قاهرًا لا تستطيع أكثر من الصيحات ودفع ثمن هذه الصيحات .

ولكن كيف نمر بعبقرية الشـــك دون أن نقف بمفجرة هذه العبقرية ، دون أن نقف بسارة ، وقد سرنا مع آثارها في هذا المقال حينًا كما سار العقاد مع معاناته بسببها حينًا ، وفي منتصف الرواية يقف ليسأل من هي سارة ويصفها ثم يقول وليكن اسمها سارة . فلقد كانت تسير معنا ومعه طوال هذه الرحلة ولا اسم لها ، إنها امرأة ولا كل النساء إنها حزمة أعصاب تسمى امرأة .

استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة ، إنها تنظر إلى خطايا الأديان نظرة المرأة الوثنية التي نشأت غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ولا كضجر المدمن يخدره العقار ، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرس الجموح يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الإعياء والبكاء . إنها من يسمع منها همام ما قل أن تفهمه امرأة ، وإن شعرت به . وقل أن تحسن التعبير عنه وإن أرادات أن تقوله ، إنها ألف امرأة في امرأة تتنوع وتتلون ولا تزال هي هي . وهي تلائم فهم العقاد للمرأة . فهي تفهم أن لها قيمة غير قيمة الدلال المصطنع وأن العاطفة أنفس من أن تشاب بالتنكيد والتكدير لغير داع . هي صاحبة ذكاء مطبوع يفقه قيمة الزمن وقيمة الشعور وقيمة السرور فهي لذلك . تحافظ على مواعيده بغاية الدقة .

ومن خلال سارة ينفذ إلى تصوير طبيعة المرأة في رأيه : «ألوف من السنين قد غبرت على المرأة وهي تخاف وتحتال وترائي وتلعب بمواطن الضعف وفي الرجل حتى أصبح بعض النساء ممن قويت فيهن عناصر الوراثة وبرزت في طباعهن عقابيل الرجعة ينشدن الغش التذاذا به وشحذا للأسنان القديمة التي نبتت عليه ويسرهن أن يصنعن الشيء ويخفينه ولو لم يكن بهن حاجة إلى صنعه ولا إخفائه ، لأن المرأة من هؤلاء تشتهي العظمة بجوع ألف سنة وتشتهي اللحم واللبن بجوع ساعات» .

ولكن سارة كما يقول في تحليل الشك خزانة بها مال . والخزانة لا يخاف عليها فارغة ويخاف عليها مملوءة وإن كانت هي هي في الحالين .

فسارة امرأة ولكنها ليست كسائر النساء.. وكان لابد أن تكون امرأة ليست كسائر النساء لا لأن العقاد أحبها فحسب، وكل عاشق يرى عشيقته فريدة في عالم النساء، ولكن العقاد يعشق نفسه ، ونفسه إذا عشقت لابد أن يكون ما تعشق خليقًا بالعقاد .

وفي أسلوب العرب القدامى من للتشبيه ومن حبهم للمقارنة بحيث تنجلي من خلال الشبه والنقيض مميزات الموصوف يخلق العقاد شخصية يقول عنها وليكن اسمها «هند» . ويقارن بين الاثنتين كلتيهما مثقفة وكلتيهما تحب العقاد . ولكن سارة وحدها هي التي فجرت ينابيع الشك في نفسه .

فالحزن الرفيع والألم العزيز عند هند هو الشفاعة المقبولة .

أما عند سارة فالشفاعة الأولى بل الشفاعة العليا هي النعيم والسرور . تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم .

الجمال عند هند حصن يحيط به خندق ، والجمال عند سارة بستان يحيط به جدول نمير . إحداهما قائمة في محراب والأخرى بائقة كالزهرة من زبد العباب . كلتاهما ذات ألمعية ولكن ثقافة هند إلى معرفة وثقافة سارة إلى الفطرة . سارة وثنية في ساحة الطبيعة وهند راهبة في دير وهكذا عشرات المقارنات هنا وهناك.

وبأسلوب المقابلة تلك يصل العقاد إلى جلاء خصائص هذا المفجر الديناميكي الذي فجر فيه عاطفة الحب الشاك . إنه يبدأ رقيقًا : مجرد تعارف ، ثم يصبح وكأنهما شجرتان متجاوران ، ثم ينقلب الجدول الهادئ المنساب رويدًا رويدًا ويغيب الحمل الوديع ويبرز منه الأسد المتحفز ، وفي خلال ذلك التحول كانا يستكشفان الطبيعة معًا والناس معًا بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين ، وضياء كله شغف وتجديد، وآفاق تنساح إلى آفاق . حتى يصلا معًا إلى ذروة الشك العبقري .

ويصف العقاد هذه العاطفة بأسلوب عصره ومفردات زمانه . فمواعيد لقاء في السينما أو عنده في مسكنه ، وعلامات حب مألوفة في ذلك الزمان وعلامات شك ودلائل خيانة كلها بمفردات العصر وتعابيره وتقاليده وعاداته. فلست أرى في ذلك صبيانية ولا سطحية ولا إغراقًا في الرومانسية وإنما هذا هو واقع العصر في الحب .

وما كان يمكن لحب في ذلك الزمان أن يؤتى كل هذه الثمار إلا أن يكون حبًا بين مصري صميم ومتمصرة أو غير مصرية وهكذا كانت سارة التي لقاها العقاد عند ماريانا على حسب ما كان مألوفًا ومعروفًا في ذلكم الزمان وأسلوب العقاد يصل في مواطن إلى مراتب الشعر ، وهو حريص على تشبيهاته الرائعة ، فلقاؤهما بعد الشك وبعد الرقابة أو أثناءها كان «من سويعات الهوى التي إذا قيست بهواهما السابق المطواع بدت وكأنها الثمار المحفوظة في العلب بالقياس إلى الثمار على أشجارها بين غياضها وأنهارها» أو يقول مثلاً معبرًا في إيجاز مشبه دال في سرعة وقوة «وخف كل شيء في الدنيا حتى أشفقا أن يذهل قانون الجاذبية عن واجبه المرسوم» أي أشفقا أن يطيرا من النشوة والفرح .

وتمتلئ الرواية بالتعابير الدالة وكأنما هو في موقف شاعري قد عجزت اللغة الشاعرة عن أن تصفه ، هذا هو ينتظر مقدمها . ولا يزال في مرقبه نهبا للوسواس لمحة بعد لمحة كأن الزمن قد استحال إلى أجزاء تعد بالملايين وملايين الملايين لا بستين دقيقة في الساعة وستين ثانية في الدقيقة وكلما تقدم جزء من هذه الملايين تضاعف الوجل وتفاقم الحذر واختلجت الهواجس المثيرة كما تختلج الذرات في قارورة يرجها الشلال الدافق أعنف ارتجاج .. إلخ» .

وبهذا الأسلوب يصف فتنتها ودلالها وبهذا الأسلوب يصف لواعج الشك تفتك بنفسه وتعذبه عذابًا كعذاب الكافرين يبدلون من جلودهم جلودًا في نيران الجحيم .

عبقرية الشك في نظري صنف من عبقريات العقاد شاذ فريد ولكنه يخضع لمنهج العقاد في تصوير العبقرية . إن سارة هنا زمان وتاريخ وأحداث تصنع العبقرية . والشك هنا عملاق يتقبل آثار الأحداث والتاريخ ولكنه يتصدى لها ليخرج آخر الأمر شكًا عبقريًا .

كان هذا تحليل د. سهير القلماوي لعبقرية الشك عند العقاد التي تجلت في قصته الوحيدة «سارة» .

***

وعلى هامش قصة غرام العقاد وأليسا داغر أو «سارة» كما سماها يروي صـــديقه الأديب محمد طاهر الجبلاوي ذكرياته عن العقاد أثناء حبه لســـارة وكيف عذبه الشـــك ، وأقض مضـــجعه ، فكلفه بمراقبتها مراقبة دقيقة وافية ، لأن الرقابة كانت الطريق الوحيد لدفع الشك باليقين .

ويسدل الستار على قصة هذا الحب عندما يشاهد الجبلاوي «أليس» بميدان المحطة بالقاهرة تسير الهوينا ثم تلتقي بضابط شاب يرتدي الملابس الرسمية وما إن دنت منه حتى حياها وركبا الســـيارة معًا وانطلقا عن طريق حدائق القبة.

ولم تكن هذه الواقعة التي رواها الجبلاوي للعقاد كافية له للوصـــول إلى اليقين الذي ينشده .

ولكن كانت هناك واقعة أخرى تؤكد الشـــك في أمر محبوبته حيث رآها الجبلاوي تخرج من إحدى العمارات بشارع عبد العزيز ، وكان العقاد يعرف عن أخبار تلك العمارة الكثير ، وبذلك ألقى بتلك الشكوك في لجة اليقين .

وبعد أن قرر العقاد أن يفترق عنها لم يحس براحة قلبه كما كان يظن بل إن الفراق عذبه ، وجعل حياته خواء بعدها ، خاصـــة عندما كان يســـتعيد ذكرياته الحلوة معها ، وحديثهما الضـــاحك ، ومرحها ، أيام الســـعادة ، مما جعله يقول مرة لصـديقه الجبلاوي وهما يسـيران في أحد الشـوارع الرئيسـية بالقاهرة :

إن الناس يشيرون بأصابعهم ولا يعلمون أنني من أشقى الناس وأتعسهم !

ويعرض صـــديق للعقاد هو الشـــاعر عبد الرحمن صـــدقي أن يقبل ســـارة كامرأة ويستمتع بما تهبه له من متع الحياة ، وليدع عذاب الشك والظنون فأبت نفسه ذلك، وكتب قصيدة يخاطبها فيها قائلاً :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى	وأرتـاد فيـك اللهو بعـد التعبـد
وألقاك جســمًا مســتباحًا وطالما	لقيتـك جم الخـوف جم التـردد
رويـدك إنــي لا أراك مـلـيـئـة	بلـذة جثمـان ولا طيـب مشـــهـد
جمالك ســم في الضــلوع وعثرة	ترد مهـاد الصـــفو غير ممهـد
إذا لم يكن بـد من الحـان والطلى	ففي غير بيت كان بالأمس مسجدي

وبعد الفراق هل ارتاح العقاد ؟

وهل أحس براحة اليأس ؟

أبدًا ، بل ظلت «أليس داغر» بأعماقه يستعيد ذكرياته معها ويتمثلها في كل حين، بل يلتمس لها العذر في خيانتها له فيقول :

«أليس من الجائز أنها وفت لك في أيام عشرتها ، واستحقت وفاءك لها ، وصيانتك إياها وغيرتك عليها؟ ».

«أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق »؟! .

وبعد أن قطع العقاد الشك باليقين وتأكد من خيانتها له ، داس فوق قلبه ، وتحمل من آلام الفراق ، وعذاب البعد الكثير ، لكنه لم يستطع أن يبترها من قلبه ، ولا أن ينساها ، وحاول أن يطبق قول الشاعر :

وداوني بالتي كانت هي الداء

فحاول أن يدخل في تجارب حب أخرى لينساها لكنه لم يستطع بل شعر بالفراغ، وبالضيق .

كل حاسة من حواسه فقدت شيئًا ، وكل لحظة من لحظاته فقدت شيئًا ، وكل مكان يغشاه فقد شيئًا ، وكل سرور من مسراته أو كل ألم من آلامه فقد معناه وغايته ولبابه ، وماذا عوضها جميعًا ؟ عوضها نقيضها الذي يلفيها ولا ينوب عنها ، فإما غم محبوس كظيم ، وإما حيرة عمياء ليس لها اتجاه ، وإما سكون موحش بعد حركة وجيعة ، وكل أولئك في فراغ فارغ لا مبدأ له ولا نهاية ولا مهرب فيه ولا قرار .

وجرب السلوى ، ولم لا يكون مستطاعا أن يسلو الرجل امرأة بامرأة مثلها أو أفضل منها.

ونسي أن الرجل حين يحب المرأة فإنما يريدها هي ، ولا يريد ما هو أجمل منها، وإنما يحسها ويحس بها لأنها هي هي لا لأنها امرأة لا فارق بينها وبين سائر النساء .

وكالنظارة التي تجلو العين لأنها نظارتها تكون المعشوقة للعاشق الذي عاشرها وألف محاسنها وعيوبها، وتمثل كل صفة من صفاتها كأنها شخص مستقل «مخصوص» لا مشابهة بينه وبين الصفات عامة ، فلا النظارة التي هي أبعد أمدًا وأنفس زجاجًا تغني العين التي تنظر بما دونها ، ولا المرأة التي هي أجمل طلعة وأكرم سليقة تغني القلب الذي تعود أن يخفق لها أو يخفق معها .

لا.. بل تكون التسلية هنا أحجى بأن تنكأ الجرح وتضاعف الحسرة وتضرم لوعة الفقد والغيبة ، فالمرأة المجهولة تغني عن المرأة المجهولة لأنك لا تعرف لها صفة تنكرها عند أختها .. أما المرأة التي تشخصت في حسك كل صفة من صفاتها فكيف ترى امرأة غيرها دون أن تشعر في كل لمحة وكل لمسة أن لها وجهًا غير وجه فلانة ، وعينًا غير عينها ، وصوتًا غير صوتها ، وقوامًا غير قوامها ، وأعطافًا غير أعطافها ، وروحًا غير روحها، وكلامًا غير كلامها .

وكيف تشعر بذلك دون أن تنقلب التسلية غصة ، ودون أن ينقلب العوض المنشود ذريعة من ذرائع الفقد الدائم والحرمان المتجدد .

كلا.. لا تسلية عن «النظارة» المضبوطة بنظارة أنفس منها وأقدر على التقريب والتوضيح .

ولا تسلية عن المرأة المعشوقة بامرأة تفوقها ملاحة وتبرعها ذكاء ، وتبذها عندك وعند غيرك في بعض الخصال ولا في جميع الخصال .

ولم ينس العقاد أليسا حتى آخر لحظة في حياته ، فبعد فراقها حاول أن ينسى فاشترى «جرامفون» ليستمع إلى أغاني كبار المطربين والمطربات ، فوجد في الموسيقى بعض الراحة وذات يوم كان يستمع لاسطوانة لمطرب لبناني يقول :

نار الغرام لم تنطفي

ولا المحبة بتختفي

فسالت دموعه ، وأغلق الفونجراف بعصبية ولم يفتحه إلا بعد بضعة أعوام، بعد أن أهاجت الأغنية مكامن هواه!

وبعد فراقها لم يرها العقاد إلا مرة واحدة بعد عشر سنوات ، حيث كان يلقى محاضرة بالجامعة الأمريكية ، وقرأت أليسا الخبر بالصحف فحرصت على الحضور وكان مدير الجامعة إلى جوار العقاد يناوله أوراق الأسئلة . التي يكتبها الحاضرون بعد المحاضرة .

فناول العقاد ورقة غريبة نظر فيها فإذا هي بخط أليسا وقد كتبت فيها عبارة واحدة «أنت وحشتنا» فخفق قلبه، وتماسك أمام الحاضرين وأخفى انفعالاته وجيشان عواطفه ، حيث يعترف صديقه محمد طاهر الجبلاوي، أن العقاد شغف بسارة شغفًا كبيرًا ، كان يومئذ في الخامسة والثلاثين وكانت أليسا «سارة» يومئذ سيدة مطلقة في الخامسة والعشرين من عمرها في عنفوان شبابها، وقد ملأت حياة العقاد سرورًا وبهجة ومرحًا ، وتمتع إلى جوارها بسعادة لا يحلم بها إنسان ، لكن الشك عذبه طويلاً ، والخيانة صدمته ، فزلزلت كيانه ، فرفض أن يكون مجرد عشيق ضمن آخرين ، ورفضت كرامته مهانة أن يصبح احتياطيًا عند اللزوم !

وتمر الأيام وترحل أليسا داغر إلى باريس حيث عاشت مع ابنتها الوحيدة هناك، وفي سنة ١٩٦٠، أرسلت إلى العقاد صورتها بعد أن تقدم بها السن ، فأخذ العقاد يتأملها ، ويتأمل صورتها وهي معه أثناء الشباب ، وأدرك كم أن هذا الحب الكبير العميق لم تستطع السنون أن تمحوه ، بل ظل في أعماق كلاهما حتى نهاية العمر.

وظل العقاد يذكر أليســا أو ســارة حتى آخر لحظة في حياته ، وكأن لســان حاله يقول لها :

خـلـط الله بـروحــي روحــهــا

فهما في جســدي شـــيء واحد

بهمـا يحيـا إذا مـا اصـــطبحـا

فـإذا مـا افترقـا مـات الجســـد

الفصل الثامن : العقاد والحب الأخير بين الربيع والخريف

أفي حجرة النوم أم قاعة المعرض

جمهور فنك مستحضر ؟

ومن تعرفين أمام الستار

أم خلفه دائمًا أكثر ؟

وهل أنتم نجم ؟ لأن النجوم

في ليلها أبدًا تسهر ؟

العقاد

هنومة:

أما الثالثة فهي هنومة خليل تلك الفتاة الصغيرة دون العشرين التي كانت تتردد على العقاد في الأربعينات ويزودها بالكتب لتقرأها وأحبها بعنف رغم فارق السن الكبير بينهما ، حيث كان يقترب من الخمسين وهي مازالت دون العشرين ، كانت سمراء دعجاء العينين ، ذات جاذبية آسرة ، كان يعمل في صحيفة «الجهاد » في تلك الفترة (عام ١٩٤٠) وكانت الفتاة طموحة اعتقدت أن العقاد قد يساعدها على تحقيق هدفها في التمثيل للسينما ، وحاول العقاد أن يثنيها عن ذلك ويجعلها تتجه للقراءة والثقافة ، ولكنها صممت على تحقيق هدفها المنشود وكان يلتقي بها كثيرًا ونشأت قصة حب عاصف بين الملهمة الصغيرة والأديب الشيخ ابن الخمسين وأتيحت الفرصة للملهمة للتمثيل بالسينما ، وثار العقاد ثورة عنيفة ولكن بلا جدوى وظل معتصمًا بكبريائه أمام توسلاتها ورسائلها التي كانت تلقى بها تحت باب مسكنه بعد أن رفض أن يفتح لها الباب مرارًا ومن الطرائف التي يرويها الأديب الكبير توفيق الحكيم أن هذه الفتاة عندما كانت تتردد على أماكن تصوير الأفلام ، على أمل أن يراها المخرج ليعرض عليها دورًا ، وقيل للعقاد أن توفيق الحكيم (الذي كان يشرف على تصوير قصته «رصاصة في القلب»)، ينظر إليها أكثر من اللزوم ، ويحاول أن يتقرب إليها ، مما ضايق العقاد ، وصار يروج أن الحكيم أكبر منه لعل هذا الكلام ، يصل إلى مسمع الفتاة

لكن العقاد تأكد فيما بعد أن هذه مجرد أوهام ناتجة عن غيرته عليها! وبعد احتراف هذه الفتاة التمثيل قاطعها العقاد ، رغم أنه أحبها بعنف وذاب في أنوثتها الغامرة :

ثـنـايـاهـا ، ثـنـايـاهـا وهـل ذقـتـم ثـنـايـاهـا

وعـيـنـاهـا ، ويـا لـلـقـلـب كـم تـسـبـيـه عـيـنـاهـا؟

وتـلـك الـوجـنـة الـخـمـرية الـسـكـران رائـيـهـا

أفـي الـجـنـة يـا رضـوان تـفـاح يـحـاكـيـهـا

وجاهد العقاد مشاعره لأنه لم يقبل المشاركة في الحب ، فبعد أن اندمجت في غمار التمثيل السينمائي :

وسـلاحـهـا فـيـمـا تـكـيـد بـه

مـن يـصـطـفـيـهـا أو يـعـاديـهـا

وتعذب العقاد كثيرًا حتى ينساها ، فأوحى لصديقه الفنان الكبير صلاح طاهر أن يرسم لوحة غريبة تصور فطيرة حلوة يشتهيها الجائع والشبعان ، وعليها الذباب والصراصير تحوم ، وفي القدح الذي يفرغ عليها الحلاوة عسل يضطرب فيها بعض الذباب ويموت .. فلا يأكل من الفطيرة الحلوة على هذه الصورة شبعان ولا جوعان ، بل تعزف النفس حين تراها عن كل طعام ! ووضع اللوحة في حجرة نومه يراها عند نومه واستيقاظه حتى يكرهها وينساها !

وكان هذا الحب العاصف بين العقاد و «هنومة خليل» الشهيرة بمديحة يسري «هو حب مغرب العمر الذي عذب العقاد وكسر قلبه والذي جعله يصرخ بأعلى صوته لكل رجل :

خـنـهـا ولا تـخـلـص لـهـا أبـدًا

تـخـلـص إلـى أغـلـى غـوالـيـهـا !

ويلقي لنا الشاعر صالح جودت (١٩٠٨ – ١٩٧٦) المزيد من الأضواء على قصة الحب الملتهبة بين العقاد وهنومة خليل الشهيرة باسم «مديحة يسري» فيقول :

ثلاث غراميات كبيرة في حياة العقاد :

الأولى : سارة .. وهذا اسم مستعار لها .

وقد كانت «سارة» أسعد حبيبات العقاد حظًا من الشهرة ، لأنه أذاع قصتها وهو على قيد الحياة وخصها بالقصة الطويلة الوحيدة التي كتبها في حياته وبالكثير من قصائده التي نشرت في أكثر من ديوان .

والثالثة : صبية تعشقها في كبره وتكتم أكثر أمرها عن أقرب المقربين إليه وأصبح من حقه على النقاد والدارسين والتاريخ أن يسكتوا عنها ولا يلحوا في كشف الستار عن حكايتها .

وأما الثانية : - ومعذرة إذا كنت قد قلبت المنطق فذكرتها بعد الثالثة – فهي مادتنا الرئيسـية اليوم ، في حديثنا عن ديوان جديد للعقاد ، ظهر منذ أيام يحمل اسم: ما بعد البعد .

الثانية – وكان ذلك منذ ربع قرن بالتمام والكمال – كانت يومئذ من أجمل السمراوات اللوائي يمثلن سمرة ماء النيل .

وقد هام العقاد بسـمرتها إلى حد أنه ثار حينما علم أن الملك قد أمر بتغيير لون العلم المصري من اللون الأحمر إلى اللون الأخضر ، وطالب بأن يكون اللون الجديد هو الأسمر .

قال العقاد ، في أبيات عنوانها «خيانة عظمى» :

لو صـورت مصـر لنا

كيف تكون يا ترى؟

ألا تكون دمية

كابنة مصر منظرًا؟

أو موجة النيل جرت

تبرا ، وفاحت عنبرا

فاتخذوا رايتكم

سمراء يا أهل القرى

أحبها العقاد حبًا كبيرًا ...

وعرفنا يومئذ ، وبعد يومئذ ، الكثير من أمر قصة الحب هذه ..

وفي ديوان العقاد الذي صدر بعد رحيله «ما بعد البعد » .

يصور إلى حد كبير مشاعر الحب ونفحات القلب وشعور المحب ونهاية ذلك الحب ، مما يفهمه القارئ اللبيب بضـمة إلى مثيله في ديوان – أعاصير مغرب – فتخرج له صورة متكاملة لتلك المحبوبة السمراء .

ولهذه السمراء «لوحة » في حياة العقاد ..

قصـة هذه اللوحة ، أن الحبيبة السـمراء بعد أن تملكت قلب العقاد ، جاءته ذات يوم تقول له أنها قد تلقت عرضًا للاشتغال بالسينما .

وقاوم العقاد هذه الفكرة مقاومة جبارة ، كما يفعل كل عاشـــق كبير ، أراد أن يستأثر بها وحده ، لا يشاركه في المتعة بجمالها الأسمر أحد من الناس .. قائلاً لها:

سـمـاتـك الـحسـنـاء مـلـكـي أنـا
وحـدي ، أرى فـيـهـا خـفـايـا الـجـمـال

إذا رأوهـا فـاتـهـم نـورهـا
ولـم يـطـيـقـوا مـنـه غـيـر الـظـلال

لـو لـم تـكـن مـلـكـي ، لـمـا حـرمـت
يـومًـا عـلـيـهـم ، وهـي سـحـر حـلال

وطالت متعة العقاد بها ، متعة روح وحس ، وسـعد كما لم يسـعد حتى مع سارة ، وراح يصف كل هذا في أبيات عنوانها «سعادة الحب» .. وهي أبيات جريئة لم يكتب العقاد مثلها – بصراحتها في حياته :

وأحـب مـا في الحـب ، أنـت سـألتني
عـنـه ، وأنـي بـالـجـواب لـعـالـم

مـتـجـردان .. ويـمـلـكـان سـعـادة
لـكـلـيـهـمـا ، لا يـحـتـويـهـا الـعـالـم

يـتـمـلـيـان الصـحـوة الـكـبـرى ، وقـد
سـعـدا بـأسـعـد مـا رآه الـحـالـم

ولعلهما تناقشا في حكاية السينما مرات ومرات ..

ولعله قال لها أنه لا يحب أن يكون جمالها متاعًا مشـاعًا للجميع . ولعلها قالت له وهي تحاوره ، أنه إذا كان يقصـد الحلال والحرام ، فهل ما بينهما حلال ؟

ولعله أجابها بقوله أن المرأة التي تهب نفسها لرجل واحد يستأثر بها وبالمتعة بها وحده بغير شريك ، لا ترتكب أمرا إدا ، بل هي – في عرفه – مصونة وممتنعة . هذا ما نفهمه من هذه الأبيات ، وعنوانها «أجيبي» .

أجيبي يا بنية واستجيبي

فما يحص المحاسن مستطاع

وليس الحب مبتذلا ، إذا لم

يكن في البذل تسليم مشاع

أحبك مرتين ، إذا تأتي

متاع هواك ، واتصل المتاع

إذا التسليم عز على محب

سواي ، فذاك صون وامتناع

ولكن حلم السينما ظل يراود السمراء ويلح عليها ، حتى تغلب على حبها للعقاد وعرف العقاد الأمر ..

وجاءت تزوره بعد ذلك ، فثار في وجهها ثورة عارمة ، ولفظها إلى الخارج ، وأغلق الباب ورائها وقلبه بتأرجح بين الأسى والأسف .

وأخذت السمراء طريقها إلى الشاشة ، وتألقت عليها فهل هدأت ثائرة العقاد ؟

هل نسيها .. أو راح يتعذب بها ؟

أن هذه الأبيات ، وعنوانها «بنت الفن» .. تكشف لنا أنه لم ينسها ، وأنه راح يحاول أن ينتقم منها بالكلمة ، في غمرة شعوره بذلك اللون من الشعور الذي يسميه علماء النفس : الحب – الكراهية ..

وهي أبيات مرة قاسية ولا ترحب بها أية مشتغلة بالفن :

أفي حجرة النوم أم قاعة العرض

.. جمهور فنك مستحضر ؟

ومن تعرفين ؟ أمام الستار ..

أم خلفه دائمًا أكثر؟

وهل أنت نجم ، لأن النجوم

في ليلها أبدا تسهر ؟

أمـور إذا مـا احـتـواهـا السـؤال
فـالسـائـلـون بـهـا أخـبـر
فـمـا تـبـرزيـن ومـا تسـتـريـن
بـغـيـر شـعـاع لـهـم يـظـهـر !

ولم ينسها العقاد بسهولة ..

وراح يلتمس كل وسيلة للنسيان ، فكانت أنجح وسائله هي تلك اللوحة التي أشرت إليها إشارة عابرة .

طلب العقاد إلي صديقه الفنان صلاح طاهر أن يعينه على النسيان ، برسم لوحة كبيرة .. تمثل «تورتة » مزركشـة فاخرة ، تحوي أجمل ما تحوي من الحلوى ، وقد هوم عليها الذباب وتكاثرت عليها الصـراصـير . «التورتة » الجميلة .. ترمز إلى السـمراء .. والذباب .. يرمز إلى الجو الذي عاشـت فيه السمراء .. جو المنتجين والمخرجين والممثلين .

والصراصير .. هي الجماهير !

وأنجز صـلاح طاهر اللوحة ، وقدمها للعقاد ، الذي علقها في غرفة نومه أمام مخدعه .

وبعد أيام ، وبهذه الوسيلة ، نسى العقاد ..

ولكنه خشـى أن يرفع اللوحة من حجرته ، فيعاوده الحنين إلى سـمرائه ، فأبقى عليها .. وبقيت في غرفة نومه سنوات طويلة إلى أن أدركته رحمة الله.

وكان الكثيرون من أصـدقاء العقاد يزورونه في بيته ، ويرون هذه اللوحة ولا يفهمون من أمرها شيئًا ، ويستغربون أن يحتفظ العقاد على عبادته للجمال بهذه اللوحة العجيبة .

ويفوتهم أن هذه اللوحة تحمل تعبيرًا عجيبًا ، اسـمه : الجمال – القبح و «الجمـال والقبح » .. هو الجزء الآخر من المعـادلـة التي أولهـا الحـب – الكراهية !

إلى هنا تنتهي قصة هذه «الغرامية» في حياة العقاد .

لكن الكاتب الصحفي مصطفى أمين (١٩١٤ – ١٩٩٧) يلقي لنا المزيد من الأضـواء عن غرام العقاد بهنومة خليل الشـهيرة باسـم الممثلة السـينمائية «مديحة يسـري»التي عرفها وعشـقها بعد أن اجتاز سـن الأربعين ، وقد بلغ حينئذ ذروة النضج الفكري والعاطفي ، لكنه أحس أنه قد دخل مرحلة الغروب فازداد حنينه لتجديد شـبابه ولهفته لحب جديد في حياته لأن قلبه كان لا يزال يخفق بالعاطفة وشعر أنه في حاجة لحب جديد يسعد قلبه ويروي ظمأ روحه العاشق كان ذلك في عام ١٩٣٩ وقد تجاوز العقاد سن الأربعين وكانت هنومة (مديحة يسرى) لم تتجاوز العشرين بعد من عمرها لكن قلب الشيخ العاشق

أحب فتاة العشرين بكل عنف فكان ذلك الحب العاصف أشبه بالإعصار الذي هب على قلب الشاعر العاشق والمفكر العملاق فهز كيانه وزلزله ، وجعله يستوحي منه ديوانه أعاصير مغرب وكأنه يرى أنه حبها له أشبه بإعصار كاسح هي عليه وهو في مغرب عمره يقول مصطفى أمين[1] :

«كان الكاتب الجبار عاشقًا رقيقًا ، لا يتوقف قلبه عن الحب . أحب وأحب وأحب . كان يخرج من حب كبير ليدخل في حب أكبر ، وكان يداوي الحب بالحب . وتحدث شعره وتكلمت كتبه عن كل امرأة عشقها . وكان يضحك ويقول إن قيسًا لم يفضح ليلي وإنما شهرها ، وأنطوني لم يشهر بكليوباترا وإنما خلدها ، وقد أحب امرأة مشهورة واحدة هي الكاتبة مي زيادة ، وكانت أشهر منه . أحبها وهو في والسفح وكانت هي في قمة الجبل ، كان كاتبًا شابًا وكان ينافسه في حبها رجال مشهورون يجلسون فوق قمة الجبل .

وما لبثت مي أن وضعت العقاد الشاب على قمة قلبها ، جعلته سلطانًا على قلبها وجعلت الآخرين حاشية في قلبها الذي كان يشبه قصر السلطان لكثرة ما يتردد عليه من وزراء وكبراء ! وكان العقاد يسخر أحيانًا من مي ويقول لها : «إن قلبك مثل نادي محمد على لكثرة ما يتردد عليه من عظماء !! » وكان نادي محمد على «نادي التحرير الآن» أكبر نادي في القاهرة وكان يجمع الكبار والعظماء والوزراء ! وكان العقاد يضيق بمنافسيه مع أنه وحده كان يأكل الفاكهة ويترك للعشاق الآخرين القشر والبذور . وكانت مي تحب العقاد الرجل وتعشق جبران خليل جبران الكاتب ، مع أنها كانت تقابل كل يوم العقاد في جريدة المحروسة التي يملكها والدها ولم تلتق بجبران طول حياته مرة واحدة ، وكان العقاد يغار من هذا الرجل الذي كان بينه وبين مي بحار وقارات بينما كانت مي بين ذراعيه ، واستطاعت مي أن تثير غيرة العقاد العنيفة بحديثها المستمر عن الشاعر الشاب الذي يعيش في أمريكا ، وكانت هذه الغيرة العمياء لا تخمد الحب بل تزيده اشتعالاً . وكانت كبرياء العقاد تمنعه أن يتلوى من الألم . ولكن مي كانت تعرف أنه يتعذب ، وكانت تجد متعة لا حد لها بهذا العذاب . وتبادل العقاد ومي خطابات الهوى والغرام . وكان العقاد يكتب لها أكثر مما تكتب له ، كانت المرأة الوحيدة في حياته في تلك الأيام . وكان الشاب الأسمر العملاق يعاملها أحيانًا كملكة ويتغزل فيها ويتغنى بهواها ثم فجأة يثور عليها . ويخلعها من عرش الحب الذي تستوي عليه ، ثم يعود إليها أكثر عشقًا وأكثر غرامًا . وكان ينافسه أحيانًا أستاذ ذلك الجيل أحمد لطفي السيد . وكان أحمد لطفي السيد فيلسوف عصره . وكان يكتب خطابات غرام لمي كلها فلسفة . وكانت مي تحب ذلك الحب العجيب الذي يفلسف القلب وفي الوقت نفسه تحب الشاعر الذي يحترق ويحرقها ، ويحبها ويلعنها ، ويتعبد بها ثم يكفر . ويقبل عليها ثم يدبر . وكانت مي تقول لصديقاتها إن العقاد سريع الرضا سريع الغضب يقدم لها وردة في الصباح ويلقي عليها حجرًا في المساء ! وكانت تسمي حبه «الحب المتعب» .

(١) مصطفى أمين / شخصيات لا تنسى / دار المعارف / ١٩٨٥ .

ولم يكن العقاد يكره الكاتبة مي في يوم من الأيام فقد كانت كراهيته هي قمة العشق ، وروى العقاد أنه عرض عليها يومًا الزواج فابتسمت وقالت : « إذا حدث هذا فيجب أن يتم الزواج في قسم البوليس . لأننا في كل ساعة ستقوم بيننا خناقات ومشاجرات . ولابد من وجود جندي بوليس ليصلح بيننا » !

ومن هذه الخلافات بين المحبين فقد كان العقاد يقول إن أسعد أيام حياته هي التي أمضاها مع الكاتبة مي ، وأشقى أيامه هي التي قضاها مع السيدة التي أطلق عليها اسم سارة ولم يكن هذا اسمها ، فقد كانت متزوجة — وكانت هي وزوجها على قيد الحياة عندما ألف العقاد قصتها المشهورة . وبدل وغير في شكلها وفي وضعها حتى لا يحرجها أمام زوجها ، وإذا كان العقاد قد ذاق طعم السعادة مع مي إلا أنه ذاق مرارة الشقاء مع سارة ، فقد كانت امرأة تهوي أن تلعب بقلوب الرجال كانت تعشق لتخون ، وكانت تخرج من بيت العقاد لتذهب إلى لقاء شاب آخر . ويقرر العقاد أن يضع نهاية لهذه المهزلة فيطردها من بيته ، فإذا بها تعود إليه فيكتشف أن الحب الذي مات بعث حيًا من جديد أو يكتشف أنه وارى هذا الحب التراب وهو لا يزال ينبض ، ولم يطفئ التراب النار بل زادها اشتعالاً ، وكان يطلق الحب بالثلاثة ثم يكتشف أنه لا يزال يسري في دمه .

وذات يوم كان العقاد يقلِّب إحدى المجلات المسرحية فرأى صورة فتاة صغيرة سمراء تقول إنها تلميذة مدرسة الفنون في شبرا إن هوايتها التمثيل ، وقرأ في عيني السمراء سحرًا جذبه .

إنها مختلفة عن مي وعن سارة . كل منهما امرأة كاملة الأنوثة . وجد في عيونهما كل معاني الإغراء والجاذبية ولكن في عيني هذه التلميذة الصغيرة براءة فتنته أكثر من سحر هاروت وماروت .

وطوى المجلة ثم عاد وفتحها من جديد ، وانشغل بعدة أمور ولم يستطع أن ينسى هاتين العينين السوداوين الكبيرتين اللتين كانتا تنادیانه من كل كتاب يقرأه ، وعجب من نفسه أن يتحول فجأة من رجل إلى مراهق . لقد رأى في الصحف والمجلات ملكات جمال العالم وممثلات السينما ، ولكن لم يحدث له مرة واحدة أن عشق امرأة من صورتها ! كان يعشق المرأة بعد أن يسمعها تتكلم الذكاء يستهويه . وخفة الروح تخضعه وجمال الشخصية يأخذ بتلابيبه . آلاف النساء صورهن جميلة ، وحقيقتهن بشعة ، تهواها وهي صامتة وتنفر منها إذا تكلمت ، كم رأى نساء رائعات الجمال في صورهن الفوتوغرافية فإذا التقى بواحدة منهن شعر أنه يلتقي بثلاجة أو فريجيدير . وعرض صورة الفتاة على بعض أصدقائه ومريديه وإذا بواحد منهم يقول إن هذه التلميذة هي صديقة لأخته التلميذة في مدرسة الفنون بشبرا ، فطلب منه العقاد ان يدعو التلميذتين إلى صالونه الأدبي يوم الجمعة الذي يقيمه العقاد كل أسبوع ويتردد عليه تلاميذه ومريدوه .

ودخلت التلميذة هنومة خليل مع صديقاتها وشقيق الصديقة إلى الشقة التي يسكنها العقاد في ضاحية مصر الجديدة ، ولاحظت هنومة أن الجدران كلها مغطاة بالكتب . كتب في المدخل وكتب في الصالة وكتب في الصالون ورأت رجالاً كبارًا وشبانًا صغارًا يملأون مقاعد الصالون عرفت بعد ذلك أن بعضهم طلبة في الجامعة وبعضهم أدباء وبعضهم شعراء وبعضهم كبار الموظفين . ورأت رجلاً فارع الطول يقف ليستقبلها ، وما كاد الجالسون يرونه واقفًا حتى وقفوا إجلالاً واحترامًا . وكان يرتدي بدلة داكنة ، ويلف حول رقبته كوفية . ودعا العقاد هنومة أن تجلس في مقعد قريب منه ، وجلست مذعورة شعرت أنها تجلس في حضرة شخصية عظيمة ، الذين حوله يعاملونه باحترام وإجلال . ولأول مرة في حياتها عرفت من هو العقاد . قبل ذلك لم تكن تعرف اسمه . ولم تقرأ له مقالاً ولم تر له كتابًا. ومضى العقاد يكمل الحديث مع مريديه كأنها ليست موجودة ، ثم التفت إليها وسألها في صوت مهيب ماذا تقرأين ؟ ما هي هواياتك ؟ ماذا تريدين أن تكوني في مستقبلك ؟ وأحست هنومة بالسعادة لأن هذا العملاق الكبير مهتم بها . ويريد أن يعرف كل شيء عنها ،وعندما سألها عن هوايتها قالت : الرسم والتمثيل. وسألها لمن من الكتاب تقرأ ؟ ..

وعجزت هنومة عن الرد فإنها لم تكن تعرف اسم كاتب واحد ، لا باللغة العربية، ولا بأي لغة وتلعثمت قليلاً ثم قالت : أنا لم أصل بعد لأن أقرأ لكبار الكتاب . لأنني لا أدرك معنى الكلمات التي يستعملونها ، وإنما أحب الأفلام الغرامية الرومانسية .

وقهقه العقاد . وانزعجت هنومة من طريقة ضحكته أنه يسخر منها ويهزأ وشعر هو أنه جرحها ، فأقبل عليها يقول مبتسمًا :

طيب ! ألم تقرئي شيئًا لعباس محمود العقاد ؟

قالت : لا !

فضحك مرة أخرى وعاد يقول :

ألم تقرئي لهيكل «حياة محمد » ألم تقرئي لتوفيق الحكيم «عودة الروح »

قالت هنومة :

لا أعرف أحدًا منهم . أقرأ القصص الغرامية البسيطة والكتب غير المعقدة.

وعاد العقاد يضحك لبراءتها وصراحتها . وفي أثناء ذلك تسلل التلاميذ والأصدقاء ، وقد شعروا أن العقاد أقبل على محادثة هذه التلميذة الصغيرة ونساهم أجمعين ، وبقى في الغرفة أربعة : العقاد وهنومة وصديقتها وشقيق الصديقة .

وقام العقاد من مقعده واتجه إلى دولاب في الغرفة ، وفتحه وأخرج كتابًا واستدار لهنومة وقال لها :

اعتبري نفسك تلميذتي ابتداء من اليوم سيكون في هذا البيت جامعة أنت تلميذتها الوحيدة .

وارتعشت هنومة . كيف تدخل الجامعة وهي لم تحصل على شهادة الإعدادية والشهادة الثانوية ؟

ومضى العقاد يسألها هل تقبل أن تدخل جامعته .

واستطاعت هنومة بعد جهد أن تفتح فمها ، وتقول : لي الشرف .

وناولها العقاد كتاب «عبقرية محمد » وهو يقول :

خذي هذا الكتاب واقرئيه جيدًا . كل كلمة أو جملة لا تفهمين معناها ضعي تحتها شرطة ، وعندما أراك المرة القادمة فسوف أفسر لك مالا تفهمين ! ..

وسألته هنومة ومتى تكون المرة القادمة ؟ أجاب العقاد : غدًا !

وفي الوقت نفسه شعرت بالسعادة أن تلقى هذا الاهتمام من أستاذ كبير ، وفي الوقت نفسه شعرت بالرعب لأن الامتحان سيكون غدًا ؟ متى تقرأ الكتاب ؟ ومتى تستوعبه ؟ ومتى تفهمه ؟ .. وأحس العقاد بحيرتها وخوفها فقال لها : يكفي أن تقرئي صفحة واحدة !

ولم تنم هنومة ، بقيت طوال الليل ساهرة تقرأ الكتاب ، تحاول أن تفهم فتعجز ، تعود إلى قراءة الصفحة من جديد . كانت تشعر أنها مقدمة على امتحان خطير ، شعرت برغبة عجيبة في أن تنجح في هذا الامتحان . لم تقرأ صفحة واحدة بل قرأت عدة صفحات وذهبت في اليوم التالي إلى بيت العقاد . واستقبلها الأستاذ مرحبًا . ووجدته ممتحنًا عطوفًا إذا أخطأت صحح خطأها في لطف ، وإذا نست ذكّرها ، وإذا تلعثمت شجعها . وبعد عدة لقاءات تحولت محاضرات الجامعة إلى قصة حب ! كانت كلما انتهت من كتاب أعطاها كتابًا آخر ، أعطاها عبقرية عمر وعبقرية على وكتابه عن سعد زغلول .

وبدأ يحكي لها عن سارة . لم يعطها القصة لتقرأها ، وإنما جلس يروي لها القصة من أولها لآخرها ، بأسلوب ساحر ، بتفصيل دقيق ، جعلها تعيش في قصة حبه الكبير حتى تمنت في لحظة من اللحظات أن تكون سارة الجديدة ، كان يناجي سارة وكأنها يناجيها . يصف المرأة القديمة وكأنه يصف التلميذة الجديدة كان حديثه عن الحب فيه حرارة وصدق ، وكان يروي القصة كما حدثت بغير أن يدخل عن الحب فيه حرارة وصدق ، وكان يروي القصة كما حدثت بغير أن يدخل إليها خيال الكاتب أو لغة الشاعر ، وكانت قصة مثيرة جعلت هنومة تحب سارة وتكرهها ، تريد أن تسمع من العقاد كل شيء عن سارة ، وتريد في الوقت نفسه أن لا يذكرها وينساها !

وفوجئت به يضع لها جدولاً مثل جدول الحصص في المدارس . نصف ساعة لغة عربية ، نصف ساعة لغة إنجليزية ، نصف ساعة تاريخ الفنانين ، يدير أسطوانه لبتهوفن ثم بعد أن تسمعها يروي لها قصة الفنان العظيم . وفي يوم آخر يدير اسطوانة لسيد درويش . ويحكي لها عن حياته ومغامراته وحبه وموسيقاه ! كان يصحبها في حياة كل فنان عظيم سواء كان شاعرًا أو موسيقيًا أو رسامًا أو مثالاً !

وشعرت هنومة أن الأستاذ يريد أن يخلقها من جديد لا يريد أن ينزل إلى مستواها ويحدثها بلغتها ، بل يريد أن يرفعها إلى مستواه ليحدثها لغته ، كان اللقاء خليطًا من العلم والحب ، ومزيجًا من الأدب والهوى .

وفوجئت هنومة بهذا المزج العجيب بين العاشق والأستاذ . وبدأت تشعر نحوه باحترام عجيب ولكنها لم تحبه . شعرت أنه أكبر كثيرًا من أن تحبه فتاة صغيرة مثلها . كانت تشعر أنها واقفة على الأرض وأنه جالس فوق قمة الأهرام . وعندما يمد ذراعه الطويلة ليرفعها إلى سمائه لا تصدق أذنها ما تسمعه من كلمات الغزل ، ولا تصدق عينيها وهي ترى العملاق يتحول إلى عاشق ولهان .

وكان من الممكن أن تحبه لو كانت أكبر سنًا مما هي . ولولا أنه حاصرها وأصبح يراقب حركاتها ويتتبع خطواتها ! كانت تذهل من أنه يعرف كل شيء عنها، متى خرجت ؟متى دخلت ؟ . أين ذهبت ؟ وخيل لها في وقت من الأوقات أن كل تلاميذ العقاد أصبحوا مباحث ومخابرات تقدم تقارير يومية عن تصرفاتها . بل خيل إليها أحيانًا أن كل قراء العقاد يعملون عيونًا عليها .

ذات يوم طلب والدها منها أن تلقاه في ساعة معينة في محل الحلواني أسديه بشارع فؤاد – أي ٢٦ يوليو الآن – وذهبت هنومة إلى الموعد ففوجئت بالعقاد جالسًا مع أبيها . تراجعت إلى الوراء فزعة . كيف استطاع العقاد أن يعثر على أبيها ، وأن يتعرف به ، وأن ينشئ صداقة معه ، وفهمت أن العقاد يريد أن يعرف كل شيء عنها حتى ما يجري في داخل بيتها وازداد فزعها وخوفها من هذا الحب الذي يضيق عليها الخناق !

ولم تفكر أن تخونه وإنما فكرت أن تهرب منه . شعرت أنها تهرب من جنة لها أسوار عالية تحولها إلى الجحيم .. كل خطواتها محسوبة .. كل كلماتها مراقبة . كل حركاتها موضع سؤال أو استجواب أو تحقيق دقيق .

وكان يناجيها بالشعر ، وكانت هنومة تفهم شعره حينًا ولا تفهمه أحيانًا ، وكانت تعرف من كل قصيدة إذا كان يهجوها أم يتغزل فيها . وكان إذا غضب عليها كره كل النساء ، وإذا رضي عنها مدح كل النساء !

واعتاد في مطلع كل عام حب أن يكتب في بدايته تقويمًا له ، فعن العام الأول كتب يقول لها :

تقويم هذا العام من لحظاته الأولى لديك

قومي ارفعيه إرفعي وارفعي عنه الغطاء براحتيك

من يوم مطلعه إلى رجعاه .. موقوف عليك

في العام الثاني للحب كتب قصـــيدة «عام ثان» وفي العام الثالث كتب قصيدة «عام ثالث» وفي العام الرابع نظم قصيدة «عام رابع» جاء فيها :

عـدنـا .. وعـاد بنـا الهوى في ملتقـانـا كـل عـام !

دارت عـلـيـنـا كـواكـبـه .. وطـاب لـنـا الـمـقـام!

حـب يـدوم وعـالـم أبـدا يـدور عـلـى الـدوام!

مـن كـان يـحسـب والـهوى يـخـطو لأول عـامـه

أنـا سـنـتـبـع رابـعًـا مـنـه لـيـوم تـمـامـه

آمـنـت بـالـعـهـد الـذي يـطـوي الـمـدى بـدوامـه!

ووصف العقاد أعوامه الأربعة مع التلميذة الصغيرة فقال :

راضـين تمضـي في الحيـاة وتـارة تغضـبينـا

وعلى كلا الحـالين نمضـي بـالعواقـب واثقينـا

متشـوقين إلى اللقـاء . وإن كتمنـا الشـوق فينـا

كـم مـن شـمـوع عـاودتـنـا طـائـعـات راجـعـات

ألف ، وفوق الألف مـا شـاء الحسـاب من المئات

مـهمـا اختلفن فحبنـا نور يضـيء مـدى الحيـاة

ومع كل هذا الحب كان لا يثق فيها ، ولا يطمئن لها ويسـألها في القصـيدة «أوفيت لي ؟ ويجيب عنها كلا ! »

وأحيانًا يلوم نفسـه لأن الخريف عشـق الربيع ! رجل كبير يحب امرأة صـغيرة . وأحيانًا يصـف هذا الحب بأنه حب أحمق . ويقول إن افتتانه بهذه الصغيرة هو العجب العجاب !!

وكان يريد منها أن تلازم بيتها ، ولا تخرج منه لتذهب إليه . لا تزور أحدًا ولا يزورها أحد ، وذات يوم طلب منها أن تصـنع له بلوفر ، ووقفت هنومة فوق كرسي لتأخذ مقاس العقاد ، وصحبها إلى محل في شارع سليمان باشا أمام سينما مترو ، اشترى معها الإبر والصوف . وفهمت هنومة من هذا أنه يريد أن يبقيها في البيت حتى تنتهي من صـنع البلوفر ، فقد كان طويل القامة عملاقًا وكان عريض المنكبين، وفهمت هنومة من هذا التكليف أنه يحتاج إلى عدة شهور تبقاها في البيت لا تخرج ، وعادت إلى محل الصوف في شارع سليمان وأعطته مقاس العقاد وأعادت له الصوف وطلبت من المحل أن يصنع البلوفر !

وتم صـــنع البلوفر .. وقدمته له . وكان العقاد يريد أن تفكر فيه هنومة في «كل شكة إبرة » ولم يفت هذا الاحتيال على ذكاء العقاد ، واكتشف أن هنومة لم تصـــنع له البلوفر كما كان يتمنى ، بل أعطته لمصـــنع بلوفرات ! وانهال بالأسئلة والاستجوابات .

كان محققًا بارعًا ومخبرًا صـحفيًا لماحًا ، وما زال حتى اعترفت بما فعلته ويومها نظم قصيدة يقول لها فيها : « خوني .. فأنت أحلى من الوفاء » !

وكان يحس أنها القيثارة التي يعزف عليها ألحانه ، وفجأة يشعر أنها ليست قيثارته وحده ، وأن آخرين عزفوا عليها كما عزف ، فيحطم القيثارة ويقول : « حطمتها .. حطمتها ! .. ولا أقول آسـفًا ، ولا أقول راضـيًا . ولكنني إن لم أحطمها حطمتني » !

واسـتراح أنه حطمها ، وأن التراب يغطي بقاياها ، وأن السـوس بدأ ينخر فيها ، وأن الليل يخيم عليها ، انتهى كل شيء نساها إلى الأبد ! لم تعد الشمس عليها ، لا يلوح لها خيال .. ثم فجأة يجد القيثارة المحطمة تعود إليها الحياة تجمع حطامها ويعجب الشاعر أن القيثارة الفانية عادت إلى الحياة عادت تغني من جديد فيصيح قائلاً : « قيثارتي ! قيثارتي ! غني وغني واسعدي » ! هذا الحب العجيب الذي ملك قلب العملاق كان يدهش أصـدقاءه وكانوا لا يفهمون كيف ينسـجم الكاتب الجبار مع هذه التلميذة الصـغيرة ؟ كيف يتفاهم العالم العلامة مع فتاة لم تحصل على شهادة الابتدائية ؟ وكان العقاد يضحك ويقول : وأنا أيضًا لم أحصل إلا على شهادة الابتدائية .. انتظروا عشر سنوات وسوف تجدونها طه حسين !

وكان من المسـتحيل أن تصـبح هنومة طه حسـين . كانت معجبة بالعقاد الرجل ولكنها كانت ترتعد خوفًا من العالم العلامة كانت ترى المسـافة بينهما مسافة بعيدة لا تستطيع أن تقطعها .

كان يحدثها عن بيرون وشيلي وشـعراء البحيرة وشكسبير ، وكانت تريد أن يحدثها عن عبد الوهاب وفريد الأطرش وشـكوكو ! كان يسـتمتع وهو يروي كلمات الروائيين العالميين أمثال والتر سـكوت وشـارلس ديكنز وكنجزلي ، وكانت هي تسـتمتع بسـماع مسـرحيات يوسـف وهبي ونجيب الريحاني وعلى الكسار في الإذاعة .

وكان يطلب منها أن تحفظ مؤلفات الجاحظ والجرجاني والأصفهاني وتقرأ الأغاني ! وكانت هنومة تحفظ أغنية «بلاش تبوسني في عينيه» لعبد الوهاب . «ويا ريتني طير أطير حواليك » لفريد الأطرش !

وتقول هنومة خليل إنها لو كانت أكبر سـنًا مما كانت في تلك الأيام لاستطاعت أن تعبد الرجل الذي أحبها كل هذا الحب . فهي لم تستطع أن يحيط بكل هذه العظمة وهي تحيطه بذراعيها . كل ما عرفته أنه رجل عظيم من محيط ليس محيطها . فلم يكن العقاد في تلك الأيام كاتبًا شـعبيًا ، وإنما كان كاتب الخاصـة ، وكان عدد قليل من القراء المثقفين يقدرون قيمته الحقيقية ، فقد اعتزل السياسـة منذ عام ١٩٣٥ ، وانصـرف إلى وضـع كتابه عن سـعد زغلول وإلى كتابة «العبقريات».

وكان العقاد معجبًا بقصة بيجماليون لبرنارد شو الذي استطاع أن يحول فتاة جاهلة إلى سيدة مجتمع . وكان العقاد مؤمنًا أنه قادر أن يجعل من هنومة بيجماليون جديدة ، وقد نجح إلى حد كبير في أن يحول هنومة غير المتعلمة إلى سيدة مثقفة تقرأ وتطلع وتناقش ، ولم تشعر هنومة بهذا التحول الضخم الذي حدث فيها ، كانت مهتمة بأزيائها الجديدة وزينتها وشعرها وقوامها ومظهرها الخارجي ، وكانت عملية تجميلها من الداخل ترهقها وتتعبها . فلا تكاد تترنح من كلمات الحب حتى يفيقها العقاد بقصيدة لشكسبير . وكانت محاولة غريبة أن يخلق الكاتب الكبير من حاملة الابتدائية التي تتتبع باهتمام أفلام أنور وجدي وليلي مراد ، وتقف أمام المرآة تقلد كواكب السينما ونجومها أن يخلق منها أديبة مهتمة بأمهات الأدب العربي الكبرى كالأمالي والكامل والبيان والتبيين والعقد الفريد ونهج البلاغة . ولكن العقاد عندما كان يحب لا يؤمن بالمستحيل ، كان واثقًا أنه قادر أن يحول الصحراء إلى جنة خضراء وكانت هنومة مبهورة بالرجل الكبير . وكانت تشعر أنها غريبة في عالمه العجيب . تمامًا كما تجيء بطفل من غابات أفريقيا ، وتضعه في مجمع الخالدين في باريس . هنومة تعتقد بأنها تحتاج إلى سنوات وسنوات حتى تدخل جامعة العقاد وتتخرج فيها ، والعقاد يعتقد أنها لو أعطت كل وقتها وجهدها واهتمامها للأدب فسوف تستطيع أن تجمع بين فتنة الجمال وفتنة العلم !

وكانت هنومة تؤمن أنها لا يمكن أن تكون المرأة التي تخيلها العقاد . هي تريد أن تكون نجمة سينما ، ولم تسمع أن فاطمة رشدي أو عزيزة أمير أو راقية إبراهيم قرأت تلك الكتب العويصة التي كان أستاذها يريد منها أن تقرأها وتفهمها ، ووجدت هنومة أن الحل هو أن تهرب من جهنم الأدب إلى جنة الفن .. إنها تريد أن تستمتع بالحرية ، تمشي في الشارع ولا تشعر أن أحدًا يراقبها .. تخرج من بيتها بغير أن تنظر يمينها ويسارها خشية أن يكون أحد عيون العقاد ينتظرها ليكتب تقريرًا عن ساعة خروجها ، كان العقاد يريد أن يعرف متى خرجت من البيت ومتى عادت . إذا أحضر لها سيارة تاكسي تقلها إلى بيتها طلب من سائق التاكسي أن يعود إليه ليعرف منه إذا كانت توقفت في الطريق أو إذا كانت تركت التاكسي قبل بيتها .

وكان يثور بطريقة مخيفة إذا كذبت عليه . وذات مرة رأت أن تذهب إلى جروبي، مع بعض صديقاتها وفوجئت به أمامها . وكان عقلها صغيرًا فلم تفهم من كل هذا أنه دليل على هواه الجامح ، بل فهمته على أنه غيرته العمياء . ولم تفهم أنه يحاصرها ليحتفظ بها . وإنما فهمت أن يضيق عليها الخناق ليخنقها .

وكان يحكي لها أدق تفاصيل حياته وخصوصياته وإيراداته ، وكم يأخذ من كل كتاب يؤلفه ، وكان يريد أن تكون مثل كل امرأة أحبها ، وليست كواحدة منهن !

قال لها إنه أحب في مي زيادة ذكاءها وأنها كانت سيدة مجتمع .. » ولا أحب في سارة أنها امرأة خائنة ، فأنا أريدك سيدة مجتمع مثل مي ، ولا أريدك خائنة مثل سارة وإنما أريدك امرأة مثلها » !

وذات مرة كان يتحدث عن مي بحماس ، فاختلج صــوته ، وارتعشــت أطرافه ، وبدأت الدموع تترقرق في عينيه . أما سارة فكان لا يذكر اسمها إلا ويصــفها بالخيانة وينزعج من ذكرياته معها ، وكان يقول دائمًا ســارة عي عكس مي . الفرق بينهما هو الفرق بين الملاك والشــيطان . وكانت هنومة تســأله من تكون بين هاتين فكان يقول أنت الاثنان معًا . عندما تكوني بعيدة عني أتصورك شيطانًا ، وعندما تكوني بين ذراعي أراك ملاكًا !

وكان شــكه في ســارة يجعله يشــك في كل امرأة أخرى . وقد عذبته كثيرًا بخيانتها واســتهتارها وغدرها . وكان هذا هو الإطار الدائم الذي يضــع فيها صورة كل امرأة عرفها بعد ذلك . وبعد أن توطدت العلاقة بين العقاد وهنومة كان لا يسمح لأحد أن يراها .

يشك في كل إنسان .. في كل ابتسامة ، في كل ضحكة . في كل رجل . حتى إذا كان الرجل أصــدق أصــدقائه وأخلص خلصــائه ، إذا تأخرت عن موعد معه اعتقد أنها كانت في موعد غرام ، وإذا جاءت في الموعد اعتقد أنها فعلت ذلك لتخونه وهي في طريقها إلى بيتها . ويقول لها : إن الوفاء ليس طابع المرأة وإن الخيانة هي القاعدة والأخلاق هو الاســتثناء . ولم يكن يتهمها لأنه تأكد أن لها علاقة برجل آخر ، بل كان يتهمها لأنه لم يعد يثق في امرأة بعد أن خانته ســارة ولقد عرف العقاد كل رجل خانته ســارة معه ، أو ابتســمت له ، أو صــافحته أو حدثته في التليفون ، وكانت ســارة تعجب من كشــفه لكل أســرارها وخباياها ، وكأنه كان يختفي في داخلها . وكانت تقول لصــديقاتها إنه هو الذي شــجعها على خيانته بإصراره على اتهامها دائمًا بالخيانة وعلى دفعها للغش والخداع .

واســتطاعت أن تغافل العقاد ، فقد قرأت هنومة أن أفلام عبد الوهاب تبحث عن وجوه جديدة ، وأفهمت العقاد أنها ذاهبة لتزور خالتها ، وذهبت إلى مكتب عبد الوهاب وقبلوها في الفيلم الجديد .

واتصلت بالتليفون بالعقاد وقالت له :

سوف أشتغل بالسينما !

قال لها : أنت مجنونة .. تعالى عندي .

وقالت له : لن أعود أبدًا ! ..

وانفجر العقاد فيها وقال لها بصوت كالرعد : لابد أن تجيئي حالاً !

ولأول مرة في حياتها معه لم تشــعر بالخوف ، ولم تطع أمره ، ولم تذهب صــاغرة إلى داره ، كان معها عقد اشــتغالها في السينما فأحست أنها معها «خاتم السلطان» من قصة ألف ليلة وليلة . تدعكه فتفتح لها الكنوز !

ومثلت دورًا أمام محمد أمين .

وأحبها وعرض عليها الزواج ، وقبلت على الفور بغير تردد فقد كان كل ما تتمناه أن تتخلص من دور الصــعلوكة التي عشــقها الســلطان .. كانت تريد أن تكون فنانة في مهنة تحبها . على أن تكون أميرة في قصــر لا تطيقه . أصــبحت الحرية هي حلمها ، كأنها كانت تريد أن تعيش في كوخ مع رحل تستبد به .لا أن تكون في سراي محاطة بأسوار وحراس !

وأسرعت إلى التليفون وتحدثت مع العقاد وقالت له :

قل لي مبروك ! لقد عقدت أمس قراني على المطرب محمد أمين .

وأقفل العقاد السماعة في وجهها !

وأسرع العقاد واستدعى الرسام المعروف صلاح طاهر ، وطلب منه أن يرسم صورة لهنومة والذباب يغطي وجهها ..إشارة إلى الوسط الفني الذي انغمست فيه (١).

وغيرت هنومة اسمها باسم جديد ، وبقى العقاد يحبها من بعيد ، يتتبع أخبارها، ويبحث عن صورها في المجلات ، فإذا وجد صورتها مزقها وداسها بقدمه ، وإذا لم يجد صورتها عاد يقلب المجلة من جديد ! ثم تطلع إلى صورتها المعلقة والذباب يغطي وجهها ويبتسم في شماتة !

وكان يؤكد لأصحابه بأنه نساها ولم يعد يفكر فيها ولا يكاد يذكر أن في حياته كانت امرأة اسمها هنومة ، ثم يعود إلى الحديث عنها .

ولم يستمر الزواج بين هنومة والموسيقار محمد أمين طويلاً وانفصلا ، وعلم العقاد بالنبأ السعيد ، وتوقع أن تعود هنومة راكعة صاغرة ، ولكن هنومة لم تعد . نست أيامها الحلوة معه ولم تذكر إلا الليالي الشقية التي كان يضعها في قفص الاتهام! نست أنه عندما سافر إلى السودان عندما كان الألمان على أبواب العلمين أعطاها كل أوراقه الخاصة حتى خطابات مي الغرامية ، وطلب منها أن تحتفظ بها، وأوصاها إذا قتله الألمان أن تسلم هذه الأوراق إلى أشخاص معينين حددهم ، نست أنه كان يصر في حديثه أن تحدثه في التليفون مرتين كل يوم ، وفي كل مرة يطلب منها أن تعطيه النمرة التي تتحدث منها ليطلبها هو ، حتى يتأكد أنها تتكلم من نفس المكان الذي ادعت أنها تطلبه منه ، لم تر في هذا دليلا على العشق والهوى والهيام بل اعتبرته دليلاً على عدم الثقة . وعلى الشك ! إن أم كلثوم تقول إن الشك يحي الغرام . ولكن هنومة كانت تعتقد أن الشك يقتل الغرام .

وأحبت بعد ذلك النجم أحمد سالم . وجن جنون العقاد . فقد كان أحمد سالم شابًا جميلاً جذابًا ، وكان يعتبر في أيامه دون جوان مدينة القاهرة الذي تترامي على قدميه الجميلات والغانيات والممثلات !

وكان حبها ملتهبًا تتحدث عنه الصحف والمجلات . وكانت الصحف والمجلات تتحدث عن الحب العظيم بين الممثلة السمراء والنجم السينمائي الساحر !

ومات أحمد سالم فجأة !

وبقيت هنومة على وفائها لأحمد سالم . ورفضت أن تعود إلى العقاد وتزوجت بعد ذلك من الموسيقار محمد فوزي ثم طلقت منه واستمرت تقاوم الحب العظيم ، وطلقت من محمد فوزي وأصرت أن لا تعود أبدًا إلى الجنة التي خرجت منها ! .

---

(١) كانت اللوحة تمثل تورتة وقد تجمع عليها الذباب والصراصير كرمز لهنومة في الوسط الفني وقد علقها في حجرة نومه .

وكانت تتصل بالعقاد في المناسبات ، تسأل عنه إذا مرض ، وتهنئه في العيد ، وترحب به إذا عاد من السفر ، ولكنها كانت تصر على أن تكون صداقة في حدود الصداقة . وكان العقاد يرحب بهذه المحادثات التليفونية التي تعيد إليه أيام النجوى والعشق والغرام والهيام .. ثم تغلق التليفون ويعود وينظر إلى صورة الذباب يغطي وجه حبيبته من جديد !

***

هذه هي قصة غرام الكاتب الجبار عباس محمود العقاد ، والنجمة السينمائية الشهيرة «مديحة يسري» كما رواها صديقه الكاتب الصحفي الكبير مصطفى أمين الذي عاصر الحياة الفكرية والسياسية والفنية على مدى نصف قرن استطاع خلالها الاطلاع على العديد من الأسرار وكشف اللثام عن خبايا القلوب ، ومن بينها أسرار قصة العقاد وهنومة خليل !

***

وهناك حكاية طريفة عن غيرة العقاد الشديدة على فتاته الصغيرة « مديحة يسري» عندما كانت تتردد على استديوهات التصوير لإشباع رغبتها في حبها للتمثيل يرويها الأديب توفيق الحكيم (١٨٩٨ – ١٩٨٧) عام ١٩٨٤ تحت عنوان «العقاد كان يغار مني على حبيبته الصغيرة » وبطبيعته الحذرة المتوجسة لم يشأ أن يذكر اسمها . يقول توفيق الحكيم [(١)]:

«العقاد لم يكن متزمتًا فإن معلوماتي تسمح لي بالقول بأن (مغامراته) لم تكن كثيرة كما أشيع عنه .. فأنا أعرف أنه كان يحب فتاة في العشرين من عمرها ، وكان هو في الخمسين من العمر ، وكان يغار عليها كثيرًا ، وحدث أنني كنت مشغولا بالإشراف على تصوير فيلم (رصاصة في القلب) وهو فيلم كتبت قصته وشاركت في إعداد السيناريو له مع المخرج محمد كريم .

أقول : حدث أن فتاة العقاد ، وهي جميلة جدًا ، كانت تتردد على أماكن التصوير، على أمل أن يراها المخرج ويعرض عليها دورًا في الفيلم ، فلقد كانت تطمح في احتراف التمثيل وبلغ الأمر عباس محمود العقاد وقيل له أن توفيق ينظر إليها أكثر من اللزوم وإنها تتردد على أماكن تصوير الفيلم لكي تتعرف إلى توفيق وتتقرب منه .

وبدأ العقاد يتضايق مني وصار يروج عني أنني أكبر منه عمرا لعل هذا الكلام يصل إلى مسمع الفتاة ، وبصراحة ، فإن العقاد قد حافظ على الحد الأدنى من احترام صداقته لي ، لكنه بدا متشككًا تجاهي . إلى أن جاء من يقول له حقيقة الموضوع ويكاشفه بأن صديقته لا تطمع في توفيق وأنني من جهتي لا أطمع فيها وإنما هي تسعى إلى دور البطولة في (رصاصة في القلب) .

(١) صحيفة المساء / القاهرة ، ٢٠ مايو ١٩٨٤ .

اطمأن العقاد ، وأخيرًا وجد مخرج الفيلم للفتاة دورًا ثانويًا في الفيلم .

إنها حكاية أكشف عنها للمرة الأولى ولا أريد أن أذكر هنا اسم الفتاة ، مع أنها كانت معروفة من بعض الأصدقاء والعاملين في الوسط الفني ، فليس لي أن أتدخل في الحياة الخاصة للآخرين ، هذا مبدأ سرت عليه طوال حياتي ، كما أنني امتنعت دومًا عن الاقتراب من نساء أصدقائي .

***

وعندما استعاد الكاتب الصحفي أنيس منصور (١٩٢٤-٢٠١١) بعض ذكرياته عن أستاذه العقاد روى لنا بعض أطراف قصة «هنومة خليل» بعد أن عادت إلى حضور صالون العقاد بعد سنوات من فراقهما وما حدث من مناوشات أدبية من الشاعر الظريف كامل الشناوي (١٩٠٨-١٩٦٥) ، فيقول[1]:

«وعاد كامل الشناوي يقول : لقد جئت بالتاكسي مع الآنسة روحية القليني واختلفنا أين يكون البيت . وقلت لها : أنا أعرف بيت الأستاذ .. ودخلنا في شوارع لا أول لها ولا آخر .. ولمحت الأستاذ علي أدهم فسرت وراءه حتى جئنا معًا إلى هنا .. لقد كانت غلطتي أنني قلت للسائق : بيت السلطان سليم شارع العقاد رقم ١٣ .. وتركتني روحية القليني بخبثها المفاجئ .. ولم أعرف أن البيت هو رقم ١٣ شارع السلطان سليم إلا عندما دخلنا هذا الشارع .. إن مشكلتنا أسهل من المشكلة التي سيواجهها الجيل الجديد .. سوف يحجون إلى هذا البيت ، وسوف يلعنهم سائقو التاكسي .. لأنهم سوف يقولون : بيت العقاد شارع العقاد .. هاها .. هاها .

ومن بعيد جاءت ضحكة عالية أنثوية .. فوقف العقاد .. أو حاول ذلك .. ثم تركنا وخرج .. وكان في استطاعة كامل الشناوي أن يدير صالونًا أكبر من صالون العقاد ، وأن يتحدث وحده لا شريك له .. وأن يأتي بالنكت والفكاهة في الأدب والسياسة .. وكان يضحك أكثر من كل الذين حوله .. لأنه يضحك بكل جسمه وملامح وجهه .. وكانت لديه القدرة الهائلة على أن يجعل كل الحاضرين طرفًا في أية حكاية .. فعنده لكل واحد منا قصة .. وبيت من الشعر .. ولذلك فهو قادر معلى أن يضحك حتى على نفسه .. ويبكيك أيضًا .. وهو يجرح ويداوي ، ويوجع ويواسي .. وهو صديقك بعد لحظات .

ثم نظر إلى الشاعرة روحية القليني وقال لها : تريدين أن تحتكمي إلى الأستاذ؟.. موافق .. إن شعر الأستاذ فلسفي في أعماقه .. حتى الغزل عند العقاد فلسفي .. ولذلك فهو محروم من التجاوب .. فالتي يتغزل فيها لا تفهمه ، ولا ترقى إلى مستوى عبقريته .. فهو كالصوت الجميل بلا صدى .. وكالمطرب الساحر بلا جمهور .. ولكن من المؤكد أنه شاعر عظيم وفيلسوف عظيم ومطرب عظيم .. والعيب في المعشوقة وفي الجمهور أيضًا .

(١) في صالون العقاد: أنيس منصور، ص٦٤٠.

وجاءت فتاة سمراء ممشوقة شابة حلوة .. كل شيء فيها مغسول بالنور : الوجه لامع ، والأسنان والعينان ، وأحمر الشفاة أيضًا ، وأصابعها وجوربها ، والسلاسل الذهبية في صدرها . وكان الحرج الشديد الذي أحست به عندما دخلت فوجدت كامل الشناوي ، فخلعت منظارها الأسود ، وراحت تنظر إليه بعينها .. كأنها أرادت أن تضيف سلاحًا قويًا إلى بقية أسلحتها لتواجه كامل الشناوي .. وعلى الرغم من أن كامل الشناوي كان أول من وقف وأول من مد يده، فقد صافحتني أنا الذي لا أعرفها ولا تعرفني ، ثم الأستاذ علي أدهم .. ثم سيدة قد دخلت وجلست بالقرب من الأستاذ .. ثم صافحت الآنسة روحية قائلة أهلاً يا قمورة !

قالت روحية القليني : أنا قمورة؟ إذن ، أنت سيدة الأقمار السبعة أو الشمس التي يختفي في نورها أجعص قمر !

ثم صافحت شابًا أزهريًا صغيرًا قد ارتدى عمامة بيضاء أنيقة ، وداعبته وهي تقول : سألناك الدعوات يا عم الشيخ عبد السميع .. والله العظيم والمصحف الشريف لقد وضعت الحجاب الذي اشتريته لي في حقيبة يدي وهنا (في صدرها) .. ومفعوله أكيد ، وأنا محتاجة إلى حجاب آخر أكبر .. لأن عندي مشكلة كبيرة جدًا .. وسوف أحدثك عنها .

آه لهذا غسلوا السلالم والبيت .

ثم صافحت كامل الشناوي ولكن بغير حرارة .. وتضايق كامل الشناوي .. وجلس وازداد وجهه سمرة واصفرارا .. وأخرج علبة السجاير .. ولم تكن السيجارة بين أصابعه قد احترقت تمامًا .. وأشعل سيجارة جديدة .. وراح ينظر إلى الأرض حين عاد الأستاذ وقال له : ماذا كنت تقول يا مولانا في غيابي؟

قالت روحية القليني : إنه يا أستاذنا خلاف تقليدي .. فقد كان العرب يقولون هذا أحسن بيت شعر .. وهذا أجمل بيت شعر .. وأحسن ما قال المتنبي .. وأجمل ما قال البحتري .. وأسخف ما قال ابن الرومي .. واختلفنا .

أما كامل الشناوي فقد استدعى كل ذكائه الاحتياطي ، وأسلحته السامة ، فقال بسرعة مذهلة : أنا والله يا أستاذ خطر لي الآن أن أجيب عن مثل هذه التساؤلات .. فسألت نفسي : يا ترى ما هي الأبيات التي تجمع كل فلسفة العقاد في الحياة .. والحب .. واليأس .. والتشاؤم .. والعظمة .. والكبرياء .. واحتقار أجمل ما في الحياة : المرأة .. والحب .. واحتقار ضعف الإنسان أيضًا .. إن أعظم وأروع ما وجدت في شعرك يا أستاذ تلك الأبيات التي تحكي عن تعبدك لامرأة ثم ترفعك عنها بعد ذلك .. كنت تراها مسجدًا ، فأصبحت كباريه .. ولما عرضت عليك نفسها رفضت أن تعربد في المكان الذي كنت تعبده ..

تقول يا أستاذ .. وما أروع ما قلت :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى

وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد

وألقاك جسمًا مستباحا وطالما

لقيتك جم الخوف جم التردد

رويدك .. إني لا أراك مليئة

بلذة جثمان ولا طيب مشهد

جمالك سم في الضلوع وعثرة

ترد مهاد الصفو غير ممهد

إذا لم يكن بد من الحان والطلا

ففي غير بيت ، كان بالأمس مسجدي !

وكان كامل الشناوي يلقي أبياته ويراقب أثرها في عيون الحاضرين .. أما الأستاذ فقد امتقع لونه ، وراح ينظر كثيرًا إلى السمراء التي جلست ملتصقة به .. والتي أعادت منظارها الأسود إلى وجهها .. أما الأستاذ علي أدهم فقد تصبب عرقًا .. وانسحب بمقعده إلى الوراء ، كأنه يتوقع شيئًا سوف يسقط من السقف أو من المقعد المجاور للأستاذ.. أو لعله أراد أن يتساند على الحائط ..

وخرجت السيدة السمراء .. ووراءها الأستاذ .. ووراءه الأستاذ صلاح طاهر .. إذن فلقد حدث ما كنت أتوقع .. أو لعل هذه هي البداية .. وفزعت الشاعرة روحية القليني وقالت لكامل الشناوي : ماذا جرى لك يا كامل بك؟ .. ماذا أصابك؟ .. ألا تعرف من هذه؟ ... إنها موضوع هذه الأبيات .. مصيبة سوداء .

ولكن كامل الشناوي قد طعنها بسكين ساخنة بأعصاب باردة .. وجعل موتها فخمًا أنيقًا .. كأنما قتلها ثم شيعها بأداء جميل وعلى مسمع من القاتل والقتيل والشهود . لم أر في حياتي انتقامًا أجمل وأعنف وأسرع من ذلك . وإن كنت لم أفهم ما الذي بينهما . ولماذا بهذا العنف .

وأطفأ كامل الشناوي سيجارته التي لم تحترق ، وأخرج ثالثة ، واعتدل في مقعده. وحاول بصعوبة شديدة أن يضع ساقًا على ساق .. ثم تمكن من ذلك في النهاية. وهذا هو الشيء الوحيد الذي يحسد عليه أصحاب الأجسام النحيفة : أنهم قادرون على أن يجلسوا على حرف المقعد ، وأن يضعوا ساقًا على ساق وأن يأكلوا خروفًا في الوجبة الواحدة ، ثم لا يصدقهم الناس إذا اعترفوا بذلك .. بينما كامل الشناوي لو أقسم على المصحف أنه لا يأكل أكثر من عصفور فلن يصدقه الناس !

هل هدأت الأصوات تمامًا عندما خرج الأستاذ مع السيدة الجميلة ؟ أو هل ما يزال كامل الشـــناوي يتحدث في أي شـــيء ؟، ولكن لم نكن قادرين على الاستماع إليه .. أو إننا لا نريد.. أو أننا في فزع مما سوف يحدث؟.. وإن كان الأستاذ عادة يزداد رقة مع ضيوفه كلما تورطوا في شيء .. إنه على يقين من شيء واحد يغفر لنا كل شيء آخر: أننا معجبون به وأشد الناس حبًا واحترامًا له! .

ولم يكد كامل الشناوي يشعر باقتراب الأستاذ حتى أسرع برفع الحرج عن الأستاذ وعن الجميع ، ومضى يتكلم وكأنه لم يقل شيئًا . وهو يبذل جهدًا كبيرًا في إخفاء معالم الجريمة التي ارتكبها ، فقال : ولكن رأيي النهائي أن أعظم ما قال الأســـتاذ . أو ما قاله أحد في هذه الدنيا ، بيتان ونصـــف .. ثلاثون كلمة جمعت كل الفلســـفة والحكمة والعدم .. فإذا كانت هناك فلســـفة «وجودية» (واتجه ناحيتي) فهناك فلســـفة «عدمية» .. وقمة العدمية هي التي جاءت في قول العقاد :

يا شمس ما ضرك لو لم تشرقي

يا روض ما ضرك لو لم تعبق

يا قلب ما ضرك لو لم تخفق

سيان في هذا الوجود الأحمق

من كان مخلوقًا ومن لم يخلق !

ثم ضحك كامل الشناوي قائلاً : فهل يا ترى سيان عندك أنني جئت وأنني لم أجيء .. أو من كان موجودًا في هذا الصالون أو من لم يوجد؟ .. هها .. هها .. إنني يا أستاذ أنتسب إلى مدرسة في الفلسفة اسمها الماليشية .. أو الماليشيدية .. وقد فكرت أن أشـــرح مبادئ هذه المدرســـة .. إنها لا تذهب إلى أبعد من المعنى الذي جاء في هذين البيتين والنصف .. وفي كثير من شعرك يا أستاذ .

قال الأستاذ علي أدهم : ولكن يا أستاذ كامل .. أنا لم أقرأ عن هذه المدرسة.

وضـحك كامل الشـناوي : عجيب .. رغم أنها كانت على أيامك .. هاها .. هاها .. بل ربما كانت هذه هي أقدم مدرســـة في الفلســـفة .. ومن أجل هذه المدرسة وبسببها ظهرت كل المدارس الفلسفية لتعترض عليها .

قال الأستاذ : تقول النيتشية؟ إن الشيخ أحمد أمين يفضل أن يسميها النيتشية ولا يقول النيتشوية نسبة إلى الفيلسوف نيتشه .. أو لعلك تقصد المانيشية .. وهي فعلاً مذهب فلســـفي .. نســـبة إلى الفيلســـوف ماني؟ ... وقد حاول هذا الفيلسوف الفارسي أن يكون مسيحيًا أيضًا . ولكنه لم يفلح .. بل رأينا القديس أوغسطين يعتنق هذا المذهب الفارسي المسيحي . ثم عدل عن هذا الرأي بعد ذلك .. ثم قضت محاكم التفتيش على «المانيشية» في العصور الوسطى .. وأنت الآن تفتح باب الانضـــمام إليها .. ولكن يا ســـيد كامل أنا لا أرى وجهة نظرك.. ولا أعرف إن كنت على علم كامل بهذا المذهب .. إنه قائم على أن هناك صراعًا بين النور والظلام .. بين الخير والشر ..

وأن هذا الصـراع أبدي .. وأحسـن وسـيلة للخلاص من هذا الصـراع هي الانسـحاب .. أو هي التفرج عليه .. وألا تكون طرفًا فيه .. ولذلك فالفيلسـوف ماني أو الرســول ماني يدعو إلى الزهد التام .. والامتناع عن أكل اللحوم .. وأنت تأكل اللحوم .. وأنت قاهر الظلام ، فأنت تنام نهارًا وتصــحو ليلاً .. ولعلك ما تزال نائمًا ، ولعل الذي تراه أضــغاث أحلام .. وأنك لا تدري تمامًا ماذا تقول؟!

لعل الأســتاذ يقصــد أن كامل الشــناوي لا يدري ما الذي قال ، وأنه كان يهلوس ، وأنـه يهذي كمـا يهذى النـائم عنـدمـا تلا تلك الأبيـات التي أطـاحـت بالسيدة السمراء!

الفصل التاسع : أسرار وغراميات العقاد المجهولة

هاتها وأذكر حبيب النفس يا خير تقاتي

ودع التلميح واجهر باسمه دون تقاة

أترى تحرم حتى ذكره في الخلوات؟

صفه لي صفه وما كان بمجهول الصفات

أترق أليق منه باصطياد المهجات

أترى أملح من خطرته في الخطرات

أترى أصبح من خديه بين الوجنات

ذهبي الشعر ساجي الطرف حول اللفتات

العقاد

أسرار وغراميات العقاد المجهولة !

هل كانت للعقاد غراميات مجهولة غير التي يعرفها القراء ورواها لنا في كتاباته وقصائده عن مي وسارة وهنومة ؟

وهل هناك أسرار ، ما زالت مجهولة في حياته العاطفية آثر أن يكتمها عن قرائه ومريديه ؟

كان الكثير من القراء والأدباء يظنون أن غراميات العقاد تنحصر في الملهمات الثلاث ، لكن الكاتب الصحفي الأديب كمال النجمي يزيح الستار هنا عن أخريات في حياة العقاد فيقول : [1]

«كانت مغامرات الأستاذ عباس محمود العقاد العاطفية – منذ منتصف العشرينات – تثير غمزات خفيفة أو ثقيلة في الصحف المعادية للوفد المصري وبخاصة المجلات الهزلية ، لأن العقاد كان من كبار الكتاب الصحفيين المدافعين عن السياسة الوطنية للوفد بزعامة سعد زغلول باشا ، فكان خصوم الوفد يتتبعون الحياة الخاصة لزعمائه وكتابه ابتداء بسعد زغلول ، وانتهاء بكل من يحمل قلمًا يؤيد به سياسة سعد !

(١) كمال النجمي / القلم والأسلاك الشائكة / كتاب الهلال / مارس ١٩٩٧ .

وكانت غراميات العقاد متواضـعة لأنه كان فقيرًا ، لم يقتن من وراء تأييده للوفد عمارة ولا ضـيعة ولا حتى سـيارة كما اقتنى غيره ممن جعلوا تأييدهم للأحزاب طريقًا إلى الثراء ، فصـار بعضـهم أصـحاب صـحف يومية وملاك عقارات في الريف والحضـر .. ولبث العقاد بينهم يكتب كل يوم منافحًا عن الوطنية والديمقراطية ولا تهفو نفسـه إلى امتلاك شـيء إلا امتلاك الكتب .. ! كانت غريزة التملك عنده لا تتعدى الرغبة في تملك الكتب وإقامة مكتبة خاصة يناجي فيها عرائس أحلامه الفكرية .

أما الغريزة التي تدفع الرجل إلى امتلاك المرأة فكانت عند العقاد في شبابه لا تجد لها طريقًا إلا الزواج على سـنة الله ورسـوله .. وكان العقاد مصـروفًا عن ذلك الطريق مكرها لا بطلا ، لأن مرتبه لم يكن يفي بغير طعامه وملابسه ومسـكنه وكتبه، مع أنه كان كاتب الوفد الأول ، وفي الطبقة العليا من أدباء عصره .

وهكذا تخبط العقاد في طريق المرأة أو تخبطت المرأة في طريق العقاد .. أما هو فطريقه إليها تتحكم فيه المصـادفات وأما هي فقد تعشـو إلى الضـوء الباهر المنبعث من اسـمه الشـهير فتجيء إليه يدفعها التطلع أو الفضـول أو الظن الحسن بما في يده أو ما في جيبه من المال ! ..

وكثير من أبناء جيلي في الأدب والصـحافة لبثوا يسـمعون عن غراميات العقاد أربعين عامًا أو أكثر ، ولو كانت الكتابة الآن في مثل هذه الأمور حرة طليقة كما كانت خلال العصـور العربية الأولى – في عهد الجاحظ مثلا ، أو بعد ذلك في عهد «أبو الفرج الأصـبهاني» إلى أخر عهد الدولة العباسـية – لسهل الأمر ، ولكتب كل أديب عاصر العقاد ما سمعه منه أو من صديقاته أو من أصدقائه ، أو ما شاهده بعينيه مما نسميه مغامرات العقاد العاطفية !

على أن الأمر هين ، فالعقاد الذي عاش كالنجم المتلألئ شـهرة ومكانة ، كان في الميدان العاطفي متواضعًا – كما سلفت الإشارة – ولولا قيمته الأدبية العظيمة لما كانت مغامراته هذه تسـتحق أن يبالي بها أحد .. فأين هي من مغامرات الأديب فلان والشاعر علان والصحفي ترتان ؟!

وأصـدقاء العقاد وتلاميذه هم الذين جعلوا من الحبة قبة في غراميات العقاد » فلم يكد يلحق بالرفيق الأعلى حتى تنافسـوا في تعريف القراء بما خفى عليهم من الحياة الخاصة للكاتب العملاق ، وأوشكوا أن يزعموا أنه كان على مذهب دون جوان أو كازانوفا .

وكنا نقرأ ما يكتب ونتساءل : ما بال أقرب الناس إليه ، وهو عامر العقاد ، لا يكتب عن هذه الغراميات ؟!

فلما كتب عامر العقاد – رحمه اله – كتابه «غراميات العقاد » بعد سنوات من الصـمت لم يجئ بجديد ، ولم يضـف شـيئًا إلى ما كتبه من قبل أصـدقاء وتلاميذ العقاد عن غرامياته ، ولكن كتاب عامر العقاد كانت له أهمية خاصـة فمؤلف هذا الكتاب هو ابن شـقيق العقاد ومدير أعماله كاتم سـره في العقود الثلاثة الأخيرة من حياته .. عاش بجواره يسـمع ويرى ما لا يتاح لغيره أن يسمعه أو يراه .. واطلع على وثائقه الخاصة في حياته وبعد مماته

واكتملت له بذلك صفة المصدر الموثوق فيما يتعلق بأسرار العقاد التي عرفها الناس ، وأسراره التي لم يعرفها إلا قليل من «خاصكية العقاد » - على حد التعبير المملوكي عن خواص السلطان فقد كان العقاد سلطانًا على أولئك الخاصكية – وبهذه الصفة الخاصة جدًا ، نشر عامر العقاد – رحمه الله – كتابه الذي سماه «غراميات العقاد » فلم يضف شيئًا مذكورًا إلى ما رواه أصدقاء العقاد وتلاميذه وخواصه في كتبهم ومقالاتهم وأحاديثهم وأسمارهم ، بل لعلهم زادوا عليه واستفاضوا في كشف خبايا هذه «الغراميات» أكثر مما استفاض ، حتى اضطروه اضطرارًا إلى أن يقتبس منهم في كتابه ويستشهد بأقوالهم ويسند كلامه إلى كلامهم ،وكأنه ناقل متواضع المعلومات يأخذ من مصادر أصلية غنية بالمعلومات مع أنه فيما كنا نظن – كان المصدر الأصلي الذي يأخذ عنه الناقلون ! ..

وقد سألت عامر العقاد عند صدور كتابه ذاك : لماذا أصدره ؟!

فقال : أردت أن أنفي غير الصحيح مما كتب أصدقاء العقاد في هذه الأمور الدقيقة .

كأنما ظن عامر – رحمه الله – في لهفة على توضيح تاريخ عمه العظيم أن الناس لن يصدقوا ما قرأوا عن غرامياته إلا إذا أكدها عامر بنفسه وقال لهم إنه رأى هذه الغراميات بعينيه ، وسمعها أو سمع عنها بأذنيه ، وعرف أسماء بطلاتها الحقيقية غير المستعارة ، ولمس وثائقها الخطية والمادية بأصابع يديه ! .. عندئذ لا يبقى في نفس أحد أدنى ريب في أن العقاد هو صاحب تلك الغراميات المشهورة في الكتب والصحف وشاشة التليفزيون ! .. إلا أن عامرًا – رحمه الله – أدرك وهو يقلب في صفحات غراميات عمه أنها صفحات قليلة ، بسيطة ، بل ساذجة لا تستحق أن يؤلف المؤلفون عنها كل هذه الأكداس وكأنها من كبريات قضايا عصر العقاد ، ومن مقومات أدب العقاد وفكره وشعره ونثره ! ..

أما الآنسة مي ، فزعموا في المسلسل التليفزيوني أنها بادلته الحب ، بل بادأته الحب ، وقد علم الله أن هذه الآنسة لم يكن بينها وبين العقاد إلا الحب المشترك للأدب ، وأنها لو فتحت باب الحب لرواد صالونها الأدبي ، لدخل منه عشرات الأدباء ، وغير الأدباء ، من كبراء زمانها المفتونين بها ..

لقد أحب العقاد «الآنسة مي » حبًا شفويًا في صالونها الأدبي المزدحم بالمعجبين والعاشقين وعلى رأسهم المجنون بها مصطفى صادق الرافعي الذي ردت على جنون حبه بالتفكير في تقديم بلاغ إلى «النيابة » تشكوه فيه ولو كتب العقاد عن حبه لها معشار ما كتبه الرافعي لساقته أيضًا إلى النيابة العمومية بتهمة السب والقذف العلني ! ..

إن حبائب العقاد كن محترفات حب ، على اختلافهن في أساليب الاحتراف ولو تتبعنا واحدة منهن فقط لرأينا لها في عشرين أو ثلاثين عامًا هجرها للعقاد ثلاثين قصة حب وزواج في مصر وخارج مصر ، وليت العقاد عاش حتى رأى حبيبته هذه وقد قاربت الثمانين من عمرها المديد السعيد .

وهؤلاء الحبائب المتنقلات حيث شـئن من الهوى أرغمن العقاد على طلب العطف والحنان من المرأة ، بعد الاكتواء بنيران الغيرة والشـك ومحاولات التسامي الرومانتيكي الساذج الذي يلطمه الواقع بعنف وقسوة ! .

لقد جرت المقادير على العقاد بذلك النوع القاسـي من الحب ، مرة بعد مرة في عصـر الحجاب والنقاب ، والرومانسية والحبيبات البائعات اللاتي كن فئة في المجتمع قائمة بذاتها ! ..

ومن هذا النوع الأخير عرف العقاد نسـاء كثيرات ، وله مع بعضـهن «مغامرات » لم يسـلم من عواقبها القانونية والاجتماعية الخطيرة إلا بحسـن الحظ أحيانًا ، وبصـعوبة وتضـحية أحيانًا أخرى ، وكان أسـاسـها دائمًا قلة تجربته وعجزه عن فهم الفرق بين حبيبات القصـائد الشـعرية ، وحبيبات السويعات العابرة ! .

وليس من هؤلاء بعض الأديبات اللاتي عرفهن معرفة عابرة جدًا عن طريق صـديقه الفنان عبد الرحمن صـدقي الذي كان سـكرتيرًا أو مديرًا لدار الأوبرا .

وليس منهن تلك الأديبة التي تكتب القصـص ، والروايات على كثرة ما يتناقله عنها وعنه الرواة !! ولا المطربة التي نظم لها بعض الأغاني وليته ما نظم لها ولا غنت له ! (يقصد المطربة نادرة) [1] .

أما «زوجته » التي كانت تعمل بالتمريض – أو ما يشـبه هذا العمل – فقد تواترت الروايات عنها ، فلا شك فيها وإن لم يتزوجها بعقد رسمي ..

ويذكر النجمي أن قريب العقاد الصحفي سيد العقاد ، «وكنت عرفته عندما كنت أنشر مقالات في جريدة المساء في الستينات ، أن العقاد أحب تلك السيدة نوعًا من الحب ، وأوجب على نفسـه نفقتها ، ثم فوجئ بأنها حملت منه فلم يطلب منها إجهاض الحمل ، حتى ولدت بنتًا جاءت صـورة وجهها كصـورة وجه العقاد تمامًا مع شيء من جمال أنثوي ، وقد نشرت الصحف صورة هذه الفتاة بعد وفاته .

وتعهد العقاد البنت وأمها بالنفقة والرعاية ، وكان من فرط شعوره بالحنان الأبوي نحو بنته هذه يغسل ملابسها بيديه ، فلا يترك حتى ملابسها الداخلية ، وهي يومئذ طفلة تتسـخ ملابسـها بسـرعة وتتلوث بالقاذورات .. فكان العقاد يغسل هذه القاذورات بيديه ، ثم «ينشر الغسيل» بيديه أيضًا على الحبال في شرفة الشقة التي تسكنها بنته وأمها ومعهما شخص اضطر العقاد أن يكتب باسمه شهادة ميلاد هذه البنت ، فكان في عمله هذا ناقص الشجاعة ، لا يمكن التماس عذر له في إنكاره ابنته وإضافة اسمها إلى اسم شخص غريب . ولكن العقاد فعل ذلك ولا يعلم سره أحد غير أنه كتب وصية للفتاة مزقها الآخرون ، وطردوها حين جاءت إليه عند وفاته تبكي .. ثم دفعها اليأس إلى الانتحار !

روى لي المرحوم سـيد العقاد هذه القصـة ، وكان وثيق الصـلة بالعقاد ، مطلعًا على أسراره ، وكم كنت أود لو كان المرحوم سيد العقاد حيًا الآن ، إذن لأدلي في شهادته بالتفاصيل الكثيرة التي لا أتذكرها .

---

(١) انظر : «القلم والأسلاك الشائكة» : كمال النجمي – القاهرة .

ولا أتعدى في قصة هذا الابن ، هذه الكلمات وإن كان عندي الكثير غيرها لأن سيد العقاد – مع شديد الأسف – لم يعد موجودًا بيننا .. وتقتضي الأمانة أن نقف عند هذه الحدود ..ويرحم الله العقاد ..لقد عذبه أبناؤه أيضًا وأرغمته الدنيا على أن ينكرهم إن صحت رواية المرحوم سيد العقاد ، التي نعرضها ولا نقول في صاحبها إلا خيرًا .

ولا نجد مصداقًا لها إلا أن نؤكد أن هذا ما سمعناه منه حرفيًا . ولعل من قدامى أصدقاء العقاد وخلطائه من شهد بذلك ، وفيهم من لا يستحل الكذب ووضع الأخبار ، وكان في مقدمتهم الأستاذ محمد خليفة التونسي(١) .

على أننا في كل الأحوال نكن للأديب الكبير الراحل كل احترام وتقدير ، ولا نقصد إلا إلقاء الضوء على جوانب من حياته – رحمه الله- كما جرت العادة عند الكتابة عن أمثاله من عظماء الرجال .. ثم لابد أن نعود على حكايته مع الآنسة مي..

فلا عجب أن تكون له حكاية تدور حول اسم هذه الآنسة الأديبة الشهيرة فإن جميع قصص الحب المأثورة عن أدباء عصرها – إلى أواخر العشرينات – تبدأ دائمًا بقصة هذا الأديب أو ذاك معها هي بالذات ، لأن عصرها كان خاليًا من أديبة برزة جميلة إلا منها !

أما رسائل العقاد إلى مي ، فليس فيها سطر واحد يثبت أن حبًا كان متبادلاً بينهما ـــ و كان بينهما شروع في حب ، أو تفكير في حب ، إلا ما تدل عليه بعض السطور من الحب البائس الذي حمله العقاد من طرف واحد ، كما حمل مثله الرافعي وإسماعيل صبري باشا وولي الدين يكن وغيرهم ..

إن العقاد لم يفز من مي ولا بإشارة واحدة تقول له ولو من بعيد جدًا إنها فهمت أنه يحبها ، مع أنها بطبيعة الحال كانت تفهم ذلك كل الفهم ..

وعزاء العقاد في ذلك أن جميع من أحبوا تلك الآنسة العنيدة التي بلغ عنادها حد الشذوذ ، ثم حد الجنون ، قد رجعوا من حبهم يجرون أذيال الخيبة والخذلان ! ..

لقد كانت غراميات العقاد ومغامراته الساذجة التي يقوم بمثلها كل رجل عزب مثله ، زاده الوحيد في تطلعاته الرومانتيكية المحرومة ..

وحين تزوج ، لم يتزوج عن حب ، ولم يعترف بثمرة الزواج ، مع أن ثمرته ملأت قلبه وأحرقته خوفًا عليها وقلقًا على مستقبلها .

ولا أحد من العارفين بفن الشعر وفن النثر يقول بأن غراميات العقاد ألهمته أحسن الشعر ولا أحسن القصص ، ولكنها على أية حال فتحت له بابًا إلى الإلهام ، فقد كان يستشفي من داء الحب بداء الشعر والكتابة .. كقول المتنبي :

قد استشفيت من داء بداء   وأقتل ما أعلك ما شفاكا

---

(١) أخبرني الأديب والشاعر محمد خليفة التونسي أثناء لقاء معه بالكويت أثناء عمله بمجلة العربي سنة ١٩٨٨ أن إحدى الممثلات التي اشتهرت في المسلسلات التليفزيونية منذ السبعينات واسمها (سلوى .م) هي ابنة العقاد وفيها شبه كبير منه خاصة فكها ونظرة عينيها وطولها الفارع ، والله أعلم .

وبين المتنبي والعقاد مشـابه في هذا الباب ، فقد كان المتنبي يوصف بأنه رجل «عزهاة » أي ليس بصاحب غزل وصحبة للنساء لاشتغاله بأحلامه في المجد والعظمة ، وكذلك كان العقاد فهو «عزهاة » كالمتنبي ، ولم تكن مغامراته هذه إلا على هامش حياته ، ولم تستغرق من عمره الذي بلغ خمسة وسبعين عامًا إلا مدة يسيرة متقطعة أيام وساعات بين السنين والشهور .. فلو أنصـفه من كتبوا عن غرامياته لبينوا للناس هذه الحقيقة ، ليعرفوا أن المرأة دخلت حياة العقاد كما تدخل المرأة حياة كل رجل ، ولكنها لم تقطع من حياته إلا هنيهات ، سعد ببعضها، وشقي ببعضها الآخر ، ولكنه في النهاية كان يعود إلى طبيعته كرجل عزهاة بين أمثاله من الرجال العزاهى الذين يطربون للجد والمجد أكثر مما يطربون للغزل واللهو ومحاورة النسـاء وأنفاق العمر الطويل بين أيديهن ! ..

وقد أعانته طريقة حياته أو أرغمته على أن يأخذ من النسـاء نصـيبًا ، بل ضئيلاً ، ولا يدري أحد أي نصيب كان العقاد يأخذه من النساء لو لم يتحكم فيه ضيق ذات يده ، ثم ضيق ذات العصر الذي عاش فيه ثم إخلاصه الشديد لمجد الأدب والفكر ! ..

وقد أثارت مقالة كمال النجمي المثيرة التي نشرت بمجلة الهلال العديد من النقدات والتعليقات ، فكتب مقالة أخرى عن حكاية العقاد وابنته « بدرية » التي انتحرت يوم فاته ، والتي شكك البعض في أنها ابنته .

ويدلي الأديب كمال النجمي بدلوه مرة أخرى حول هذا الموضوع الشائك ، فيقول في كتابه «القلم والأسلاك الشائكة» :

أما حديثنا عن ابنته وكيف كان يغسل ملابسها بيديه وينشرها على حبل الغسـيل في شـرفة البيت غير مبال بنظرات الجيران ، فقد أزعج المعجبين بالعقاد «الكاتب الإسلامي » .. وتساءلوا : أليس ما فعله حرامًا ؟! وتساءلوا أيضًا : أليس هذا من اختلاق الواضعين والرواة ؟!

ولكن صديقًا قديمًا لنا هو الدكتور عصام الطاهر الطبيب ورجل الأعمال الذي كان يعمل في الكويت بعث إلينا بقصاصـة كبيرة من إحدى الصـحف الكويتية ومعها رسـالة يقول فيها : «طالعت ما كتبتموه في الهلال وقرأت بشغف كبير حديثك الممتع عن غراميات العقاد ، فقد أضاف إلى معلوماتي الشيء الكثير ، ذلك أني من المهتمين بالعقاد وقد كتبت عنه مرات في صحف الكويت . وقد وجدتك تطلب من أصدقاء العقاد أن يلقوا الأضواء على حياته الشخصية التي أتيح لهم أن يعرفوها ، وقدرت أنك لا بد لم تطلع على ما نشره الأستاذ خليفة التونسي – صديق العقاد – في مارس سنة ١٩٨٦ بجريدة القبس على ثلاث حلقات ، فرأيت أن أحصل لك عليها وأرسلها إليك مع رسـالتي هذه.

وصديقنا الدكتور عصام هو ابن شقيق المجاهد الفلسطيني الصحفي الكاتب المرحوم محمد على الطاهر .. تعلم الطب في جامعة القاهرة وعرفته حين كان طالبا قبل ثلاثين عاما ، وغابت عني أخباره طويلا بعد سفره ، وهو الآن رجل أعمال ترك الطب .. واشتغل بالأدب إلى جانب الأعمال ..

جاءتني قصاصات الأستاذ التونسي في وقتها لأنني كنت أبحث عن شاهد صدق على ما ذكرته من قصة ابنة العقاد .. وننقل هنا – باختصار – شهادته .. قال[١] :

«لم تكد تمضي ساعة على نعيه حتى رأينا البنت وأمها حضرتا وهما تلبسان ملابس سوداء ، والبنت تصرخ وتتلهف ، حتى دخلتا غرفة نومه ، فأغلقت وراءهما باب حجرته ولكني عندما سمعت الفتاة تولول خانتني دموعي ، إذ تصورت كأنني أنا الميت ، وكأن بنتي الكبرى قد أكبت على رأسي تقبله وتعاتبني لأني تركتها ، وذلك ما رأيت الفتاة – يقصد بنت العقاد عليه عند دخولها غرفة نوم الأستاذ ، فأدركتني الرقة والضعف وسالت مني الدموع » .. و «استمر صراخ الفتاة بضع دقائق فلم أجد بدا من الذهاب إليها وتعزيتها ، وكانت الفتاة مكبة على رأسه تحتضنه وتقبله وتعاتبه في مرارة : كيف تركتني وحدي يا بابا ؟! كيف هان عليك أن تتركني وكنت غالية عندك ؟! لن أعيش بعدك ! .. كما كانت السيدة – والدة الفتاة – منبطحة على الأرض تجول يمينا ويسارا على سجادة الغرفة كأنها أفعى ضربت على رأسها ! .. وقبل خروجها وقفت في تحد وقالت للشاب عامر : يا عامر افتح هذا الدرج من هذا الدولاب . ولما فتحناه لم نجد سوى بعض الملابس فقالت لي : إن الأستاذ كتب وصيته قبل موته بمدة طويلة وكان يضعها في هذا الدرج ، أنه أوصى بإيراد سبعة عشر كتابا حددها بأسمائها لتكون لهذه البنت ! .. وخرجنا إلى غرفة الجلوس والفتاة تولول : آه يا بابا لمن تتركني يا بابا ؟! لن أعيش بعدك »! .. ثم بدأت أفكر في الخلاص من السيدة والفتاة قبل أن يطلع النهار ويأتي المعزون ، توقيا للفضيحة ، ولم أجد بدا من الاستعانة بأوثق أصدقاء العقاد محمد طاهر الجبلاوي . فحضر وعزاهما وحاول التسرية عنهما ثم طلب منهما العودة إلى بيتهما اتقاء للفضيحة» .

وأول كلمة قالها التونسي للشيخ أحمد خادم العقاد عندما قضى العقاد نحبه هل أعلمت الفتاة – يقصد بنت العقاد – الخبر ؟! . قال خادم العقاد : لا . فسأله التونسي : هل تعرف رقم تليفونها ؟ .. قال : نعم .. فلما أمره التونسي باستدعائها عارض في ذلك أقارب العقاد ، لكن الخادم نفذ أمر الأستاذ التونسي وجاءت البنت وأمها ..؟

هذه هي قصة بنت العقاد كما رواها شاهد صدق كان من أعز أصدقائه . وهو يستشهد فيها بأقرب أصدقاء العقاد وكاتم سره : محمد طاهر الجبلاوي . وبألصق الناس بالعقاد وهو خادمه الشيخ أحمد ، وواضح جدا أن جمع أقارب العقاد كانوا يعرفون الفتاة ووالدتها ..

وبهذه الكلمات التي نقلناها عن أقرب الناس من العقاد نختم الكلام عن ابنته ووالدتها .. والقصة أبلغ من كل كلام ، والبراهين عليها تكفي مائة قضية شرعية لإثبات البنوة برغم كل «الدفوع الشكلية» على حد تعبير أهل القانون[٢] .

---

(١) صحيفة «القبس الكويتية» ـ مارس ١٩٨٦، محمد خليفة التونسي.
(٢) كمال النجمي / القلم والأسلاك الشائكة .

ويورد أنيس منصور[1] في كتابه «في صالون العقاد» كيف حضرت الزوجة المجهولة السيدة «فوزية» وابنة العقاد المزعومة «بدرية» فور علمها بوفاة العقاد يوم ١٣ مارس عام ١٩٦٤، وهم يعدون العدة لنقل جثمانه لمدفنه في مسقط رأسه بأسوان ، فيروي لنا هذه الحكاية المثيرة .

«وعلى السلالم تعثرت سيدة قد ارتدت الملابس السوداء وتبكي وتلطم خديها . وتمسح وجهها في عتبات السلالم .. وتدق الباب الذي أغلق وتقول : لابد أن أراه .. انتهت الدنيا .. لا دنيا بعده .. لا حياة ولا موت .. يا خسارة .. يا رحمتك يارب .. أين هو .. أراه .

وفتحوا الباب للسيدة «فوزية».. وأدخلوها عليه .. وراحت تتمرغ في الأرض ، وتخرج الأحذية من تحت السرير ، وتضعها على رأسها ، وتقول : يا ليتك .. مشيت العمر كله على دماغي .. يا ليتني رأيتك أكثر .. ليس في الدنيا أكرم منك .. ولا أطيب منك .. إذا احتجت إليك ليلاً أو نهارًا .. يا أطيب الناس .. يا أرحم الناس .. من الذي يعالجني في إنجلترا مرة أخرى؟ .. يا ليت ساقي قد انقطعت .. يا ليت عمري كان الله قد أخذه وأعطاه لك .. ما فائدة العمر بعدك .. ألف رحمة .. الجنة لك يا عباس .. يا عظيم .. يا سيد الناس .

وأخرجوها وهي تقاوم .. وأنزلوها السلالم .. وأغلقوا الباب .

ولا أحد يقوى على أن يدخل غرفة الأستاذ ولا أن يراه ، ولا أن يكشف الغطاء عنه .. ولكن العيون تبكي والحناجر تتمزق ، والأيدي تدق الجدران ، والأقدام تدب على الأرض ، والرؤوس تتخبط في الأبواب .

وبدأ تلامذة العقاد يتوافدون : جاء صديقه الشاعر طاهر الجبلاوي .. وصديقه الأديب خليفة التونسي .. والفنان صلاح طاهر والأديب جلال العشري والأستاذ عبد الفتاح الديدي وعدد كبير من تلامذته .

وفجأة تعالت الأصوات والصرخات ، لقد عادت السيدة فوزية ومعها ابنتها «بدرية» في السابعة عشر من عمرها ، ودخلت بدرية وألقت بنفسها عليه . وراحت تبكي .. وتصرخ في حالة جنونية .. وانكفأت على الأرض تلعق التراب تحت قدميه .. ثم تلعق أحذيته واحدا واحدا .. ثم تكشف عن قدميه وتقبلهما وتصرخ : أين أنت يا بابا .. أين ذهبت .. أنت لم تقل أنك سوف تموت .. حرام عليك .. لماذا لم تقل حتى أموت معك .. لا حياة بعدك .

ثم هجمت على الزجاجات التي كان يتعاطاها ، وراحت تصبها في حلقها .. وراحت تبتلع كل الحبوب .. ومزقت ملابسها وشعرها .. وألقت بحذائها من النافذة .. ونزعت من الشماعة بيجامة الأستاذ ، وراحت تلف نفسها فيها .. ثم أمسكت حذاء له ووضعته في قدميها .. واندفعت من الباب إلى السلم تتدحرج عليه ، وينزف الدم من رأسها .. ثم تختفي .

---

(١) أنيس منصور : في صالون العقاد – ص٦٤٠.

وتظهر السيدة فوزية مرة أخرى . وتسأل الأستاذ عامر العقاد : هل ترك الأستاذ وصية؟ .

- لا وصية .

- هل ترك لنا مالاً ؟

- ولماذا يترك لكم مالاً ؟

- أنا زوجته .

- هل معك عقد زواج ؟

- عند المحامي .

- إذن فهاتي العقد .. امشي .. اخرجي يابنت الـ....

وكانت السيدة فوزية قد وضعت صبغة زرقاء وسوداء على جانبي الوجه .. وكانت تمسك منديلاً أسود .. وحاولت أن تتشبث بالأبواب وبالجدران .. وأن تجلس أمام باب الشقة ولكن الكثير من الأيدي قد دفعت بها إلى خارج الشقة .

ولما رأى البواب أن الجميع يدفعونها إلى خارج الشقة وبعيدًا عن البيت ، أمسكها من يدها وأوقف لها أحد التاكسيات .

قالت له : هل يرضيك هذا ؟

- أنت تعرف كم كان الرجل طيبًا .. وتعرف أننا نجيء إليه كل يوم ثلاثاء وتعرف كميات الحلوى والفاكهة التي يشتريها لبدرية .

- يا ست هانم ليس وقته الآن .. والله أنا لا أفهم .. على كل حال هذا المبلغ قد بعث به الأستاذ إليك .. ولم أجد وقتًا لكي أحضر إليك .

- كم المبلغ ؟

- خمسون جنيهًا .

- طول عمره رحيم .. طول عمره طيب .. يا ألف خسارة .. عليك العوض ومنك العوض يارب!

***

ودق جرس التليفون ، وكانت السيدة فوزية هي التي تتحدث . قالت : بدرية انتحرت .. بلعت زجاجة حبوب منومة .. وماتت في دار الشفاء .

ونزلت سماعة التليفون ، ولم يهتم أحد كثيرًا بما حدث لبدرية .. وكان الأستاذ يسمي بدرية «الكتكوتة» ، وكانت تزوره مرة أو مرتين كل أسبوع .. ويحرص الأستاذ ألا يكون أحد في البيت . وكان يشتري لها الملابس والهدايا والكتب والحلوى.. وكان يبعث لها كل ما يستطيع . وفي عيد ميلادها طلب الأستاذ من عامر العقاد أن يذهب ويشتري لها مصحفاً ذهبيًا . وقال لعامر العقاد : ادفع أي مبلغ .. المهم أن يكون المصحف قيمًا .

وتصادف أن كان ذلك يوم الأحد .. وكانت المحلات مغلقة .. وكان لابد من إحضار هذا المصحف . فذهب عامر العقاد إلى أحد أصحاب المحلات في بيته . وعرض عليه صعوبة موقفه . فذهب صاحب المحل وفتحه وأعطاه مصحفًا ذهبيًا ثمنه ٧٥ جنيهًا ، ومعه الوصل ، ولما عاد سأله الأستاذ : ألم يكن هناك مصحف أكبر من ذلك ؟ .. فقال عامر : أكبر ما في المحل .. واليوم الأحد . وكل المحلات مغلقة . ولكني أرغمت أحد التجار على أن يفتح المحل إكرامًا لك يا أستاذ .

ولكن الأستاذ لم يكن سعيدًا بهذا المصحف الصغير . فقد كان يريده كبيرًا . والحقيقة أن هناك مصاحف أكبر من ذلك . ولكن عامر العقاد يعرف الحالة المالية للأستاذ ، فلم يكن يملك في بيته في ذلك الوقت سوى ١٢٠ جنيهًا .

واحتفظ الأستاذ إلى آخر لحظة بشيئين في بيته : اسطوانة مسجل عليها حوار بين الأستاذ وبين طفلة صغيرة .. تقول له : يا بابا .. وهو صوت بدرية هذه . و«البلوفر» الذي أهدته إليه الفنانة الرقيقة مديحة يسري ردًا على ديوان من الشعر أهداه لها .. وظل هذا البلوفر في دولابه الخاص الذي يضع فيه أوراقه ، ومن بين هذه الأوراق رسائل مي زيادة إليه ، ورسائله إليها .. وكشف بأسماء الأصدقاء الفقراء الذين يساعدهم كل شهر .. وخطابات مجهولة من معجبات .. وخطابات بعث بها أيضًا إلى مجهولات .. وقطعة قماش سوداء من الكعبة .. وقطعة قماش ذهبية من مسجد كربلاء بعث بها أئمة الشيعة في العراق . أما مخلفات الأستاذ فهي: ١٩ بدلة و٢٠ حذاء و٤٠ قميصًا و١١ طاقية و٤٠ تلفيعة ، و٢٠ روبًا ، و٢٠٠ كرافته .. و٩٣ كتابًا من تأليفه ، وألوف الكتب والقواميس والمعاجم ودوائر المعارف .

***

وتأخر القطار الذي ينقل جثمان الأستاذ إلى أسوان ثماني ساعات .

وكانت بدرية ما تزال في المشرحة .

واتصلنا بوزير الصحة د. نور الدين طراف نرجوه ألا يقوم أحد بتشريح جثة الفتاة إكرامًا للأستاذ ، وسترًا لهذه الفتاة المسكينة . ووافق د. نور الدين طراف .

وعندما دفن الأستاذ في أسوان دفنت بدرية في القاهرة .

ولم يكن أحد من أهل أسوان يعرف أن هذه الفتاة قد انتحرت . ولكن شخصًا غريبًا كان في مطار أسوان ، وجد المطرب محرم فؤاد يمسك صحيفة «أخبار اليوم» ولم يكد يرى صورة بدرية في صفحتها الأولى حتى سقط على الأرض .. وراح يزحف حتى استقر تمامًا إلى جوار الحائط . ومات .

ولما فتشوا جيوبه لم يجدوا ورقة تدل على اسمه .. ولم يهتد إلى معرفته أحد فأضاف غموضًا جديدًا إلى لغز بدرية وأمها فوزية .

وكانت السيدة «فوزية» قد وكلت عنها د. علي الرجال المحامي ليدافع عن حقوقها . وبعد شهور من الوفاة لم تثبت أن لها حقوقًا ، فنزلت عن كل دعاواها . فلا زواج ، لأنها متزوجة ، ولا عقدًا عرفيًا ، ولا شيء يثبت بنوة الطفلة للأستاذ!

وسألني يوسف السباعي : هل الأستاذ قد أوصى بشيء قبل موته؟ فقلت : لا أعرف ، ولما سألت أسرة الأستاذ العقاد . قالوا : لم يوص بشيء.

سألني طه حسين : كيف كانت الوفاة ؟ قلت : هادئة .

وسألني إبراهيم باشا عبد الهادي : لقد وعدني بأن يترك لي خطابًا يوصي فيه ببعض كتبه لأحد من الناس ؟

قلت : لا أعرف ، ولا أظن وقته قد اتسع لذلك .. كما أن يده كانت ترتجف ولما حاول أن يكتب ووجد القلم يهتز في يده ، قال : إذن لقد مات العقاد .. إن هذا القلم لم يهتز قط في يدي . وقد عشت من أجل أن يبقى ثابتًا .. فإذا كان القلم يهتز فمعنى ذلك أنني جميعًا أهتز . الآن فقط عرفت أنني ميت .

ولم يشأ يكتب حرفًا واحدًا بعد ذلك !

ويقول كمال النجمي في كتابه «القلم والأسلاك الشائكة»:

«بقيت النقاط الثلاثة الأخيرة ، فقولنا إن العقاد كان «عزهاة» كالمتنبي لا يعني انه كان ضعيفا في خلوته بالنساء ، بل معناه انه كان مشغولا عنهن أغلب الوقت بطلبه العلم والأدب .. ولا توجد أية إشارة إلى ضعفه فيما قلناه من أن العقاد كانت له يد من حديد في ذراع من جريد .. فإن هذه عبارة شهيرة من عباراته السياسية قالها في محمد محمود باشا حين صار رئيسا للوزراء قبل ستين عاما وأعلن أنه سيحكم البلاد بيد من حديد !..

أما البيت والسيارة فلم يقتن العقاد بيتا من تأييده للوفد ولا اقتنى سيارة ، وإنما اشترى السيارة بعد أن صار عضوا في مجلس الشيوخ على عهد السعديين والأحرار الدستوريين ، وقد رأيته وهو يمر بهذه السيارة في شوارع القاهرة في مطلع الأربعينيات وكان له سائق ثم ضاق ذرعا بالسيارة فنفض يديه منها وعاد إلى التنقل بالمترو والتاكسي والترام وكانت المواصلات العامة أيامئذ غاية في السهولة .. والمتعة .. والمدينة هادئة كأنها تحلم !

أما المستنكرون لحب العقاد نساء كثيرات وهو الكاتب الإسلامي ، فلا تعليق على استنكارهم ، ونقول لهم : الله اعلم بالسرائر ، وليست حياة الرجال نمطا واحدا ، ولو كان العقاد قد عاش في العهد الذي يباح فيه شراء مائة جارية من سوق الرقيق ، فما تراه كان يفعل ؟!

من الوجهة الدينية : لا أدري الحكم في قضية العقاد مع حبائبه ومع المرأة التي ولدت له ابنته التي لا شك في أنها ابنته ..

وقد مات العقاد وماتت ابنته ومات الذين مزقوا وصيته ، ولم تبق جميعا إلا رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وقد أنجب العقاد ابنته سنة ١٩٤٤ أي بعد هجره حبيبته السمراء ، ولم يشتهر العقاد بالكتابة الإسلامية إلا منذ ذلك الحين تقريبا ، ولا يعرف له أحد «غراميات» بعد ذلك التاريخ .. وكان بينه وبين والدة ابنته – فيما بعد – عقد غير رسمي ، هو بمنزلة العقد الرسمي في نظر الدين ، وشهوده كثيرون .. وليت طاهر الجبلاوي كان حيا ليشهد على ذلك .

وقد تحفظ بعض محبي العقاد على ما ذكره كمال النجمي عن العقاد وما قيل أنها زوجته وابنته ، واستنكروا ذلك.

ويلقي لنا الشاعر محمد طاهر الجبلاوي الأضواء على علاقة المرأة المجهولة بالعقاد وابنتها «بدرية» التي قيل أنها ابنة العقاد ، فقال [1]:

«ذات يوم قبل وفاته سألته عن الكتكوتة فقال : إن الكتكوتة كبرت وأصبحت بدرية فلنسمها بدرية من الآن . ولم أعرف أن هذا هو الاسم الحقيقي للفتاة إلا بعد موت العقاد وقبيل وفاتها .

كنت أشتري لها الجوارب والأحذية . وهي لا تزيد في طولها على بضع سنتمترات والملابس وهي لا تزيد في طولها على ثلاثين وما زالت حتى نمت وترعرعت وأصبحت عروسًا مكتملة الجسم والعقل والجمال .

وكان العقاد يهتم بشراء الكتب المدرسية لبدرية وينفق كثيرًا من وقته في شرحها لها وهو الذي يعرف قيمة الوقت ويعتز به وكم أغضب وخاصم في سبيله .

أما الأخت التي كانت سببًا لهذه الصداقة فقد ظلت صديقة عزيزة للعقاد لأسباب ثلاثة .

أولها: صلته بالعائلة وترجع إلى عهد بعيد حيث كان العقاد مدرسًا بالمدرسة الإعدادية ويسكن إلى جوارها بحي الظاهر . وقد انعقدت صلات الصداقة بينه وبينها . وكثرة تبادل الزيارات بين العقاد وبين رب العائلة الذي كان يميل بطبعه إلى الأدب والأدباء .

وثانيها : أزمة العقاد التي استحكمت حلقاتها بعد خروجه من الوفد . وموقف الوفد منه .

خرج العقاد من الوفد حين عرف أن هذه الهيئة لم تعد صالحة لخدمة الأغراض الوطنية . وكان الوفد مقبلاً على الحكم والعقاد يعرف ذلك حق المعرفة ويعرف ما سيعانيه من متاعب وهو لا يملك غير قلمه الذي سخره لخدمة الحق لا يبغى سواه سبيلاً .

كان يكتب في صحيفة روزاليوسف مقالاته الافتتاحية وكانت تنزل كالصواعق على خصومه السياسيين فأشفقوا من أثرها على سياستهم المتميعة بين القصر والإنجليز فتقدموا إلى صاحبة الصحيفة بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب حتى ألقت السلاح واستسلمت إليهم دون معاناة .

أما العقاد فقد وجد لديه بقية من جنيهات كان يدخرها لمثل هذا الموقف فافتتح بها صحيفة الضياء التي كانت تصدر باسمه ولكن الوفد الذي كانت في يده السلطة آنذاك حارب الصحيفة بكل ما لديه من الطرق وصادر أعدادها حتى اضطر العقاد إلى وقف صدورها بعد أيام معدودات .

وألف العقاد كتابه عن سعد زغلول وطبعه على نفقته الخاصة فحاربه الوفديون في توزيعه وهددوا المكتبة التي تتولى بيعه على الرغم مما فيه من تمجيد لحركة الوفد الأولى برئاسة سعد زغلول وكانوا من أعوانه.

(١) محمد طاهر الجبلاوي : في صحبة العقاد – مكتبة الأنجلو – القاهرة ١٩٦٧م.

ووقع العقاد في أزمة صارخة حتى لم يكن يملك إلا الكفاف .

ولكن أزمة العقاد كانت تشتد يومًا بعد يوم حتى إذا خلت يده من كل ما لديه تفتحت أبواب السماء برزق جديد يكفيه بضعة أيام فينظر إلى السماء وأنا جالس إلى جواره ويشير بسبابته ويقول : لي قلم حسابات هنا .

وجلس العقاد على أريكة في حجرة الاستقبال بمنزله يقلب يديه ذات اليمين وذات اليسار ويفكر في مخرج مما هو فيه من ضيق مادي .

وإذ طرق بالباب ويقوم ليفتح للطارق فإذا به تلك السيدة التي تحدثنا عنها آنفًا وقد حملت إليه مبلغ ستمائة من الجنيهات وهو مبلغ كاف للخروج من هذه الأزمة.

وقد عرفت من العقاد كيف قدر لهذه السيدة الفاضلة هذا العمل الذي لم يجده حتى عند أفاضل الرجال .

وظل يحدثني عنه كلما تطرق الحديث عنها . على أنه رد إليها هذا المبلغ بعد أشهر وظل يواليها ببره وعطفه حتى آخر أيام حياته .

وأمر آخر في تقديره لهذه السيدة هو عطفها على أختها الربيبة العطف الذي لا نظير له في هذه الأيام كما كان يقول لي ويردد ما يقول .

وقد طلبت من العقاد أن يتبنى الكتكوتة رسميًا فلم يجبني بلا أو نعم . ولعله وجد في ذلك استحالة مع وجود أبيها .

ولم تكتشف أن لها أبًا آخر إلا بعد نضجها ودخولها المدرسة الثانوية وقد سمعت اسطوانات يتحدث فيها العقاد إلى بدرية ويخاطبها بابنتي وتخاطبه بكلمة أبي ، ويلتفت إلى أختها ويوصيها بأن توليها عنايتها .

فلما مرض العقاد مرضه الأخير دب الذعر في نفس الفتاة ولم تتحمل أن تسمع بالخبر وكادت تخرج عن صوابها وعلم العقاد بما نال الفتاة من أجله فعرج إلى التليفون وطلبها ، وأخذ يطمئنها عن حاله على ما في قيامه من فراشه وذهابه إلى حجرة المكتب من مخاطرة بحياته .

ولما اشتد المرض بالعقاد أرسلت إليه هذه السيدة نفسها مع خادم كيسًا به أربعمائة جنيه فردها ساعة وصولها أنه لم يكن في حاجة إلى المال .

ويضف محمد طاهر الجبلاوي في شهادته:

ودق باب منزلي خادم العقاد صباح اليوم المشئوم الذي فارقنا فيه وكان يبكي ويصيح فعرفت ما وراء بكائه وصياحه ، وهرعت معه إلى مصر الجديدة وتسلقت السلم في عجل . سلم العقاد الذي طالما صعدناه معًا وأسرعت إلى حجرة الصالون فوجدت الفتاة التي أحبها العقاد وتبناها من أعماق قلبه تحتضن تمثاله وتعتصره وهي تصيح يا أبي يا أبي وظلت على هذه الصورة المؤلمة فلو كان الحجر يستجيب لهذه العواطف الحارة لذاب التمثال بين يدي هذه الفتاة التي أذهلها الخطب وأخرجها عن كل وعي .

أما السيدة فكانت تبكي وتنوح وهي تمسح الأرض بجسمها الغض وتلطم وجهها الوردي بحذائها الأسود والدموع تنهمر من عينيها .

كان هذا المظهر المؤلم الذي لا حيلة لنا فيه ، داعيًا آل العقاد للتبرم والقلق وقد أخذ المعزون يتوافدون على منزل الفقيد الكريم .

فتوسلنا إلى الفتاة وأختها في لطف أن يعودا إلى منزلهما ريثما تنتهي مراسم الجنازة ، وقد وافقتا بعد إلحاح شديد .

ولم تطق الفتاة صبرًا على مصابها في فقد هذا القلب الكبير الذي كان يؤثرها بحبه وعطفه ، وقد أبهظها الخطب وناءت الهموم على صدرها الصغير ، فلم تجد في الحياة بأسرها ما يخفف عنها هول المصاب ، فأسرعت إلى زجاجة من الدواء المسكن فابتلعت كل ما فيها من أقراص كانت المخرج الوحيد الذي أراحها مما تقاسي من عناء ، ونقلت إلى مستشفى دار الشفاء حيث فاضت روحها الكريمة ».

في حياته الخاصة:

ويروي لنا تلميذ العقاد الكاتب الصحفي الأديب أنيس منصور بعض الجوانب الطريفة والخاصة في حياة عملاق الفكر أثناء مرضه في أيامه الأخيرة ، فيقول[1] :

«كان الأستاذ العقاد يصف سلالم بيته القديم جدا في مصر الجديدة بقوله : «كنت أصعدها ثلاثا ثلاثا ، وصعدتها اثنتين اثنتين ، واليوم أصعدها واحدة واحدة .. صعدتها وبياض شعري يتوارى في سواده ، واليوم أصعدها وسواد شعري يتوارى في بياضه !

وأنا كنت أصعد هذه السلالم عشرين سنة .. فلا تغيرت السلالم ، ولا تغيرت حماستي وأنا أصعد السلالم اثنتين اثنتين . وبالأمس صعدتها ثلاثا ثلاثا . لكن كان الأستاذ العقاد مريضا .وجاء مرضه مفاجأة للعقاد نفسه . فلم يكن ينتظر العقاد أن يضايقه المصران الغليظ بهذه الصورة المؤلمة .. فقد أخذ العقاد يتلوى ويئن ويتوجع ويطرق شقة أولاد أخيه . وهي الشقة المواجهة . ويطلب إليهم أن يبحثوا عن طبيب . وعندما جاء الطبيب فوجيء بأن العقاد مريض من نوع خاص جدا . فهو يعرف حالة مرضه . ويعرف كل تحركات أمعائه ، والمصران بصفة خاصة فقد قرأ العقاد عن المصران الغليظ عضو غريب .لا ضرورة له . وهو العضو الوحيد في جسم الإنسان الذي لا يساعده عضو آخر عندما يتعب ، وهو لا يساعد أي عضو آخر عندما يتعب . وانه مهما كان جسم الإنسان قويا سليما ، فإن اضطرابات هذا المصران تؤدي إلى لخبطة كل نظمه .

قلت للعقاد : إن توفيق الحكيم أخبرني مرة أنك تختار الأطعمة التي تناسب صحتك باستمرار وأن توفيق الحكيم لم يندم على شيء الآن قدر ندمه على انه لم يكن «حنبليا» في طعامه وشرابه . وتوفيق الحكيم يحتفظ الآن في جيبه بجدول للأطعمة التي يجب أن يتناولها .

---

(١) مجلة المصور / أنيس منصور (العقاد : معدة لا تهضم الماء وعقل يسحق الزلط / ٢٨ فبراير ١٩٦٤ .

وقال العقاد : أنني عندما أدعو بعض الأصدقاء إلى تناول الأطعمة في بيتي فأنا حريص على أن أخفي طعامي الخاص . ولا اعرف كيف التفت الحكيم إلى ذلك . انه عفريت خبيث .

وتقلب العقاد في فراشـــه . وحاولت أن أغير الموضـــوع إشـــفاقا عليه من المجهود الذهني الذي يبذله العقاد في أي كلام يصدر عنه ، جادا أو مزاحا .

ورغم أن العقاد متماسـك جدا ، ويخضــع كل تصـرفاته للعقل والمنطق فإنه عصبي جدا . أو بعبارة أخرى : لأن العقاد يضع كل شيء في عقله ويحسبه جيدا ، فهو متوتر الأعصـــاب ليســـت هذه ملحوظتي . وإنما ملحوظة الدكتور جمال بحيري الذي زاره وفحصــه واستمع إلى محاضـرات طويلة عن رأي العقاد في أعراض المصران الغليظ .

والعقاد يحتفظ في بيته بخادم من أقصـــى الجنوب . وهو الوحيد الذي يلخبط حياة العقاد اليومية . فهذا الرجل عينة بشـــرية ، فهو يفكر بطريقة غير مألوفة طريقة غير معروفة في الكتب ولا يمكن أن تخضـع لمنطق أو عقل . أو تخضـع لمنطق لا يعرفه العقاد . وهذه هي النكتة الوحيدة التي تقيم في بيت العقاد .. وقد كتب عنه العقاد كثيرا . وكتب العقاد أيضـا أن سر اهتمامه بالحشرات والطيور يرجع إلى أن هذه الحشـرات ليسـت إلا بالصـور الأولى للحياة على الأرض . فالحشـرات هي «بروفات» للحياة كلها . أو الحشـرات هي طفولة طفولة طفولة الحياة الإنسانية . وربما كان احتفاظ العقاد بهذا الخادم لأسباب تاريخية !.

قلت للعقاد : أنا اندهش لهذا البيت الذي تعيش فيه .. لا توجد به أية وسـيلة من وســائل الراحة .. لا الســرير ولا المقاعد ولا النوافذ ولا الخادم .. حتى الشبابيك لم تعرف الستائر وإنما هي مدهونة بالنيلة الزرقاء ..

واســتعد العقاد ليرد على هذا الهجوم .. ولكني مضــيت أقول له : والدواليب وعشـرات الأحذية التي تغطت بها أرضـية الغرفة ، حتى أولاد أخيك ليسـوا هم الذين يملأون وحشتك وليسوا هم الذين يسعفونك في كل وقت ..

ومضـيت أقول له : أن أصـغر إنسـان يمسـك قلما في هذا البلد أو في أي بلد أخرى عنده بيت أحســن من بيتك وأنا أعرف ما الذي ســتقوله دفاعا عن هذه الملاحظات. ولكني لا أراها مقنعة وكأنني لم أقل شيئا قال العقاد : يا مولانا . هذا البيت يسـتمتع بمزايا فلكية نادرة . فالشـمس تدخله من جميع الجهات ، في جميع ساعات النهار ..

وأشـــار إلى أولاد أخيه أن يفتحوا النوافذ ، كدليل عملي على رأي العقاد في «فلكية» هذه الشقة التي يسكنها من أربعين سنة !.

وتندهش إذا ذهبت إلى بيت العقاد ومررت على المطبخ وأنت في طريقك إلى مكتبته حيث توجد آخر ما أخرجته المطابع في الدنيا .. آخر كتب عن الصواريخ . وأول اكتشـافات في الأدب اليوناني والفلسـفة الإنجليزية والتربية والجغرافيا ، واليوجا والصــوفية والحشـرات .. فإذا دخلت المطبخ أحسســت أن هذه غرفة اســتأجرها أحد بوابي العمارة . ففيها صـــفائح وزجاجات فارغة وعلب فارغة ووابور غاز . على هذا الوابور يطهى طعام العقاد وقهوة الزائرين . وأعتقد أن الوابور كان هدية من صاحب البيت . وربما كان هذا هو أول وابور غاز وصل مصر من خمسين سنة !

وتجد انه لا داعي لأن نسـأل الرجل الذي يضـرب في كل أسـرار الكون والنفس والحيوان والصـخور والمصـران وكل الغدد والتيارات الأدبية والسياسية ، والمريض الآن ، لا داعي مطلقا أن تسأله عن سر احتفاظه بهذا الوابور .

سيقول لك : إذا اشـترى بوتاجاز فسـيؤدي إلى حريقة في البيت كله . أو سـيؤدي إلى اختناق العقاد عندما يخطئ الخادم في إقفال أنبوبة الغاز . وإذا قلت له : غير هذا الخادم .

ويكون رد العقاد : ومن الذي يضـحكني . ومن الذي يحدثني عن الإنسـان من عشرات الألوف من السنين .

قلت للعقاد وأنا أداعبه : أن المذيعة أماني ناشـد تقول أنك المسـئول عن ولادة طفلتها المبكرة . فقد رأت حديثها التليفزيوني معك . كان الصـوت مشـوشـا والصـورة مهزوزة فبكت حتى الصـباح . وفي الصـباح ذهبت إلى المسـتشـفى وولدت طفلتها التي تزن اثنين كيلو . والتي جاءت ولادتها قبل موعدها بشهرين .

سألني العقاد : وماذا أسمتها ؟

قلت له : دنيا تيمنا بقصـة من تأليف فتحي غانم زوج أختها ، وأخرجها زوجها خليل شوقي .

فاقترح العقاد أن تسميها : قناة ، مادامت نحيفة هزيلة ..

ودفعت الباب المفتوح ورائي برفق ، حتى لا يقع فينكسر ، وتزحلقت على السلالم المكسرة التي صعدها العقاد إلى مكتبة تضم أربعين ألفا من الكتب ، يتوارى وراءها رجل هو عينة بشـرية ، يعمل طول النهار في تسـليك وابور غاز قديم، يطهو عليه أسهل الأطعمة في الدنيا : الطعام المسلوق للعقاد .

فمعدة العقاد لا تهضم الماء ، وعقل العقاد يهضم صخور أسوان !

***

وبعد، فهذه شـهادات بعض أصـدقاء العقاد ومحبيه ومريديه ومؤرخيه تناولت بعض الجوانب الخاصـة في حياته وحكاية زوجته وابنته المزعومة بأقلام كمال النجمي، ومحمد طاهر الجبلاوي ، ومحمد خليفة التونسي، وأنيس منصور، وكلهم أكدوا على صحة هذه المعلومة ، وقصة انتحار ابنته «بدرية» التي نشرت الصحف أخبارها في ذلك الحين.

وإذا كنت قد أعدت نشر هذه المعلومات إعمالاً لحق الأدب والتاريخ، فإنني أوردتها على مضض احترامًا لتاريخ العقاد وجهاده الأدبي، ولن تستطيع مثل هذه الوقائع في سـيرته ومسـيرته أن تغير نظرتنا إليه كأديب ومفكر عملاق وإنسان كبير القلب.

الفصل العاشر : العقاد شاعراً عاطفياً

الحب والشعر ديني في الحياة معا
دين لعمرك لا تنفيه أديان
هي الحياة جنين الحب من قدم
لولا التجاذب ما ضمتك أكوان
والشعر ألسنة نقضي الحياة بها
إلى الحياة بما يطويه كتمان

«العقاد»

رغم تعدد مواهب العقاد الأدبية والفكرية ، ما بين مفكر وباحث وفيلسوف وناقد إلا أن النقاد اختلفوا حول مكانة العقاد الأديب : كاتبًا للقصة وشاعرًا ، حيث دار جدل حول روايته الوحيدة «سارة» ومكانتها في فن الراوية وبين شاعريته هل هو شاعر ذهني مفكر فيلسوف ، أم شاعر وجداني يطبع شعره بعواطفه ومشاعره وأحاسيسه .

حيث يرى صلاح عبد الصبور أن للعقاد عشرة دواوين هي ثمرة ما يزيد على خمسين عامًا من التجربة الشعرية ، من أشعارها الرفيع والداني ، والعميق والساذج، والحافل بالموسيقي والخالي منها إلا من العروض والقافية وقد اختار العقاد لنفسه مثال المفكر الفيلسوف ، وهو ليس أكثر شاعرية ولا أعلى مكانة من الشاعر الحساس

وقد اختلف النقاد حول شاعرية العقاد بين رأي يرى جوانب الجديد في شعر العقاد ، وبعض يرفض هذا الشعر ويتهمه بالجمود والعمق الفلسفي بما ينفي عنه صفة الشاعرية والرقة .

لكن الشاعر الكبير صالح جودت وضع يده على جوانب الرقة والعذوبة والجمال في شعر العقاد : فكتب هذه الدراسة التي يقول فيها : [(١)]

«كان العقاد يرى – ورأيه الحق – أن التجديد يجب أن يكون مقيدًا بقيود الفن لأن الفن في حد ذاته قيد ، وكان يضرب الأمثال في ذلك بقوله :

«إن المشي أسهل من الرقص ، ولكن الرقص دون المشي هو الفن .. فلا فن بغير قيد ، ومن القيد يستمد الإحساس بالجمال .

(١) الهلال / العقاد شاعرًا / مارس ١٩٦٦، صالح جودت .

ويفصل الشاعر الكبير صالح جودت رأيه في شاعرية العقاد ، فيقول :

«بحر بلا انتهاء ...

« موج فوق موج ، ودفاع بعد دفاع ، ورغوة من ورائها رغوة ، وحركة في أثر حركة ، وأوادي مصطفقة ، ورياح مصطبخة ، ومد وجزر وضوضاء وكأنما انطلقت شياطين الأرض تعوي ، وظلم يصد العين عن النظر ، وصفاء شفاف يغري بالخوض والسبح ، وسحي ترق وتكثف وتتفرق وتتجمع وتهضب ثم تقلع، وأمساء محلوكة عادية ، وأصباح مشرقة زاهية ، وصخور ناتئة ورمال بليلة ، وسفائن ماخرة أو مغرقة محطمة ، ورعود مجلجلة ، وأغاريد وأهازيج هافية ، وآفاق تصفو وتغيم ، وأنجم زهر تخفق على اللج ، ودرر وأصداف وحصى وحجارة وأعشاب نابتة وأحياء متصارعة ، وصور يختفي فيها الزائل في ثنايا الثابت ، وتجتمع فيها الجنة والنار ، والحاشية الرقيقة والجوف الغائر ، ويلتقي عندها الحاضر والماضي ، والسكون والحركة الدائمة ، والغناء والخلود ، واللحظات والأباد ، والبر والبحر ، والشرق والغرب ، والليل والنهار ، والشمس والقمر .

«وكل نفس ترى هذا البحر الزاخر بشتى الصور والحالات ، ولكن ليس كل أحد بقادر على أن يرسمها لك ويلقي بها إليك » .

هكذا يصف المازني شعر صاحبه العقاد ، في مقدمته الرهيبة «لـ ديوان العقاد » .. وهو أول مجموعاته الشعرية وقوامه أربعة أجزاء .

وأني لأصف هذه المقدمة بأنها رهيبة ، لأن من شأن مقدمات الكتب – كما ألفناها – أنها تحرضك أيها القارئ على الإقبال على مادة الكتاب ، وتغريك بنواحي الجمال في هذه المادة .

أما المازني ، فإنه يهول عليك الأمر ويخيفك من بأس هذه المادة العقادية التي تحشد فيها المتناقضات ، وتلتقي فيها النجوم والأقمار بالسحب والأعاصير .

أما العقاد نفسه فإنه حينما يقدم ديوانه ، يهون عليك الأمر قليلاً ، ولا يهونه إلا قليلاً ، حين يصف لك شعره بأنه :

ينزل في بحر بلا انتهاء

فيه من الحكمة والغباء

وفيه من يأس ومن رجاء

وفيه من حب ومن بغضاء

وفيه من صمت ومن ضوضاء

صورة محياي لعيني الرائي

«أما أنا ، فلا أفعل بك أيها القارئ ما فعل المازني بصاحبه ، ولا بعض ما فعل العقاد بنفسه ، بل أشدك إلى قراءة هذا الشعر ، وأغريك به ، حين أبدؤك بناحية «الرقة العاطفية» من العقاد .

و « الرقة العاطفية » : تعبير من ابتكار العقاد نفسه ، كتبه لأول مرة – ولعلها آخر مرة أيضًا – في مقدمته لكتابي عن الشاعر ناجي ، وعنوانه : «ناجي حياته وشعره » فقد وصف العقاد ناجي في هذه المقدمة بأنه : شاعر الرقة العاطفية .

وفات العقاد أن يذكر أن كل شاعر أصيل ، لابد أن يكون في شعره نصيب من الرقة العاطفية .

وفاته كذلك أنه هو نفسه قد وقع في أسار الرقة العاطفية دون أن يفطن إليها في أكثر من فترة من فترات حياته ، ولا سيما فترة الحب الأول ، ثم فترة حبه لسارة ، قبل أن تدركه محنة الشك فيها :

هذه أبيات له تسيل عذوبة ، عنوانها «غيرة طفلة » :

ما كان أملح طفلة

من غير شيء تخجل

ضاحكتها فتمايلت

وشعورها تتهدل

ورجوت منها قبلة

فأبت كمن يتدلل

وتعبت وهي تصدني

حينا ، وحينًا تقبل

فرفعت مرآة لها

فتطلعت تتأمل

قلت انظري في وجهها

أفأنت أم هي أجمل؟

قالت وفيها غضبة!

أنا بالملاحة أمثل!

ومضــــت تـقـول : إلــى مـتــى

تـنســـي الـجـمـيـل وتــجــهـل؟

وأقـــول أيـــكـــمـــا إذن

أدعـــو بـــهـــا فـــأقـــبـــل؟

عـطـفـت عـلـى وكـل مـحـبـوب

يـــغـــار فـــيســـــهـــل

ألا يخيل لك أيها القارئ بعد أن تقرأ هذه القصـــيدة وإذا لم أقل لك أنها من نظم العقاد ، أنها من نظم واحد من الشعراء الظرفاء أصحاب الصور اللاهية السهلة الممتعة ، كالبهاء زهير والشاب الظريف وأضرابهما ، ثم لا تلمح في زبدة القصيدة أنها تقرب بين شوقي والعقاد – على اتساع مسافة الخلف بين مدرســـتيهما ومذهبيهما في الشـــعر – عندما تذكر أن شـــوقي قد لخص لفتة الاســتجابة بعد الغيرة في بيت من قصــيدته في « بكفيا» يقول فيه عن الأغر الأكحل :

وصـــرفـت تـلـعـابـي إلـى أتـرابـه

وزعـمـتـهـن لـبـانـتـي ، فـأغـرتـه

ثم هذه القصيدة ، وعنوانها «كأس على ذكرى» .. التي يستهلها بقوله :

يـا نـديم الصـــبوات .. أقبـل الليـل فهـات

واقتـل الهم بكـأس ســميـت كـأس الحيـاة

إلى أن يقول :

هـاتهـا واذكر حبيـب النفس يـا خير ثقـاتي

ودع التـلـمـيح واجـهر بـاســمـه دون تـقـاة

أتـرى نـحـرم حـتـى ذكـره فـي الـخـلـوات؟

صـــفه لي صـــفه وما كان بمجهول الصـــفات

أتـرى ألـبق مـنـه بـاصـــطـيـاد الـمـهـجـات؟

أتـرى أمـلـح مـن خـطـرتـه فـي الـخـطـرات؟

أتـرى أصـــبح من خـديـه بيـن الـوجنـات؟

ذهبي الشـــعر ســـاجي الطرف حلو اللفتـات

وحـيـي لا يـحـيـيـك بـغـيـر الـبسـمـات

جـاهـل بـالحـب أشـكوه ولا يـدري شـكـاتي

«أترى كيف تسيل الرقة العاطفية من كل بيت من هذه الأبيات ؟

ثم أترى كيف يلتقي به شـاعر النشوة علي محمود طه ، في أحد أبيات هذه القصيدة ، لقاء الكلمة بالكلمة ، حين يقول العقاد ، وهو الأسبق :

ذهبي الشـــعر ســـاجي الطرف حلو اللفتـات

«يقول بعده على محمود طه في قصيدة الجندول » :

ذهـبـي الشـعـر شـرقـي السـمـات

سـاحـر الأعـطـاف حـلـو الـلـفـتـات

ثم قصيدة «موت الحب » التي يقول فيها العقاد :

ولـد الـحـب لـنـا .. وافـرحـتـاه

وقضـى فـي مـهـده .. وا أسـفـاه

مـات لـم يـدرج ولـم يـلـعـب ولـم

يشـهـد الـدنـيـا ولـم يـعـرف أبـاه

لـيـتـه عـاش .. فـأمـا إذ قضـى

فـلـيـكـن بـردًا عـلـى الـقـلـب جـواه

أشـكـر الـمـوت وأشـكـوه مـعًـا

غـال حـبـي قـبـلـمـا تـنـمـو قـواه

غـالـه وهـو صـغـيـر قـبـلـمـا

تـكـبـر الـبـلـوى بـه يـوم نـواه

كـنـت أرجـوه لـيـومـي كـلـمـا

عــزنــي فــي مــطــلــع الشــــمــس هــداه

كــنــت أرجــوه لــلــيــــــلــي كــلــمــا

لــجــت الــحــيــرة بــي تــحــت دجــاه

ألا تلتقي أنفاس ناجي بأنفاس العقاد – وهو الأسبق – في هذه الرقة العاطفية ؟

حتى المطلع .. في صورته وجرسه .. ألا يذكرك بمطلع «الأطلال» لناجي إذ يقول :

يــا فــؤادي ، رحــم الله الــهــوي

كــان صــــرحًــا مــن خــيــال فــهــوي

أحسبني أغريتك بالإيغال في شعر العقاد . بعد أن شددتك إليه . بجانب الرقة العاطفية منه .

على أن هذه الرقة العاطفية التي تضع أبهامها على كل قصيدة من قصائد شاعر كناجي أو رامي أو البهاء زهير أو عمر بن أبي ربيعة ، لا تضع أبهامها على الكثير من شعر العقاد الشاعر الذي عاش أكثر حياته – إلا في فترات الحب منها – يفكر بقلبه ويحس بعقله .

وهذا هو سر إيمان العقاد بالشعر ، وبتطور الشعر فهو لا يستمرئ قول الكاتب الإنجليزي توماس بيكوك في رسالته عن الشعر إذ يقول :

«الشاعر في عصرنا هذا هو نصف همجي يعيش في عصر المدنية لأنه يقيم في الزمن الخالي ، ويرجع بخواطره وأفكاره وخوالجه وسوائحه إلى الأطوار الهمجية والعادات المهجورة والأساطير الأولى ، ويسير بذهنه كالسرطان زحفا إلى الوراء..» .

لا يستمرئ العقاد هذا الرأي الذي ينادي برجعية الشعر ، ويؤثر عليه قول فيكتور هوجو في كتابه عن شكسبير إذ يقول :

«ينادي كثير من الناس في أيامنا هذه – ولا سيما المضاربون وفقهاء القانون – أن الشعر قد أدبر زمانه ، فما أغرب هذا القول ! .. الشعر أدبر زمانه ؟

لكأن هؤلاء القوم يقولون أن الورد لم ينبت بعد ، وأن الربيع قد أصعد آخر أنفاسه ، وإن الشمس كفت عن الشروق ، وأنك تجول في مروج الأرض فلا تصادف عندها فراشة طائرة وإن القمر لا ينظر له ضياء بعد اليوم ، والبلبل لا يغرد، والأسد لا يزمجر ، والنسر لا يحوم في الفضاء ، وإن تلال الألب والبرانس فد اندكت ، وخلا وجه الأرض من الكواعب الفواتن والإيفاع الحسان.

«لكأنهم يقولون أنه لا أحد اليوم يبكي على قبر ، ولا أم تحب وليدها ، وأن أنوار السماء قد خمدت ، وقلب الإنسان مات ! »

ويخلص العقاد من الموازنة بين هذين الرأيين ، إلى أن الشعر لا يفنى إلا إذا فنيت بواعثه ..قائلاً :

«أني لا أرى في ضروب الخطأ رأيًا أخطل من زعم الزاعمين أن الشعر يحن إلى الماضي ويحجم عن المستقبل » .

وإذا كانت بواعث الشعر عند ناجي وأضرابه هي الحب ، والحب وحده ، فإن بواعثه عند العقاد واسعة المدى إلى حد يكاد يلمس اللانهاية ، فكل أمر من أمور الحياة ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وكل وجه من وجه بواعث الموت ، وما بعد الموت من آخرة هي للشعر عن العقاد .

وهذا ما يعنيه المازني حين يقول عن صاحبه :

«أني أطلعت من شعر العقاد على نواح محجوبة عن عيني ، وأني وجدت فيه التعبير عما كنت أحسه ولا أكاد أدرك كنهه أو ما أدرك ولا أقوى على التعبير عنه ، وأني زدت للحياة فهمًا ، وبها شعورًا وعلمًا » .

وبهذا الإلمام الواسع والبواعث الضخمة جنى العقاد على صاحبه المازني الذي أحس بقصور مجالات شعره أمام العقاد فهجر الشعر قائلاً :

«وانتهيت إلى أنه لا خير فيما قرضت من الشعر ، وأن الأدب المصري لا يزيد به ولا ينقصه إذا فقده ، فكففت عن نظم الشعر ، ونفضت يدي من القريض » ثم يقول الشاعر الكبير صالح جودت عن مجالات شعر العقاد : (١)

«الماضي .. بأساطيره و «حواديته » البعيدة والقريبة ، يستهوي العقاد أيما استهواء ، ويراه من بواعث التأثر عنده نظمًا وترجمة .

فهو يرى مادة للاستلهام في أسطورة «أكاروس» اليونانية تروي قصة «ديدالوس» .. البطل الذي كانوا يضربون به المثل في المقدرة الخارقة في الصناعة وحسن الحيلة في تذليل المصاعب والخروج من المآزق ويزعمون أنه غار من ابن أخته الذي كان تعلم على يديه ، فقتله وأخفى جثته ، ثم خاف العاقبة ، فهرب من أثينا ومضى يضرب في البلاد برًا وبحرًا ، حتى نزل جزيرة «كريت» على صاحبها «مينو» فلقى عنده إكرامًا وحسن وفادة وأمل مينو أن يستفيد من علمه وقدرته في تحسين بلاده وتعليم رعيته ، فأبقاه وتكفل له بالحماية وطيب المقام .

وكانت لمينو زوجة جامحة الهوى تحب ثورًا مشهورًا في الأساطير باسم «منوطور» فولدت منه طفلاً لا إلى الثور ولا إلى الإنسان ، وغلب عليها حب الأم ، فأرادت أن تستحييه وتحفظه في غفلة من زوجها المخدوع ، فلجأت إلى ديدالوس تطلب إليه أن يبني لذلك الطفل سردابًا مجهول المنافذ ، تضعه فيه وتتعهده بالتربية والحراسة ، فتردد الصانع أولا ، وحسب حساب الرفض والقبول ، ثم قبل أن يصنع السرداب مخافة دسيسة الزوجة ، واطمئنانًا إلى خفاء الأمر بعد بناء السرداب .

(١) المرجع السابق .

ولكن الملك علم ، فثارت ثائرته وأغلق مسـالك الجزيرة ومنع أن يفلت ديدالوس منها هاربًا من القصـاص . فلما اشـتد الحجر عليه ، هدته الحيلة إلى صنع أجنحة له ولولده «أكاروس» يطيران بها عن الجزيرة ، ونصح الحكيم الصـناع ولده ألا يعلو في السـماء فتذيب الشـمس لحام جناحه ، ولا يهبط على الماء فيبللهما الرشاش الكثير .

ولكن الولد نسـى النصيحة وهو في نشوة الطيران والوثوب ، فعلا وصـعد إلى الشمس ، وكان ما خافه أبوه ، إذ سقط هالكًا على صخرة في البحر يبكيه من حلوها نبات الماء .

قد لا يرى أي شاعر في مثل هذه الأسطورة مادة للشعر ، ولكن العقاد يرى فيها مجالا لاستعراض عبر الشهوة والغيرة والطموح والطاغوت والانتقام .

***

ومرة أخرى ، يقف العقاد مأخوذا بجمال أسـطورة «فينوس» ربة الحب عند الأقدمين ، عندما تحب ذلك الفتى الجميل ، أدونيس ، وهو من أبناء ملوك قبرص، وتعرف أنه مفتون بالصـيد ، فتنصـحه بالإقلال منه إشـفاقًا عليه ، ولكنه يأبى أن يستمع إلى النصح ، إلى أن يقتله خنزير وحشي فترتمي فينوس على جثته محزونة، تريق على الجثة شـراب السـلسـبيل إلى أن تنبت في موضعها زهرة نضرة .

هذه الأسـطورة الحلوة التي يرمز بها الأقدمون إلى تجدد الربيع بعد موته ، يقف العقاد مأخوذًا بها ، ولعله يراود نفسـه على نظمها ، ولكنه يجد أن شـكسـبير قد سـبقه إليها ، ويخشـى أن يصـعد إلى معارضـته كما صـعد إلى معارضـة ابن الرومي من قبل ، فيكتفي بأن ينقل قصيدة شكسبير إلى العربية في نظم جميل .

كان العقاد قد أشـفق على نفسـه من معارضـة شـكسـبير ، فلا شـك في أنه حينما عارض نونية ابن الرومي التي مدح به الصـقر بقصـيدته «الحب الأول » صعد إلى قمة ابن الرومي ، وتجاوزه في الرقة في كثير من الأبيات ومنها:

يا من يراني غريقًا في محبته

وجدا ، ويسألني هل أنت غصان؟

واضيعة الحب ، أبديه وأكتمه

ومن عنيت به عن ذاك غفلان

لي في مديحك أشعار أضن بها

عن امرئ فخره عرش وأيوان

ما الحسن ذنبًا ، فما للحب تحسبه

ذنـبًـا مـن الـنـاس لا يـمـحـوه غـفـران؟

همـا شـقـيقـان ، فـارفـق أن تـحـيلـهـمـا

ضـديـن ، بـيـنـهـمـا نـأى وهـجـران

مـن عـلـم الـنـاس أن الـحـب مـأثـمـة

حـتـى كـأن لـيس غـيـر الـبـغـض إحسـان

ثم أسـطورة أو «حدوته »عربية أخرى ، تقول أن خمارويه بن أحمد ابن طولون ، كان له أسد عوده أن يجلس بين يديه إذا أكل وأن يسهر عليه إذا نام . سافر مرة وتركه بمصر ، فقتل خمارويه في دمشق .

ويعجب العقاد من قصة رجل يحرسه السباع ويقتل الناس ، ويجعلهما مادة شعرية لقصيدة حلوة يقارن فيها بين وفاء السباع وغدر الناس .

وهذه المقارنة بين الإنسان والوحش معنى يروق للعقاد في كثير من شعره فما يزال يكرره ، في مثل هذين البيتين المفردين :

ظـلـمـوا الـوحـش ، وهـو والله أحـرى

مـنـك بـالـمـن أيـهـا الإنسـان

إن لـلـوحـش جـوعـتـيـن ، وأنـتـم

جـوعـكـم وفـي حـيـاتـكـم ألـوان

يقصـد العقاد أن جوعتي الوحش، هما جوعة الطعام وجوعة الجنس ، أما جوعات الإنسان فكثيرة لا نهاية لها :

جوعات الطعام والجنس والمال والمنصـب والحكم والنفوذ والسـيطرة والغلبة والزهو والفخفخة والجاه والادخار والتنقل .. إلى مالا نهاية له من مطامع الإنسان أو مطامحه .

والماضـي ، برجاله وأمجاده ، كعمود فرعون وأنس الوجود ، وهيكل أدفو وتمثال رمسيس وهكيل الكرنك وأطلال بعلبك ، وشكسبير والمعري وكولمب .. كل هذا يقف مواقف شامخة في شعر العقاد ، ولا سيما قصيدته «كولمب في الأوقيانوس» التي تعد من أجمل نماذج الشعر المعاصر ، إذ يشبه كولمب ،كأول رجل يطأ الدنيا الجديدة ، بآدم ، أول رجل وطأ دنياه القديمة ..

يقول :

من لكولمب .. لا السماوت تهديه
ولا النور في دجاه بنور
لو نعيب الغراب يسمع ، لا عتد
نعيب الغراب صوت بشير
تظهر الشمس كل سوم ، ولا يأذن
للأرض حاجب بالظهور
ثم لاحت ، فظنها القوم راحا
مدها الله من وراء البحور
غرض كان ، لم يصب منه خيرا
وتولى وليس بالمشكور
ذلكم آدم الذي أورث الناس
... كميراث آدم المعمور
لا تروموا الكبير يركب هولا
إنما الهول من مطايا الكبير

أما قصيدته في أبي العلا، فهي جزء من نفسه ، وبعض من فلسفته ، فقد عاش العقاد ، عزبا لم يتزوج ، أخذ بقول أبي العلاء :

هذا جناه أبي على
وما جنيت على أحد

وبقوله :

وإذا أردتم بالبنين كرامة
فالحزم أجمع تركهم في الأظهر

ويتحدث العقاد عن فلسفة أبي العلاء في «ترك البنين في الأظهر» فيقول «فهو والد رؤوف ، صد أبناءه عن الحياة رحمة بهم ، فيا لها من رحمة لا يعرفها له أبناؤه ، ومتى كان الأبناء يعرفون البر للآباء ؟ »

ثم يتصور العقاد أبناء لأبي العلاء في عالم الغيب ، يتوسل إلى أبيه أن يريه الحياة، وهو يزوده عنها وينصح بالبقاء في عالم العدم .

يقول هذا الابن الغيبي لأبيه ، في قصيدة مثلثة الشطرات مجددة الشكل :

يا أبي طال في الظلام قعودي

فمتى أنت مخرجي للوجود

طال شوقي إليه فاحلل قيودي

ليس يقوى عليه طفل ضعيف

فأجزني من ظله المسدود

ويمضي الابن الغيبي في مطالبة أبيه بالإفراج عنه حتى يرى الدنيا ومفاتنها .. إلى أن ينتهي ، فيظاهره أبوه قائلاً :

ولدي ، أنني أبوك الرحيم

أنا بالعيش يا بني عديم

لا تصدق مقاله من بعيد

أن غنم الحياة من لم يجده

لم يمتع به ، ولم يفتقده

فاغتنم ربح شرها المفقود

شرها يا بني سر ثقيل

خيرها يا بني خير قليل

أهلها يا بني أهل حقود

قف بباب الحياة لا تدخلنها

واعتصم يا بني ما اسطعت منها

سوف ألقاك – فانتظر – بالوصيد

هذه بعض صور الماضي في شعر العقاد .

أما الحاضر ، فقد عاشه وسجله من أوسع دوائره السياسية والاجتماعية واليومية والإنسانية والكونية .. وحتى الغيبية والميتافيزيقية .

من صور الحضارة في شعره ، وصفه البديع للسينما ، ويقول في مطلعها:

بيك ماذا في ستائرك الطلس

أشباح جن تلك تظهر للأنس؟

تفر فرار الجن من طلعة الشمس؟

ومن صورها ، وصفه للسابحات الفاتنات في البحر ، منشدًا :

ما حاجة الأملاك للطهر ؟

أم تلك بعض عرائس البحر ؟

أم لؤلؤ رطب ، توائمه

عريت عن الأصداف والقشر؟

إلى أن يقول في وصف واحدة منهن بالذات :

في الماء صورة كوكب يسري

فضية الأوصال مفرغة

فضية الأوصال مفرغة

في الحسن من فرع إلى ظفر

لو ذاب جسم من نعومته

في الماء ذابت وهي لا تدري

في الخمس بعد العشر ساحرة

تهتز من سكر وليس بها

إلا عقار التيه من سكر

في الماء زاد توهج الجمر

تطفو وتطفر وهي لاهية

كالفلك بين المد والجزر

أما غيبياته ، وأبرز محاولاته فيه ملحمة «ترجمة شيطان» .. فهي تجرنا إلى الحديث عن مدى إيمان العقاد .

وأنه لإيمان عميق ، موروث ومفهوم ومحسوس .

يتحدث العقاد عن الله في كتابه «أنا» فيقول أن الله موجود ، وأن الفلسفة تؤكد هذا الوجود ، إذا تعلمنا أن العدم معدوم ، فالموجود ، موجود بلا أول ولا آخر ، لأنك تستطيع أن تقول «كان العدم قبله» أو يكون بعدم بعد » وموج دبلا نقص يعتري الوجود من جانب عدم ولا عدم هناك .. موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص ، لأن الكامل المثل هو الله ، ونحن الفانين لن نرى إلا جانبًا واحدًا من الصورة الخالدة في فترة واحدة من الزمان .

ويطول بنا الحديث عن شعر العقاد فلا ننتهي في مثل هذا القدر المحدود من الصفحات ، فلابد لنا من أن نصطنع وقفة أخيرة نلملم بها أطراف الحديث فيقول أن العقاد كان صحفيًا وناقدًا ومؤرخًا وقصاصًا وناظم أغنية .. ولكنه كان يعتد ، أكثر ما يعتد يكونه شاعرًا ، وأن أرفع مناصب حياته أنه كان مقررًا للجنة الشعر .

وفي هذا المنصب ، خاض أكبر معارك حياته الأدبية – وهي كثيرة مع دعاة الشعر الجديد ، المتحرر من الوزن والقافية .

ومن التجني على العقاد أن يقال أن وقفته هذه من الشعر الجديد ، هي وقفة رجعية ، فالتاريخ يشهد أنه السياسي الوحيد في عهد الملكية ، الذي وقف على منبر البرلمان يطالب برأس الملك ، وقد دفع ثمن هذه الصيحة تسعة أشهر في السجن .

والتاريخ يشهد أنه كان من أوائل الثائرين على الوفد حينما انحرف الوفد والتاريخ يشهد أنه عاش ما عاش في مجال الحزبية بلا مغنم ، وأنه ذاق شظف العيش دون أن يمد يده وأنه عاش عيشة النساك المتقشفين إلى أن مات ولم يترك من عرض الدنيا إلا كتبه .. كتبه التي أورثته الضنى والسهر .

ثم يختتم صالح جودت حديثه عن شعر العقاد ومنهجه في الشعر فيقول :

«لم يكن عداؤه للشعر الجديد أذن عن رجعية ، لا عن جمود ، فهو صاحب المدرسة العقلية في الشعر ، والنقد والفلسفة ، التي لا تعترف بالجمود وهو صاحب أول دعوة للتجديد في الشعر المعاصر ، مع صاحبيه عبد الرحمن شكري وإبراهيم المازني .

وكان تجديدهم تطويرًا للشكل المضمون معا .

أما تجديد المضمون ، فلا ينكره ألد خصوم العقاد ، وأما تجديد الشكل ، فإليك صورة عذبة منه ، في قصيدة «بعد عام» منها :

كاد يمضي العام يا حلو التثني

أو تولى

ما اقتربنا منك إلا بالتمني

وعذاب

لهب في القلب ، فردوس لعيني

في اقترابي

غير أنا لا ترى الفردوس إلا

رسم راسم

وشربنا من جحيم الحب مهلا

شرب هائم

وصورة أخرى للتجديد في الشكل ، نجدها فيما أسلفنا من نماذج ، ولكن العقاد كان يرى – ورأيه الحق فيما نرى – أن التجديد يجب أن يكون مقيدًا بقيود الفن ، لأن الفن في ذاته قيد ، وكان يضرب الأمثال في ذلك بقوله أن المشي أسهل من الرقص ، ولكن الرقص دون المشي هو الفن ، وإن الكلام أسهل من الغناء ، ولكن الغناء دون الكلام هو الفن ، وفلا فن بغير قيد ، ومن القيد يستمد الإحساس بالجمال .

وبعد ، فأخشى ما أخشاه أيها القارئ ، أن تزعم أنني أنصفته ، لأنني لم أكن من مدرسته ، بل الحق أنني لم أكن من مدرسته ، بل الحق أنني كنت من المدرسة النقيضة ، وهي مدرسة شوقي ، ولا أزال عليها ، ولا أفتأ أقول – على غير رأي العقاد – أن شوقي هو سيد القدامى والمحدثين بموسيقاه الفنية ، وأنا ممن يرون أن الموسيقى هي المادة الأولى في بلاط الشعر .

ويرى الشاعر فاروق شوشة (١٩٣٦ – ٢٠١٦) أن شعر العقاد هو وحده – من بين كل آثاره القلمية – الذي يكشف لنا عن ضعفه الإنساني ، ويجعلنا ننسي صورة «السوبرمان» أو «الرجل الخارق » التي تخرج بها سائر من سائر كتاباته ، صورة تتشكل من عناصر العناد والإصرار والكبرياء ، والتحدي والشعور بالزهو والتفوق والاستعلاء على الآخرين ، أما العقاد في شعره قهر كائن شديد الهشاشة لفرط حساسيته واتقاد مشاعره ، ورهافة وجدانه ، تنوشه الظنون ويقلق كما يقلق الناس ويبكي بكاء الطفل الذليل ويغص بالماء ، الذي أعده للري ، ويتقلب في نيران الجحيم ويتمنى لو باع حظه كله بساعة واحدة ينسى بها عمره فكأنه لم يولد

يوم الظنون صـــدعت فيك تجلدي   وحملـت فيـك الضـيم مغلول اليـد
وبكيـت كـالطفـل الـذليـل أنـا الـذي   مـا لان في صـــعب الحوادث مقودي
وغصــصــت بـالماء الذي أعددتـه   لـلـري فـي قـفـر الـحـيـاة الـمـجـهـد
لاقـيـت أهـوال الشـــداء كـلـهـا   حتـى طغـت فلقيـت مـا لـم أعـهـد
نـار الـجـحـيـم إلـى غيـر ذميـمـة   وخذي إليك مصـــارعي في مرقدي
حيران أنظر في الســماء وفي الثرى   وأذوق طعم الموت غير مصـــرد
أروى وأظمـأ عذب مـا أنـا شـــارب   فـي حـالـتـي نـقيـع ســم الأســـود
وأجيـل في الليـل البهيم خواطري   لا شـــارق فيـه ولا من مســعـد
وتعيد لي الذكرات ســالف صــبوتي   شــوهـاء كـاشــرة كمـا لم أشـــهـد
مســخت شــمائلها التي ســعدت بها   روحي ، وليـت شــقيهـا لم يســعـد
وعرفت منها وجه أصـــبح ناضـــر   ورشـــفـت منهـا ثغر ألعس أغيـد
ســومحت بل جوزيت كيف وعيت لي   بالأمس فيك ضـــراوة الذئب الصـــدي
ســومحت بل جوزيت كيف طويت لي   زرق الأســنـة في الإهـاب الأملـد
أمســيت حربي في الظلام وطـالمـا   جـلـيـت لـي وجـه الـظـلام الـمـربـد
ورجعـت أهرب من لقـاك وطـالمـا   ألفيت عندك في الشـــدائد مقصـــدي
مـا كـان من شـــيء يزيـد تنعمي   إلا يـزيـد الـيـوم فـيـك تـلـددي
أواه من أمســـى ومن يومـي معـا   والـويـل من طـول الـتـردد فـي غـد
أهـب الـخـلـود كـرامـة لـمـبشـــري   أن ليس يومي في العـذاب بســرمـد
وأبيع حظي في الحيـاة بســـاعـة   أنســـى بـهـا عمري كـأن لم أولـد
وأســوم مرعى العيش غير مزود   وأرود روض الحســن غير مقيـد

وهناك من يرى أن هذه القصـــيدة ، «يوم الظنون» هي من بدائع العقاد الشعرية، وشاهد على حقيقة شاعريته ، بل إنها عروس قصائده على الإطلاق وهو افتنان بشعر العقاد ليس بالمستغرب على تلامذته ومريديه والراغبين في إنصـــافه شـــعريًا ، وقد يبالغ بعض هؤلاء فيفردون لقصـــيدة العقاد في رثاء «مي» موقعًا يتقدم قصـيدته «يوم الظنون » ومنهم من يرى أن قصـيدته عن «الكروان» التي ضمها ديوان «هدية الكروان» هي الأولى بالتقديم والإشادة .

وفي هذه المختارات من دواوين العقاد ، نطالع بكائية للعقاد تمثلان أصـدق شـــعره عاطفة وحرارة في مجال بكاء الأحياء ، ووداعهم إحداهما في وداع «مي» التي شـــغفت عددًا من كبار أدباء ، ومبدعي زمانها حبًا وولهًا ، واســـتطاعت أن تقنع كلا منهم بأنه – وحده- المقرب الأثير ، وكان العقاد في مقدمة هؤلاء . والثانية في وداع «بيجو» كلب العقاد الأثير ، اللصيق بوجدانه وقلبه . ومن الإنســـان إلى الحيوان يرقى العقاد في إبداعه الشـــعري ، وفي تعبيره عن مشاعر اللوعة والفقد ، إلى ذروة بعيدة سامقة ، لا نألفها كثيرًا في شـعرنا العربي . والبكاء عند العقاد ممتزج كعادته بالفكر والتأمل ، والارتفاع عن الموقف المحدود إلى المعنى الكلي والرؤية الفسـيحة الشـاملة ، ها هو ذا العقاد وجهًا لوجه مع الموت ، يواجهه ويستصرخه ويثور عليه ، ويحقد على التراب الذي يضم وديعتين غاليتين ، وروحين نادرتين المثال :

كـل هـذا في التراب .... آه من هـذا التراب!

ولا يفوته أن يسترجع مخزونه الثقافي والنفسـي عن الحيوان عامة والكلب خاصة ، ويستحضر – بشاعريته – قطمير ، الكلب الذي صحب أهل الكهف وارتبط اسمه بهم ، وكل الكلاب في رأي العقاد – والذين هم على شاكلة بيجو محبـة ووفـاء وذكـاء ، ورفـاهـة شـــعور – هم آل قطمير ، المـذكرون بـه وبأسطورته في النبل والوفاء :

يا آل قطمير هواكم عجيب

وكان مجمل رأى فاروق شوشة أن ثمة خزانًا للدمع يمتلئ به وجدان العقاد وينهمر في بكائياته شـاعرية دامعة ، ومشـاركة أسـيانه ، وضـعفًا إنســانيًا مرتطمًا بالقدر، متصـلبًا في مواجهته وتحديه .. وهي الثنائية التي مثلها العقاد دومًا باعتباره تجسيدًا لحوار الصـخر والنهر في مهاد نشـأته الأولى : أسـوان حيث يشـمخ الجرانيت والصـوان في عناق النهر المتدفق ، الممتلئ بالجنادل والصـــخور ، هذه الثنائية التي نطالعها في تجليات شـــعره : انســـياب رقةٍ ووعورةَ خشـــونة ، نزقَ طفولة وحكمةَ كهولة ، اندفاع عاطفة وروية عقلٍ وفكر ، رضًـا يتسع فيحتوي العالم وغضبًا يشتعل معلنًا عن رغبة في تدمير الكون – هي التي أودعت شـعره هذه الفصـول المختلفة من الطقس النفســي والفني ، وأغنت رحلته مع الشعر بحصـاد من التجارب المتميزة ، والأصـداء النادرة والمعالم الفريدة . [١]

---

(١) المرجع السابق / ص ٢٤ .

أليس هو القائل في تقديم شعره لقارئه مؤكدًا هذه الثنائية :

هـــذا كـــتـــابـــي فـــي يـــد الـــقـــراءِ
يـــنـــزل فـــي بـــحـــر بـــلا انـــتـــهـــاءِ
فـــيـــه مـــن الـــحـــكـــمـــة والـــغـــبـــاءِ
وفـــيـــه مـــن يـــأس ومـــن رجـــاءِ
وفـيـه مـن صـــمـت ومـن ضـــوضـــاءِ
صـــورة مَـحْـيـايَ لـعـيـن الـرائـي
فـلـيـلْـقَ بـيـن الـقـدح والـثـنـاءِ
مـا شـــاءت الـدنـيـا مـن الـجـزاءِ

وشيئًا فشيئًا سينحسر عنا وجه العقاد : الكاتب الموسوعي ، لأن عصر التخصص وثورة المعلوماتية والانفجار المعرفي بتجاوز العقاد – فيما تناوله في كتاباته – بكثير – فلم تعد آراؤه في النبات أو الحيوان أو الفلك أو الطبيعة أو التاريخ – مثلاً – صالحة للاستمرار أو مخاطبة الحاضر والمستقبل ولم تعد وفرة اهتمامه – بالكتابة في كل شـيء – تَشْـدَهُ القارئ المعاصـر الذي يسعى إلى التخصص الضيق والتناول العميق . .

ولن يبقى من العقاد إلا شعره ، خطابا إبداعيًا يتجه إلي قارئ كائن وقارئ لم يوجد بعد . وستبقى في هذا الشعر صورة العقاد الحقيقة – إذا أخذنا بنظرية المرايا واعتبرنا الشعر مرآة للشاعر أو صورة لبيئته وعصره وزمانه ، وجهده الإبداعي المستمر من أجل البرهنة على مفاهيم جديدة للشعر دعا لها منذ صيحته الأولى في كتاب الديوان الذي أصدره بالاشتراك مع زميله في رحلة الحياة والفكر : إبراهيم عبد القادر المازني ، في عام ١٩٢١ ، ثم عاد على تاكيدها وبلورتها في كتابه «شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي» عام ١٩٣٧ ، ولم يفته أن يشير إليها في مقدمات دواوينه الشعرية ، بل وفي تقديمه للجزء الثاني من ديوان عبد الرحمن شـكري – وقد يرى البعض أن المسافة شاسعة بين ما نادي به العقاد من فكر وتنظير وما أنجزه من إبداع شعري وانه في كثير من جوانب هذا الإبداع لم ينجح في التحرر من أسر النموذج الشوقي فجاءت بعض قصائده على غرار قصائد شوقي من حيث التناول والصيغة وإن لم تَرْقَ إلى أفقه الكلاسيكي فخامة وروعة بناء .

نعم ، سيبقى العقاد الشاعر أضعاف بقاء العقاد الكاتب ، وسيبقى إبداعه الشعري المتميز ، يجتذب مريديه وعاشقي فنه ، ونموذجه الشعري ، وجمهرة أخرى يتملكها الفضول ، فتقترب من تخوم هذا العالم الثريّ المتميز تحاول أن تكون من وارديه .

لقد كان العقاد يرى – كما سجل في تقديمه لديوانه الأول – أن الشعر يعمق الحياة ، فيجعل الساعة من العمر ساعات : «عش ساعة مفتوح النفس لمؤثرات الكون التي يعرض عنها سواك ممتزجة طويتك بطويته الكبيرة ، تكن قد عشت ما في وسع الإنسان أن يعيش ، وملأت حقيبتك من أجود صنف من الوقت ... » .

فلتملأ ساعات العمر بمثل هذا الشعر العميق البديع ، نغم أعمارًا من المتعة والبهجة ، والنشوة الرفيعة ، تضاف إلى الأجل المحدود.



العقاد والغزل الهروبي:

يصنف د . سعد دعبيس غزل العقاد بالغزل الهروبي شأنه شأن العديد من الشعراء الرومانسيين ويلخص العوامل المؤثرة في غزله بما يلي :

أ-تكوينه النفسي :

ولعل أهم سمة بارزة في نفسية العقاد إحساسه بشخصيته العظيمة المتفردة الجبارة ، وقد يصل هذا الإحساس عنده لدرجة الغرور كقوله :

نحن قوم يا حبيبي قد خلقنا ... للجمال

إن أجاد الله في الخلق أجدنا ... في المقال

صاغنا الله لشدو وغناء ... حيث كنا

ونهانا عن جمود وجفاء ... فانتهينا

قال : غنوا وصفوا خلقي ... في القصيد

واطلبوا أجركم عند الربيع ... والخدود

ففي البيتين الأولين يصـــل به غروره إلى تعبير يمس التقديس والإجلال اللازمين للذات الإلهية ، إذ أن أسـلوب الشـرط هنا يضـع إجادة الله في الخلق موضع الاحتمال والشك .

وقد نشأ عن إحساسه بتفرد شخصيته الذي لازمته منذ نعومة أظفاره ميله إلى الجدل الذهني ، وقد اتضـــح ذلك في أثناء دراســـته عندما كان يختار في حصـص الإنشـاء المعتمدة على الموازنات أضـعف الطرفين في الموازنة ، ليظهر قدرته للمقلية في إعلان الطرف الضعيف ببراهينه الدمغة ، وهي قردة ظلت ترافقه طوال حياته بل لقد اندلعت فيما بعد اندلاعًا ، حتى بدت كتاباته حادة المنطق حدة شديدة .

وقد يكون لهذه الخصـوبة الذهنية أثر فيما نراه أحيانًا من معان فلسـفية في شـعره، فقد كان يرى أن بين الشـعر والفلسـفة صـلة وثيقة ، ولا بدع في أن يكون هذا رأي شـاعر هو أيضًـا فيلسـوف ، ذلك أن الشـعر الأصـيل هو الذي يبقى بما وراءه من زاد، وهو شعر المعنى والفكرة والعاطفة لا اللفظ والطلاء.

ولم يعتمد تكوين العقاد النفســي على خصـوبة ذهنه فقط ، بل اعتمد أيضًـا على عاطفية متدفقة ، فالعقاد في شـــعره الوجداني – بصـــفة عامة ، وغزله بصـفة خاصـة – أقرب إلى العاطفية منه إلى الذهنية ، ولما كانت هذه النقطة مثار خلاف بيني وبين بعض النقاد ، فأتناولها تفصـــيلا في حديثي عن مفهوم الحب عنده .

ب-ثقافته الموسوعية الضخمة :

وهي ثقافة تكاد تبدو أسـطورة غارقة في الخيال ، وقد كان العقاد على حق حين قال :

يـا كـتـبـي أورثـتـنـي حســـرةً ... هيهـات لا تنســـي ولا تـذهـبُ

يا كتبي ألبسـت جسـمي الضـنى ... لم يُغْنِ عني جلـدك المُـذهَـبُ

كم ليلـة ســـوداء قضـــيتـهـا ... ســـهران حتى أدبر الكوكـب

كـأنــنـي ألـمـح بـيـن الـدجـى ... جمـاجم الموتى بـدت تَخْطُـبُ

والنـاس إمـا غـارق في الكرى ... أو غـارق في كـأســـه يشـــرب

أو عــاشـــق يهواه معشـــوقـه ... فنـال من دنيـاه مـا يرغـب [(١)]

وقد ســـاعده على ذلك ما امتاز به من عقل ذكي ثاقب ، وحس دقيق حاد وقدرة بـارعـة على درس مـا يقرؤه وبحثـه وتحليلـه ، وقد عكف على قراءة فلاسـفة العرب والغرب ، وانفتحت له أبواب أدبنا والآداب على مصـاريعها ، ونفذ من كل ذلك إلى صـورة أدبية عربية جديدة ، فسـح فيها لطاقات التعبير ، حتى لكأنما انتقل بأدبنا من ضفة إلى ضفة.

(١) انظر مع العقاد ص ١٤ دكتور شوقي ضيف .

وقد كان لثقافته الغربية أثر في شعره ، وأستطيع أن نلمح بعض هذا التأثير في قصائده المعربة عن شكسبير ، كما يبدو تأثره بالرومانسية الإنجليزية في أمواج السخط والألم تتدفق أحيانًا في شعره كقوله مرحبًا بالظلام .

وَلهذا الظلامُ خير من النور   إذا كنت لا تَرى وجه حًرٍّ

ها هنا أطلق العنان لأشجاني   وأبكي نفسي وأنشد شعري

وقد كان «العقاد» مغرمًا بزعيمي التشاؤم في الآداب العربية والغربية . ألا وهما.

أبو العلاء المعري ، وشوبنهور . وربما كان ذلك السخط والتشاؤم راجعين – كما أوضحت سابقًا – إلى طبيعة العصر . وتناقضات المجتمع المريض الممزق .

جـ-مفهوم الشهر عنده :

وقد كان العقاد أحد رواد الثورة التجديدية في الشعر وأشدهم صلابة وقوة في الدفاع عن التجديد ، والشعر عنده حقيقة الحقائق ولب اللباب والجوهر الصميم من كل ماله ظاهر في متناول الحواس والعقول . وهو ترجمان النفس والناقل الأمين عن لسانها . فجوهر الشعر عنده تعبير عن الوجدان ، وترجمة خواطر النفس فالشعر لا تنحصر مزيته في الفكاهة العاجلة والترفيه عن الخواطر .

لا بل ولا في تهذيب الأخلاق وتلطيف الإحساسات ، ولكنه يعين الأمة أيضًا في حياتها المادية والسياسية وإن لم ترد فيه كلمة عن الاقتصاد والاجتماع ، فإنما هو كيف كانت موضوعاته وأبوابه مظهر من مظاهر الشعور النفساني ، وإن تذهب حركة في النفس بغير أثر ظاهر في العالم الخارجي.

مفهوم الحب عنده (بين العاطفية المتدفقة والذهنية المتوقدة) :

يلاحظ أن بعض النقاد قد انتهوا من دراستهم لشعر العقاد إلى رأي فيه شيء من المجافاة لواقعه النفسي ، إذ يرون أن شعره ذهني خاضع للعقل . لا للعاطفة .

وأن العاطفة عنده تتوراي وراء العقل ، فالدكتور طه حسين يثني عليه لأن ثقافته تظهر في شعره ، ولأنه لا يحفل بإعراض بعض القراء عن شعره العقلي .

والأستاذ عمر الدسوقي يرى أن «شكري » زاوج بين العاطفة والعقل ، بينما آثر المازني ، العاطفة وانفرد العقاد بالفكر .

كما يرى الدكتور أحمد هيكل أن العقاد زعيم الاتجاه التجديدي الذهني .

ويعدد سعد دعبيس أبرز العوامل المؤثرة في غزليات العقاد فيحددها في التكوين النفسي الذي يتمثل في إحساسه بشخصيته العظيمة المتفردة وذهنيته الجبارة التى تصل إلي الغرور ومع ذلك لم يعتمد تكوين العقاد النفسي على خصوبة ذهنه فقط ، بل اعتمد أيضًا على عاطفية متدفقة ، فالعقاد في شعره الوجداني – بصفة عامة وغزله بصفة خاصة – أقرب إلى العاطفية منه إلى الذهنية .

وثانيًا ثقافته الموسوعية الضخمة التي تكاد تبدو أسطورة غارقة في الخيال على حد تعبير د .دعبيس وقد ساعده على ذلك ما امتاز به من عقل ذكي ثاقب وحس دقيق حاد وقدرة بارعة على درس ما يقرؤه ، وبحثه وتحليله .

وفي المجمل يرى د سعد دعبيس أن العقاد في غزلياته لم يكن عاطفيًا خاضعًا لذهنيته ، بل كان أقرب إلى العاطفية المتدفقة ، ولعل أبلغ دليل على ذلك تمجيده العاطفة ، وتفضيلها على العقل في مقالة تحدث فيها عن الشاعر العراقي «جميل الزهاوي» ، وفي هذه المقالة يوازن بين الشاعر من جهة والفيلسوف والعالم من جهة أخرى ، فالشاعر ، صاحب خيال وعاطفة ، والفيلسوف صاحب بديهة وبصيرة وحساب مع المجهول ، والعالم صاحب منطق وتحليل وحساب مع هذه الأشياء التي يحسها ويدركها أو يمكن أن تحس وتدرك بالعيان أو ما يشبه العيان ، فإذا قرأت مباحث الزهاوي برزت لك ملكته المنطقية لا حجاب عليها ولمست في آرائه مواطن التحليل والتعليل ولكنك تضل فيها الخيال كثيرًا ، والعاطفة أحيانًا وتلتفت إلى البديهية فإذا هي محدودة في أعماقها وأعاليها بسدود من الحس والمنطق لا تخلي لها مطالع الأفق ولا مسارب الأغوار ، فهو يريد أن يعيش أبدًا في دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار ولا تنطبق فيها الأجفان ، ولا تتناجي فيها الأحلام وليست دنيا الحقيقة كلها نهارًا وشمسًا ، ولكنها ليل وغياهب لا تجدي فيها الكهرباء.

وهو يرى أن خيال الإنسان وبداهته هما الأصل ، ثم يجئ العقل ليتممها ، ويأخذ منهما لا ليلغيهما ، ويصم دونهما أذنيه ، فأما الزهاوي فهو يحاول أن يلغي الخيال والبداهة ، ويظن أن الإنسان لا يتصل بالكون إلا بعقله ، ولا يهتدي إلى الطريق المتطور إلا بعقله ، وليس هذا بصحيح في حكم العقل إذا أنصف العقل ..

إن كل منطق لا يكون صحيحًا إلا إذا دخل في حسابه أمران محيطان بنا متغلغلان فينا ، لا مهرب منهما ولا روفان ، نعني بهذين الأمرين : «المجهول أولاً و «العاطفة » ثانيًا ، فهما راصدان لكل قضية يهدمانها هدمًا ما لم يكن لهما في زواياها مكان مقدور ، فالعالم لا شأن له بالمجهول ، وليس له شأن كبير بالعاطفة كما يحسها الشعراء ، وهو إذا أراد حصر نفسه في معمله ، وخرج منه بنتيجة علمية لا غبار عليها من ناحية النقد والاستقراء ، ولكن الفيلسوف إذا خرج إلى دنيا لا مجهول فيها ، ولا عاطفة توحي إليها ، إنما يخرج إلى دنيا غير دنيانا هذه ، وإنما يأتي لنا لفلسفة خليقة بعالم آخر غير عالمنا ، الذي يحيط به مجهوله ، وتعمل فيه عواطفه.

ويقول صديقه محمد طاهر الجبلاوي:

من الخطأ البالغ أن يقول بعض النقاد إن العقاد كاتب مفكر ، ويقفون عند هذا الحد وينسون الجانب العاطفي الذي يسيطر على حياته سيطرة تامة .

لقد كان العقاد كاتبًا مفكرًا حقًا ؛ ولكن العاطفة كان لها أثرها الفعال في حياته الفكرية ، وحياته الشخصية .

ويبدو أن اتهام للعقاد بانعدام عاطفته نحو المرأة قد أزعجه كثيرًا ، فراح يحاول نفي هذه التهمة بشتى الوسائل ، وفي ذلك يقول تلميذه أنيس منصور :

ولو جمعنا ما كتب العقاد عن المرأة والجنس لكان العقاد بحق كاتب الجنس الأول . ولكن العقاد لم تكن له حياة اجتماعية معروفة . ثم إنه كتب كثيرًا في موضوعات كثيرة شغلت الناس عن موضوعاته الجنسية .. وكان يدهشني العقاد كثيرًا عندما يثور في ندواته ويقول مهددًا : لن أموت قبل أن أعرف ألف امرأة . فليكن . ألف .. أو مائة ألف امرأة . فإن هذا لا يعني شيئًا هامًا .. إنه ممكن ولكن لماذا ؟ لأن العقاد يدافع عن تهمة لا تعرفها . والتهمة هيب أنه بلا حياة عاطفية .. فكيف يكون شاعرًا ولا مغامرات له .. ولا قلب له . وكانت تهمة العقاد في ذلك الوقت أنه ليس شاعرًا . وإنما هو فليسوف ينظم أفكاره فقط وكانت تهمة مؤلمة ، ولذلك كان العقاد يحرص على الإشارة إلى أنه «فحل » مع أن العقاد له صفات أخرى أبقى وأعظم .

نعم .. لقد عرف العقاد المرأة ، وتدفقت في حياته العاطفية تيارات متعددة من نهر الحب ، ولم تمنعه كبرياؤه الذهنية من الإنحناء والخضوع لمن يحب وها هو ذا يعترف في شعره بسباحته في كل هذه التيارات ، والعب من مياهها

يقول في قصيدة «صنوف حب » :

عرفتُ من الحب أشكاله	وصاحبتُ بَعْدَ الجمالِ الجمال
فحُبُّ المصور تمثالهُ	عرفتُ وحب الشباب الخيال
وحب القداسة لم أعْدُهُ	وحب التصوف لم يَعْدُنِي
وفي كل حب ورى زنده	سِمات من المؤمن الدِّين
وحب المزخرف والمنتقى	وحب المجرد والعاطل
وحب الجماح وحب التقى	وحب المجدد والناقل
وحب الثقاة . وحب الصحاب	وحب الطبيعة في حسنها
وحب الجياع صحاف الطعام	وحب الظماء كئوس الشراب

لقد كان للحب أهمية عظيمة في حياته ، فالحب دينه وعقيدته .

الحب والشـــعر ديني والحياة معًا ... دين لعمرك لا تنفيه أديان

والحب عنده أصـــل الحياة ، ومنبعها الأول ، فقانون الجاذبية ســـر الكون والتجاذب بين الأحباب سر بقاء النوع :

هي الحيـاة جنين الحـب من قـدم ... لولا التجاذب ما ضـــمتك أكوان

والحب وطنه ، ولا قيمة للوطن بغير الحبيب :

إذا الـقـلـب أقـفـر فـي جـنـة ... فـليس بـهـا منبـت نـاضـــر

يقول العقاد في إحدى مقدمات قصـائده : والحب أقوى العواطف ، وأعمقها تفتيشًــا في النفس ، فهو ينيه فيها الإعجاب والعبادة ، والبغض والألم والغيرة والاحتقار ، والشـــفقة والقســوة ، وكل ما تشـــتمل عليه من حميد الخصـــال وذميمها ، فإذا وقف الإنســـان على حقيقة نفســه وقف على كل حقيقة يتاح له الوقوف عليها وكان الجمال له معلمًا يســتفيد منه ما لم يعلمه الجمال نفســـه ، ومنعمًا يهبه مالا يملك كالشــموس والأقمار التي تضــيء للعين المنظورات ، وهي بلا عين تبصـر ، أو نفس تشـعر فإذا خسـر الإنسـان في الحب غرضًـا أراده ، ربح منه غرضًـــا لم يرده ، وكان ما جاء من الربح عفوًا أكبر مما توخاه عمدًا وهذا فحوى قولنا .

محضـــتني سِـــرَّ الحياة وســـرها ... خـافٍ عليك جليلُـهُ والضـــامر

ويواصل العقاد تمجيده للحب وإكباره له فيقول :

الـحـب مُـحِيٍ لـلـنـفـوس وقـاتِـل ... ومُسَـــرِّح للـعـاشـــقين وآسِـــرُ

كفريســـة العنقـاء يقتحم الســـمـا ... وات الـعـلـيـة وهـو عـانٍ حـائـر

وإذا أردتَ مـن الـحـيـاة طـلاقـة ... في غير ما قيد ، فمـالـك نـاصـــر

الـكـون أعـظـم مـا رأيـتُ مـقـيَّـد ... يمشـــي له في كل صـــوب زاجرُ

والله ألـــزم نـــفســـــه مـــيـعـــاده ... وهو المصـــرُف للقضـــاء الآعســـر

يـا من عـلـيـه تـلـهـفي وتـلـددي ... قـد جُرْتَ ، فلتهنـأ بـأنـك جـائر

محضـــتني ســـر الحياة وســـر ها ... خـــاف عليـك جليلـه والضـــامر

إن الضـيـاء يُسـرِي العيونَ ولا يَرَى ... والحســـن يوقظ وهو غافِ ســـادِرُ

فلئن بخلـتَ بمـا ملكـت فحَسْـــبُنـا ... ما لسـت تملك ، فهو عندك وافر ..!

أنســـيتني نفسًـــا وقـد أذكرتني ... نفسًـــا وخيرهمـا التي أنـا ذاكر

ونتيجة لهذا الإيمان القوي بالحب ، فقد عاش ألوانًا ، عديدة من الحب ، كما صرح بذلك في قصيدة ، صنوف حب ، ولقد عرف الحب الهروبي الباكي كما عرف الحب الحسي الذي تفوح منه رائحة الجنس ، وسعد بحب الأطفال وحب الطيور ، كما عرف الحب الساخر الضاحك .

ويرى الدكتور سعد دعبيس أن حب العقاد لسارة كان حبًا حسيًا عاصفًا فيذكر أن العقاد قد أشار إشارة غامضة إلى قصة حبه في «سارة» ومن قراءتنا لهذه القصة ، أو : الاعترافات ، يتبين لنا بعض ألوان حبه ، «فحبه لسارة» مثلاً كان أقرب إلى الحب الحسي الآثم ، وبخاصة بعد أن عصفت الشكوك بقلبه ، وانتابه السأم[1] ، وفي ذلك يقول « عباس خضر » :

«وأكبر ظني أن حب العقاد «لسارة » كان نقطة البدء في عزوبته وإعراضه عن الزواج ، فقد أسعفته ولم تتأب عليه ، ثم ثارت شكوكه وساء ظنه فيها ، فقر في نفسه غدر المرأة وخيانتها ، والحب صراع بين الرجل والمرأة ، فإما إن ينالها أو تناله .. ينالها فلا يتزوجها ، أو تناله فتتزوجه[2] .

ويتفق أنيس منصور مع عباس خضر في ذلك الرأي ، فأنيس يرى أن حب العقاد لسارة إنما كان جنسًا فقط ، «وعلاقة مؤكدة مع امرأة يحتقر كل بنات جنسها قبل أن يراها ويجلس إليها ويثور عليها ، ويلعن الرغبة الجنسية نفسها التي تجعل عقلاً كبيرًا مثله يصبح صغيرًا تافهًا معها وأمامها ، أما حبه «لمي» فقد كان ذا طابع عاطفي روحي ، كما أحب في شيخوخته فنانة معروفة أوحت له ببعض قصائد غزلية ، وهذه الفنانة هي «مديحة يسري» .

ويستعرض د . سعد دعبيس ألوان الحب عند العقاد ، بادئًا بتلك الألوان التي تؤكد عاطفية العقاد ، المتدفقة في غزله ، وهي :

أ-حبه للطيور وأثره في غزله : وقد كان حب العقاد للطيور – وبخاصة الكروان – حبًا عميقًا ضاربًا بجذوره في قلبه ، وليس مجرد تأثره بقبرة «شلي» وهذا الحب العميق للطيور ، وتلك المناجاة الروحية العذبة التي تسري في «كروانياته » دليل واضح على عاطفية العقاد ، وأثر الوجدان في شعره ، وليس أدل على ذلك من تسميته ديوانًا بأكمله باسم هذا الطائر المحبوب لديه ، ومن تخصيص قصائد كثيرة لمناجاته ، إن «العقاد » يندمج في كروانه اندماجًا تامًا ، حتى ليتخيل حبه هو وعشقه في عشق الكروان فيقول :

الليل والصيف والحب	كلهنَّ أوَانُ
وأنت منهن طُرَا	على وعود تُصَانُ
خذ صمتهن وصفه	شَذْوًا له سريان

---

(١) د سعد دعبيس / الغزل في الشعر / ص ٣٤٦ .
(٢) عباس خضر / غرام الأدباء / ١٣١.

ثم يقول في القصيدة نفسها :

فــي الأرض بــيــتــك ثــاوٍ	وفــي الســـمــاءِ افــتــنــانَ
وبــيـــن ذلـــك مـــلـــهـــى	لـــلـــحـــب بـــل مـــيـــدان
والــلــهــو فــي الــحــب فــاعــلــم	كـــالـــحـــرب يـــا كـــروان
عــلــيــكِ مـــن ذا ومِـــن ذا	يـــا ابـــن الــلــيــالــي أمـــان

وهو لحبه المبرح لهذا الطائر يجعل موعد لقائه بحبيبته غناء الكروان ليلاً:

موعدي يا صـــاحبي يوم افترقنا	حيث كـانـت جيرة أو حيث كنـا
هـاتف يهتف بـالأسـمـاع وَهْنًـا	هو ذاك الكروان .. هو هذا الكروان

وحبيبة العقاد تغار من الكروان :

غــار حبِّي منـكَ فـاســمع إنني	عنـه أروى كل شـــيء حَســـنِ
وله الفضل ومنه الوحي لا	مـنـك فـي كـل مـقـال بـيـن

وفي مناجاته للكروان نلمح رأيه في الشـعر ، فصـيحة الكروان في الظلام هي لغة الوجدان ، ولغة الوجدان أصدق اللغات ، وهذا يؤيد الاتجاه الوجداني لمدرسة الديوان :

قـل يـا شـــبيـه النـابغين إذا دعوا	والجهل يضـــرب حولهم يجران
كم صـــيحـة لـك في الظلام كـأنهـا	دقـات صـــدر في الـدجنـة حـانِ
هن اللغات ، ولا لغات ســوى التي	رُفعـتْ بهن عقيرةُ الوجـدان
إن لم تقيـدهـا الحروف فـإنهـا	كـالوحي نـاطقـة بكـل لســـانِ
أغنى الكلام عن المقـاطع واللغى	بـث الحزين ، وفرحـة الجـذلان

ب-حبه للأطفال :

والعقاد يجيد تصوير براءة الطفولة وأحاسيسها الساذجة وما أجمل تلك اللوحة التي يصور فيها لهوه مع طفلة في قصيدة «غيرة طفلة» :

ما كان أملح طفلة	من غير شيء تخجلُ
ضاحكتُها فتمايلتْ	وشعورها تتهدل
ورجوت منها قبلة	فأبت كمن يتدلل
وتعبت وهي تصدني	حينًا وحينًا تقبل
فرفعت مرآة لها	فتطلعتْ تتأملُ
قلت انظري في وجهها	أفأنت أم هي أجمل
قالت وفيها غضبة	أنا بالملاحة أمثل
ومضت تقول إلى متى	تنسى الجميل وتجهل
وأقول أيكما إذن	أدعو بها فأقبّل
عطفت عليَّ وكل محبو	ب يغار فيسهل

***

فهذا العملاق العزب ، كان شديد الشغف بالأطفال ، رقيق الشعر في حديثه إليهم أو عنهم .. وإن جبروت العقاد ليختفي ، ولا يكاد يظهر في هذا الشعر الخفيف اللطيف المؤثر.

جـ-الحب الهروبي الحالم :

وقد أشرت قبل ذلك إلى تأثر العقاد وزميله بالرومانسية الإنجليزية ، وكما اتضح هذا الأثر عند «شكري » في ارتباط حبه بالموت ، فكذلك حبه بالموت فكذلك نجد العقاد يسير بتجربة حية في ذلك الدرب الموحش أحيانًا ، وقد يكون إيغال «شكري» في هذا الدرب المظلم مما شجع العقاد على استئناف هذه المسيرة الكئيبة ، ففي الربيع يدعو حبيبته إلى ارتشاف كئوس الحب . هذا جميل .. قبل فوات الأوان .

قم حزين العمر فاطرب وارتشف	من كئوس الحب ما يجلو الحَزَنْ
أدبر الليل ولم يبق سوى	صيحة الديكِ وينجاب الوسَنْ
أنت في الصيف وهذا فجره	يفتح الجنة من غير ثمن

ومن قصائد الغزل الهروبي التي تتفجر فيها أحزان «العقاد» قصيدة «أين الدموع؟ » التي يقول فيها :

يا غزير الدموع ! أين الدموعُ ؟ كم تريد البكى وما تستطيع ..!

كيف سلواك والفؤاد بما يُسليه في فاجعاته مفجوع

لهف نفسي عليك ياقلب يأبى فيك إلا الكمون داء وجيع

عبرات ، برء الجوى لو أريقت وسمام حتى تراق نقيع

كنت فيك لا تغيض ولا تبرد فالصدر من شجاها صديع

ولا مفر له أحيانًا من اللواذ بنهر النسيان :

إيه نهر النسيان أين عباب لك في عالم الأساطير جار

بدي أشتري صبابة كأس منك تمحو معالم التذكار

ويؤكد د . سعد دعبيس أن كل الشواهد الشعرية للعقاد تؤكد ثورته العاطفية المتدفقة والمتأججة .

فهل بعد الثورة العاطفية المتدفقة يمكن أن يتجاهل الباحث الدارس لشعر العقاد عاطفيته العنيفة ؟

ربما يبدو طابعه الذهني في ألوان شعره الأخرى ، أما غزله فلم أتبين في لوعته وشجونه إلا قلبًا خافقًا بالحب ، ظمآن إلى المزيد من عذابه ، منتظرًا دائمًا في قلب الليل نداء الكروان ، ليتحدث مع حبيبته بلغة الوجدان ، فلا لغة عنده إلا لغة الوجدان .

د-الحب الحسي :

وإذا كان العقاد قد عرف هذا الحب الهروبي الحالم المعذب و عاش فيه بعيدًا عن المادة ، زاهدًا في وصف الثغور والنهود ، والسيقان والأرداف مهتمًا بوصف الروح والشمائل ، وخلجات المحب العاشق . «إذا كان العقاد قد عرف هذا اللون من الحب الروحي فإنه قد عرف أيضًا الحب الحسي الذي يصور الجوانب المادية ، حيث نراه أحيانًا يصور حبيبته في البحر ، وقد أصبحت فتنة مكشوفة ، وذلك إذ يقول في قصيدة «الحمام» :

ما حاجة الأملاك للطهر؟ أم تلك بعض عرائس البحر ؟

أم لؤلؤ رطب توائمه عريت عن الأصداف والقشر

لا بل مُنِيتُ بفتنة خلعتْ جِلبابها للكر والفر

والغيد أنْفَذُ مارَمين إذا جُرّدْن عن زود وعن سُترِ

وهو يناشد حبيبته التي خاصرت زميلة لها ، وراحت تلثمها ، أن توفر هذا العناق وتلك القبلات لثغره هو :

راحت إلى ترب تخاصرها   كلتاهما في صحوة العمر
راحت تخاصرها وتلثمها   وتضمها حينًا إلى الصدر
لا تلثمي فمها فما ظمئت   يومًا لريقك والثمي ثغري

وقد يسأم حين يرى حياته قد أصبحت قبلات ومواعيد :

قبلات كل يوم وعناق   ووداع كل يوم ولقاء
واشتياق كلما حان الفراق   وعهودا كلما جن المساء
وعتاب كل يوم وخصام   جائر الحكم ، كثير العلل
ترتمي فيه بأهوال جسام   بين سخرَ المنى والقبل

هـ-الحب الذهني:

وإذا كانت متابعتي لغزله قد أوضحت سيطرة العاطفة المتدفقة على غزله فإن ما ظهر في ثنايا غزله من التفاتات ذهنية ، تتخلل بعض قصائده يدعوني إلى إيراد بعض الأمثلة التي توضح أثر الجانب الذهني في غزله وإن يكن ذلك الأثر الذهني على قدم المساواة مع التيار العاطفي في غزله ولعل هذا الأثر الذهني يتضح في ظاهرة الشك التي تغلف بعض قصائده الغزلية فهو يشك فيصدق حبيبته ووفائها ، وهناك أكثر من قصيدة تعكس هذا الشك .

ومن ذلك قصيدة «الحب المريب» التي يقول فيها :

إني لفي ألمي بقربك كالذي   يحنو على ولد مريب المولد
أبدا يغص بقربه وببعده   ما بين عطف أب وجفوة مبعد
وأراك طوع يدي وألبث حائرًا   بين المحاذير منك والمتردد
أرضى وأغضب لا الرضا ببالغ   أمن اليقين ولا الغضاب بمهتد
وأظل أسخر من رضاي وغبطتي   وأظل أسخر من عذابي الأنكد

***

وقد كان شكه ووساوسه الذهنية من العوامل التي تفسد عليه سعادة الحب أحيانًا فقد يبدأ تجربة حب سعيد في قصيدة غزلية ، ثم نراه يقحم فجأة غراب البين في حديقة الحب ونعيب البوم في موسيقى الوصل واللقاء :

فلا تحسبن البوم تنهي المغانيا فقد تندب البومُ النفوس البواليا

وكم وحشة النفس يخشى اقتحامها أخو غمرات ليس يخشى الفيافيا

ولما تقضي الليل إلا أقله وحان التنائي جشت بالدمع باكيا

فأقبل يرعاني ويبكي وربما بكى الطفل للباكي وإن كان لاهيا

ولم يكتف بهذا الشك في محبوبته ، فراح يعكس وساوسه على مظاهر الطبيعة أيضًا إنه يراها مخدوعة مغررًا بها من الربيع الماجن الخليع :

ضِحْكُ الطبيعة لربيع كأنه ضحك الغريرة في عناق خليعِ

فإذا تبسم في الخريف جبينها أبصرتَ نظرة ريبة وخشوع

كالغادة الحسناء يعزب حسنها أثناء شيب في الشباب سريع

***

ومما يوضح ذلك الأثر الذهني غزله أحيانًا تقديمه لبعض قصائده بمقدمات يوضح فيها ما يظنه غامضًا من معانيه ، كما في قصيدة «تبسم» فهو فيها يعبر عن مفهوم حب يخالف المفهوم الشائع عند الناس ، فإذا كان الناس يرجعون الحب إلى التقارب والشبه بين المحب والمحبوب ، فالعقاد يرى حبه قائمًا بين متناقضين ، بين أسد وغزال ، وليل وصبح ، فالمسافة بينه وبين محبوبته في الطباع بعيدة المدى ، ولكن جمع بين النقيضين .. ليس غريبًا أن يصبح الأسد أسيرًا في كناس الجآذر ، وفي ذلك يقول العقاد :

فيا قرب ما بيني وبينك في الهوى ويا بعد شقّي دارنا في الخواطرِ

طوى الحبُّ ما بيني وبينك من مَدى فنحن قرينا موطنٍ متجاورِ

أيا مَنْ رأى صبحًا وليلا تلاَقيَا وإلفَيْن من صفو وشجو مخامر

لئن تخش مني الليل صعبًا مراسه لقد بتُّ أخشى منك شمس الهجائر

ليالي من ليل بحبك موثق وثاق الضواري في كناس الجآذر

تطالع منه الهول سهلاً مَقَادُهُ رخاء غواشيه ، شجيّ الزماجر

ويا رُبَّ مرهوب السّطا وهو مطلق إذا كف أضحى متعة للنواظر

وبعد . فأمام هذه التيارات الغزلية العديدة المنسابة من ينبوع حبه ، لا يمكن للإنسـان أن ينكر أثر المرأى في شـعر العقاد ، كما لا يمكن إنكار عاطفيته العنيفة على الرغم ما يبدو في بعض كتاباته من احتقار للمرأة ، ولعله في ذلك متأثرًا «بشوبنهور» الذي كان «يعجب بمن يسمون النساء بالجنس اللطيف » وكان يذعم أن جمال المرأة إنما يقوم على الغريزة الجنسـية وحجها ، وأنه ليس لا من مهمة سـوى حفظ النوع ، وأنها لا تقدر جمال الفنون ، إنما تقدر شيئًا واحدًا تسعى إليه دائمًا هو غزو الرجل والسيطرة عليه ، وكل أخلاقها تقوم على الغدر والمكر ، ومن الخطأ لذلك كله التسـوية بينها وبين الرجل في الحقوق » [١].

ويبدو أن هجوم العقاد لم يكن موجهًا إلى المرأة ،وإنما كان موجهًا إلى المطالبات بالمساواة بين الرجل والمرأة في النواحي السياسية والاجتماعية ، فالمرأة في نظرة تحب لتستسـلم لحبيبها وتطيعه ، والمرأة عنده قد خلقت لتعطي وتطيع ، كما خلق الرجل ليأخذ ويسـود ولو مجد الرجل القوي السـيد لما كان للحركة النسائية أثر ، والرجل هو الذي خلق حقوق المرأة [٢] .

«فلولا الرجال الذين يروقهم أن يروا المرأة حرة طليقة تعبث بالحياء ، وتحطم قيود العرف والدين والأخلاق لما وجدت أنثى تجسـر على النداء بالحرية ، ويطيب لها هذا النداء ، ولو كان الرجال كلهم أزواجًا يعنيهم من المرأة ما يعني الصـاحب من صاحبته ، وكانت النسـاء كلهن زوجات يحببن ويلدن ويتذوقن لذة الطاعة والإعطاء لكانت المسـاواة التي يهتف بها بعضـهن حلما كريهًا يقض المضاجع .

ولعلنا نلمح في هذا الرأي اعتداد العقاد بشـخصـيته ، ورجولته ، فهو لا يرى في المرأة إلا كائنًا حلوا تابعًا للرجل ، سعادته في استسلامه ، وطاعته للرجل ومهمته في الحياة : الولادة وتذوق لذة الطاعة والإعطاء .

ولكن العقاد حين خاض تجربة الحب ابتعد عن هذا الطابع المتعالي وآثر أن يكون إنسانًا عاشقًا ، لا عملاقًا متعاليا ، فبكى أمام المرأة وأطاعها ، وحن إليها وتعذب في سـبيلها ، ولم يكن هو السـيد الآمر ، بل كان في غزلياته الهروبية الباكية المطيع الأمين .

وعن صياغته :

يذكر د. سـعد دعبيس أن العقاد كان رائدًا من رواد التجديد في الشـعر ، وأحد من نادوا بأن الشـعر وجدان ، أي : تعبير عن حالات النفس ، وقد كان من أبرز العوامل المؤثرة في صـياغته الاتجاه الرومانتيكي الذي سـرى إليه تأثيره من الرومانسية الإنجليزية ، والاتجاه الذهني الذي يسود بعض شعره .

---

(١) د. شوقي ضيف / مع العقاد / ص ٣٢ .
(٢) العقاد / ساعات بين الكتب /ص٢٠ .

أ-أما العامل الأول فيبدو في :

١-التعبيرات الحزينة الساخطة الباكية في قصائد غزله الهروبي .

٢-تشخيص الطبيعة في صوره ، وقد رأينا كيف يندمج في الطبيعة ويتوحد معها، ويهيم في رحابها ، فيخلع عليها مشاعره وأحزانه ، ويسقط عليها شكه وقلقه في الحب ، ويحذرها من كلمات الربيع المعسولة ، ووعوده الكاذبة .

كما رأينا كيف يفضـــي إلى الكروان بأســـرار حبه ، كما لو كان يهمس بخواطره إلى صـــديق حميم يلتمس عنده العزاء ، والأمل ؟ وما أجمل تلك الصورة التي يناشد فيها حبيبته أن تعود لتتسلم منه الشمس كما تركتها له .

٣-الألفاظ القريبة من لغة الحياة ، ويتضـــح ذلك في قصـــائد كثيرة . منها قصيدة . «الثوب الأزرق » التي يقول فيها :

الأزرق الســـاحـــر بـــالصـــفـــاء
تـــجـــربـــة فـــي الـــبـــحـــر والســـمـــاء
جَـــرَّبَـــهَـــا ، مـــفصِّـــلُ ، الأشـــيـــاء
لـــتـــلـــبســـيـــه بـــعـــد فـــي الأزيـــاء
مـــجـــود الإتـــقـــان والـــرواء
مـــا ازدان بـــالأنـــجـــم والضـــيـــاء
ولا بـــمـــحـــض الـــزبـــد الـــوضّـــاء
زيّـــنـــتِـــهِ بـــالـــطـــلـــعـــة الـــغـــراء
ونضـــرة الـــخـــديـــن والســـيـــمـــاء

وفي هذا النص يتخيل الشـــاعر البحر والســـماء عارضـــي أزياء يقدمان لحبيبته النموذج الراقي في الألوان والتفصـــيل ويقومان بتجربته أولا قبل تقديمه لها .

وفي معجمه الغزلي نلمح اســـتحياءه بعض صـــوره وتعبيراته من حياة الطفولة ففي مقطعة قصيرة بعنوان شكوك العاشق ، يقول .

رأيـنـا ابـنًـا فـي الـكـرى زهـقـا   فـهـبّ مـروعًـا قـلـقـا
يضـــم ولـــيـــده ثـــقـــةً   ويـــنســـى أنـــه وثـــقـــا
ويـــخـــفـــق قـــلـــبـــه فـــزعـــا   ويـــفـــزع كـــلـــمـــا خـــفـــقـــا

وهو هنا يرمز للحب بالوليد القتيل ، وفي مقطعة أخرى بعنوان «توكيد » يقول :

أحدث نفسي بالفراق وأخشاه كما تَقذف الأمُّ الوليدَ لتلقاهُ

هو الشيء لا تدري بفرط وجوده ولا حية إلا إذا غاب مرآه

وهو لحبه الشديد للأطفال يقلد لغتهم الجميلة ناسيًا وقار شخصيته الجبارة المستعلية على المتجبرين من الحكام يقول العقاد :

البيلا ، البيلا . البيلا ما أحلى «سُلْب البيلا »

ب-أما العامل الذهني في صياغته ، فيبدو في تلك الحكم الذهنية التي تتخلل بعض قصائده الغزلية فنحس فيها أثرًا للإجهاد الذهني ، لا أثر الانسياب العاطفي.

كما يتضح في قصيدته «تبسم» وقد يسوق الحكمة ويأتي بدليل يوضحها مثل قوله :

الحب محيي للنفوس وقاتل ومسرح للعاشقين وآسر

ثم يبرهن على صحتها بقوله :

كفريسة العنقاء يقتحم السماوات العليا وهو عان حائر

وإذا أردت من الحياة طلاقة من غير ما قيد فمالك ناصر

الفصل الحادي عشر : أغاريد القلب العاشق - مختارات من شعر العقاد

ظمآن ظمآن لا صوب الغمام
ولا عذب المدام ولا الأنداء ترويني
حيران حيران لا نجم السماء
ولا معالم الأرض في الغماء تهديني
يقظان يقظان لا طيب الرقاد يدانيني
ولا سمر السمار يلهيني

العقاد

أغاريد القلب العاشق

وبعد أن طوفنا في حياة العقاد العاطفية وأثر المرأة في حياته وأدبه ماذا اكتشفنا؟ هل استطعنا الاقتراب من العقاد أنسانًا عاطفيًا يحب ويعشق ويتألم ويتعذب ويبكي ويفرح كما يفعل العشاق ؟

وهل زالت تلك الصورة التقليدية القديمة عن العقاد الصارم المتجهم المتعالي كما صورته أقلام بعض رجال الصحافة وأعداء العقاد وخصومه ؟

وماذا عن شعره ؟ الذي اتهمه البعض بأنه شعر فلسفي يغلب عليه طابع الفكر والعقل ويفتقر إلى المشاعر والأحاسيس والرقة العاطفية ؟

فالحب عند العقاد يضفي على الحياة معنى جديدًا حين يهب القلب نورًا ، لأنه يمنح الحب الإلهي حبًا ، ويكسو الحسن السماوي حسنًا ، فقد تجاوز العقاد في عشقه للحب إلى أبعد من هذا حينما اتخذ الحب عبادة .

ويرى د . عبد الحي دياب أن الدارس لشعر العقاد في الحب سيري أن طابع حب العقاد الحزن والشكوى وذلك لأن حبه لذات الحب ولذا فإنه كان يؤثر السهر والأرق من الحب على النوم والخلود ، وكان لا يحب إلا ليدمي قلبه بالحب ، ويستعذب في سبيله العذاب .

حتى أنه ليرى أنه إذا أقفر القلب من الحب في حبه ، فإنه لا يرى فيها نبتًا ناضرًا ولا طلعة بارزة ، ولا ثغرًا باسمًا .

لقد آثرت أن يكون ختام كتابي هذا تقديم بعض المختارات الشعرية للعقاد ذلك القلب العاشق الحساس المحب الذي يعبر لنا في شعره عن أسرار قلبه ، وسرائر روحه ويفصح لنا عن مكنون وجدانه وذوب قلبه بشعر مفعم بالعذوبة والرقة وحرارة العاطفة الجياشة لقلم جبار وقلب عاشق رقيق !

وقد أصدر العقاد عبر مسيرته عشرة دواوين شعرية هي :

- يقظة الصباح (١٩١٦م) .
- وهج الظهيرة (١٩١٧م) .
- أشباح الأصيل (١٩٢١م) .
- أشجان الليل (١٩٢٨) .
- هدية الكروان (١٩٣٣م) .
- وحي الأربعين (١٩٣٣م) .
- عابر سبيل (١٩٣٧م) .
- أعاصير مغرب (١٩٤٢م) .
- ما بعد البعد (١٩٦٦م) .

وسوف نختار هنا أحلى ما كتب العقاد في الوجدانيات سواء من غزليات أو عواطف ذاتية أو وطنية أو إنسانية . تقدم لنا العقاد عاشقًا ، ومحبًا ، وإنسانًا مرهف الحس ، رقيق العاطفية ، يتدفق رقة وعذوبة وإنسانية .

الحمْام [١]

ما حاجة الأملاك للطهر ؟   أم تلكَ بعض عرائس البحر!

أم لؤلؤْ رطبٌ تَوَائِمُهُ   عَريِتَ عن الأصداف والقشر

لا بل مُنيتَ بفتنة خلعت   جلبابها ، للكر والفر

هي فتنة عزلاءُ ، بل فتن   هوجاء ، ما تضربْ به يَبرِ

والغيد أنفذ ما رمين إذا   جردن عن زرد وعن ستر

يا حسنهُّن وما لبسن سوى   ثوب الملاحة والصبا النضْر

من كل ملساء القوام كما   صاغ المصور دُميةَ القصر

كالموجة البيضاء راقصة   يا طيبها من موجة تجري

بيضاء أو سمراء فارهة   والموت بين البيض والسمر

تلك المحاسن لا يموِّهها   شبُّ الخمار[٢] وطلية العطر

---

(١) ديوان «يقظة الصباح –القاهرة ١٩١٦م .

(٢) شب الخمار خداعه .

وحبيبة منهم تحسبها — في الماء صورة كوكب يسري
فضيةُ الأوصال مفرغةٌ — في الحسن من فرع إلى ظفر
لو ذات جسم من نعومته — في الماء ذابت وهي لا تدري
في الخمس بعد العشر ساحرةٌ — أعيت فنون قهارم السحر
تهتز من سكر وليس بها — إلاّ عُقارُ التيه من سكر
وتمجُّ أحيانًا مراشفها — مرَّ الزعاق كشارب الخمر
كالجمر خداها فإن سبحت — في الماء زاد توهج الجمر
تطفو وتطفر وهي لاهية — كالفُلْك بين المد والجزر
البحر يغضب وهي ضاحكة ، — شتان بين السخط والسخر !
وتميل من ظهر إلى بطن — طورًا ومن بطن إلى ظهر
نفضت عليها وهي غاربة — شمسُ الأصيل سحالةَ التبر
فإذا غدائرها ومَعْطِفُها — سيان لون العِطْفِ والشَّعْر
وكأنها من عسجد سُكبت — سبكَ الصنَّاع عرائس الفكر
راحت إلى تِرْب تحاصرها — كلتاهما في ضحوة العمر
راحت تخاصرها وتلثمها — وتضمها حينًا إلى الصدر
لا تلثمي فمها فما ظمئت — يومًا لريقك والثمى ثغري

نصيحة العاشق

لا أراني ألوم قلبك في الحب فحب الملاح حظ الشباب
غير أني أراك تطرق بابا خرج الطارقوه من كل باب
أن تكن بالهوى جديرًا فما كلّ حبيب يُعد في الأحباب
كيف يرضيك أن تحبَّ بغيًّا تجمع الحب في سجلّ الحساب
تَلّبسُ الصبَّ يا أخيّ على الصب كلبس الثياب فوق الثياب
لك أن شئت من لداتك أخت غضة القلب حرة الإحساب
لا تماريك في الوداد ولا تنظر إلا إليك بالإعجاب
وهي حصن إلا عليك منيع وهي حرز إلا بكفك ناب
أين من هذه الحمائم يوم ليس يهدي إلا سبيل الخراب
أنت أيقنت من مغبة قوم تبعوه . فلا تكن في ارتياب

مناجاة

يا من أحب لقاءه سرًا وأزوي عنه جهرًا
أن العيون بمرصد لي في هواك ، وأنت أدْرى
من ذا يتيه على الجمال وأهلَه بالتيه أحْرى
الشمس تحيي بالضياء لحاظنا فتغض قسرًا
كن في الملاحة والصبا لقلوبنا فخًّا ووكرًا
واغنم بحسنك حبنا واقنع بهذا الحب أجْرا

ليلة الوداع

أبُعـدًا نُـرَجّـى أم نـرجـى تـلاقـيـا — كلا البعـد والقربى يُهيِّج مـا بيـا

إذا أنــا أحـمـدت الـلـقـاء فـإنـنـي — لأحـمـد حـيـنًـا لـلـفـراق أيـاديـا

ألا من لنـا فـي كـل يوم بفرقـة — تـجـدد ليـلاتِ الـوداع كمـا هيـا

لـيـال يـبـيـح الـدَّل فـيـهـا زمـامـه — ويُرخص فيها الشــوق ما كان غاليا

ويـا ليلتـي لمـا أنســـتُ بقرْبـه — وقـد ملأ البـدر المنير الأعـاليـا

تطلّع لا يثني عن البـدر ظرفـه ، — فقلت حيـاءً مـا أرى أم تغاضـــيـا

بنــا أنـت من بـدر ودِدْتُ لو انــه — على الأفق يبدو أينمـا كنت ثـاويًا

غـدًا ننظر البـدر المضــوّئ فوقنـا — وحيـدين من دارين لم تتـلاقيـا

أشُـــم شـــذى الأنفاس منك وفي غد — ســيرمي بنا البين المشــتَّ المراميا

وألـثـمـه كـيـمـا أبـرِّد غـلـتـي — وهيهـات لا تلقي مع النـار راويـا

فـقـبَّـلـت كـفـيـه وقـبـلـت ثـغـره — وقبلت خديه ومـا زلت صـــاديا

كـأن فـؤادي طـائـرٌ عـاد إلـفـه — إليه فأمســى آخرَ الليل شـــاديا

إذا مـا تضـــاممنـا ليســكت خفقه — تـنـزَّى فـيـزداد الـخـفـوق تـوالـيـا

أوشّـــجُ في كلتـا يـديـه رواجبي [1] — وشـــيجا يظل الدهرَ أخضـــر ناميا

وتـلـمـس كـفـي شـــعـره فكـأنـنـي — أعارض سـلســالاً من الماء صــافيًا

وأشـــكوه ما يجني ، فينفر غاضـــبًا — وأعطفه نحوي ، فيعطف راضـــيا

أقـول لــه يـكـفـيـك أنـك قـادر — على أمـل أعيـا الزمـان المعـاديـا

قدرت ، ومن يقدر على السعد لم يكن — جميلاً بـه أن يترك الخـل شـــاكيـا

***

(١) الرواجب : مفاصل الأصابع .

وناعبة صاحت ولِلّيل هجعة ... فقال : «علام البوم ينعب ناعيا»
«لَقُبِّحت من عمياء تقرأ في الدجى ... إذا اسود أسطارَ الخراب الخوافيا»
فقلت: على النفس التي سوف تغتدي ... طلولاً بإحناء الضلوع حوانيا
تجوس أفاعي الحزن في جنباتها ... ويا ربما توْوي الضلوعُ الأفاعيا
فلا تحسبنَّ البوم تنعي المغانيا ... فقد تندب البوم النفوس البواليا
وكم وحشة للنفس يخشى اقتحامها ... أخو غمرات ليس يخشى الفيافيا
ولما تقضي الليل إلا أقله ... وحان التنائي جشت بالدمع باكيا
فأقبل يرعاني ويبكي وربما ... بكى الطفل للباكي وإن كان لاهيا
وزحزحني عنه بكف رفيقة ... وأسبل أهداب الجفون السواجيا
يقول لقد ران الكرى وتفرقّت ... نجوم الدجى والديك أصبح داعيا
فقلت وكم من ليلة إثّر ليلة ... سهرتُ وقد أمسيت وحدَك غافيا
فهب لوداعي من رقادك ليلةً ... تَمُرُّ ، فإني قد وهبت حياتيا
حرام عليَّ النوم ، هل نام عاشق ... جنى في سواد اللايل تلك الأمانيا
حرامٌ عليَّ النوم ، ما دام هاتف ... من الليل لا ينسى إذا بت ناسيا
وأسلمت كفي كفهُ فأعادها ... وقلبي ! فهلا أرجع القلب ثانيا
فلم أر ليلاً كان أطيب مطلعًا ... وأكأب أعقابًا وأشجى معانيا
أقول ألا فانظر إلى الليل إنه ... يودِّع وجهَ الأفق أسفعَ كابيا
وهذي النجوم الغر يطرقن فوقه ... ذواهل من هول الفراق سواهيا
أتخبو الدراري ساعة البين لوعة ... وتسهو الدياجي ثم أصبر جافيا
وليت النوى والقرب يعتوراننا ... تباعًا كما يتلو الصباحُ الدياجيا
فيا من يعيد الدهر من حيثما بدا ... أعد ليّ ليلاتٍ بمصرَ خواليا
إذا كان لي في مقبل العيش مدة ... فياليت يغدو مقبل الغيب ماضيا

وداع هاجر

لقد جهلتُ فحسبي — مضى اليقين بريبي
فلا وفاء لحب — ولا هناء لصب
يا غاضبًا ليس يرضى — جاوزتَ حد التصبي
علام هذا التنائي — وفيم هذا التأبي
قد كنتَ تعلم عذري — لو كنتُ أعلم ذنبي
وما أسأتُ ولكن — حسدتَني منك قربي
لا بل تجنيتَ عمدًا — لما تبينتَ حبي
ليهنك اليوم قلب — تصيده بعد قلبي
ليس التلهف يومًا — على المُفارِق دأبي

على شاطئ البحر

نفض النسيم عن النفوس رمادها — فأعاد للسالي قديم هواه
والبحر تطّرد الخواطر عنده — مثل اّطراد اللج حين تراه
لم أبصر الآذيَّ فيه كأنه — خيل الطراد تسوقهنَّ صباه
وكان متن المال في شمس الضحى — فيروزج قدح الضياء سناه
وكأن مبيضّ الجليد طفا به — إن مج بالزبد النقي حشاه
إلا وددت بأن أراه فلا أرى — أفقًا يصد الطرف دون مداه
الروح يطمع أن يتيه بلا مدى — والعين ترسم في الفضاء خطاه
البحر أقدم والنفوس قديمة — فالنفس تألفهُ ولا تنساه

الخمر الإلهية
على طريقة ابن الفارض

عقودَ الدوالي أنت والخمر أشباه ... فلله ما أسنى حلاك وأحلاه
لآلئ قد نيطت بأسماط عسجد ... فصدر الدوالي مشرق النحر تياه
كأن حبوب الكرم بين سلوكها ... كؤوس من البلّور قد صاغها الله
كأني أرى بالعين ضِمْن قشوره ... سلافة جام سوف نجني حميَّاه
ويسعى إليها الشاربون بمجلس ... يحف به عشب أثيث وأمواه
كليلتنا والدهر وسنانُ غافلٌ ... وقد أيقظ العودُ الصفاءَ فلبَّاه
يدور بها الساقي علينا كأنها ... مباسمُ ثغر والحَبابُ ثناياه
جرت في صفاء الدمع وهي دواؤُه ... فمن ذاقها لم تجر بالدمع عيناه
تنير فَلوْلا أن يسيل رحيقها ... لقلت لظى أذكى النسيمُ شظاياه
يكاد إذا طاف الغلام بجامها ... يرفرف حوليه الفراش ويغشاه
لها في يمين الشاربين توهج ... إذا ما خبا قلب من الحزن أذكاه سقياه
تلوح كماء المهل أما مذاقها ... فمن سلسبيل الخلد في طيب سقياه
تشابه في عين النديم وما انتشى ... فوارغُ صف كالثريا وملآه
كؤوس كجام السحر يكشف وحيه ... لعينيك من سر العوالم أخفاه
شربنا وغنينا وما في عدادنا ... سوى شارب قد باع بالخمر دنياه
إذا طاب في الفردوس ريّا نسميها ... فأطيبُ في دار الشقاوة ريّاه
ولو مزجوا بالخمر طينةَ آدم ... لعاش ولم يدر القطوبَ محيَّاه
إذا رسب القلب الحزينَ طفت به ... فيسمو إلى حيث السعادة تلقاه
إذا نزل الندمان في ملكوتها ... تلاقوا فلا ذل هناك ولا جاه
كأن الطلى بحر فمن خاض لجه ... تعرى فلا جند تُماز ولا شاه

إذا أعوز الناسَ البراقُ فإنها | براق إلى عرش الجلالة مرقاه
عجبت لِدَنَّ لا يخف بروحها | كما خف بالمنطاد روح تولاه
وكيف حواها الكوب والكوب جامد | يدور فلا يهتز في الكف عطفاه
تغنوا بما شاؤا وغنيت بالطلى | وكلٌ يغني في الأنام بليلاه

الربيع الحزين

عبق الربيع بناجم وبباسق | أهلاً ولا أهلاً بذاك العابق
قد كنت آنس بالربيع إذا أتى | أنس المتيم بالحبيب الطارق
وتمازح الزهر البهيج خواطري | وتنافح العطر الأريج خلائقي
وتكاد تنسيني صوادحُ أيْكه | عزف القيان على الجماد الناطق
فالآن لا شدو الطيور برائع | سمعي ولا روض الربيع بشائقي
وكأن نوَّار الحدائق طاقة | نثرت على قبري سرور الزاهق
وأرى الندى دمعًا وكنت إخاله | درًا يناط بزهره المتعانق
ويثير شجوى من عليل نسيمه | سقم أراه اليوم غير مفارقي
إنِّي لمحراب الأسى فهواجسي | تأبي الطهور بغير دمع دافق
كذب الوجود نعيمة وشقاؤُه | يا طول شوقي للحمام الصادق

دواء الحب

لا يُلْقِيَنكَ الغرام في شُبَه | تسلك بالقلب مسلك الندم
داوِ الهوى باليقين إنَّ هوّى | لا شك فيه مُوْدٍ بلا ألم
يا حيرة الحب أنت أحرق ما | يجرع منه ذو مهجة ودم
لا ذاق منك الفؤاد ثانيةً | يا حسرة خفت ذكرها بفمي

الهوى فرض

ربـاه كـيـف خـلـقـتـه ربـاه   من ذا يراه ولا يضـــل نهـاه
إنـي أطعتـك فـي رعـايـة وجهـه   يا ويح من يعصـــي ومن يرعاه
يـا رب مـا أبـدعـت في تصـــويره   إلا لأنـك قـد فرضــت هواه
هـذا رضـــاك ولو أردت وهبتنـا   قلبًـا يُصّـــمُّ إذا الغرام دعـاه
جُدْ بـالحطـام على الأنـام وحســبنـا   وجـه نـهيم بـحســنـه ونـراه

في أسوان

أتـى نـاجر وانقضـــى نـاجر[1]   ومـثـلُ غـدِ أمسِـــيَ الـدابـر
طـلـيـق ولـيـس لـه مـذهـب   وعـانٍ[2] ولـيـس لـه آســـر
وجـارٌ ولـكـن جـيـرانـه   لـهـم وطـر ولـه آخـر
ألـيـف الـجـبـال ويـا وحشـــةً   لمن إلفـه الجبـل البـاســر
أقـلّـب وجـهـي ومـاذا يـعـي   بـأســوان أو ينظر النـاظر ؟
بـأرض إذا مـا علاهـا الســحـاب   مـرَّ كـمـن خـلـفـه نـاهـر
وهـذا الشـــتـاء فـأيـن الـوفـود   ونـور بـإحـيـائـهـم بـاهـر
شـــموس مـن الـغـرب مـجلّـوة   يـجـئ بـهـا الأفـق الســـافـر
طـواهـن عـنـا أيـامَ[3] الـحـروب   وجـوٌ بـنـيـرانـهـا مـاطـر
فـلـيـس بـأســوانَ مـن طـلـعـةٍ   يســر بـرؤيـتـهـا الشـــاعـر
ولـيـس عـلـى أفـقـهـا كـوكـب   يـرامـقـه الـنـظـر الســاهـر
مـتـى أيـهـا الـنـجـم يـومًـا أراك   وأنـت عـلـى غـيـرهـا دائـر

---

(١) كل شهر من أشهر الصيف يقال له (ناجر) .
(٢) العاني : الأسير .
(٣) دخان .

ويا زمنًا ساريًا : هل تعود وإني ملبّ بها خادر؟

على أنني قد ظلمت الديار وقد يظلم العادل الثائر

فمالي ألوم الديار الخواء وما القلب من سر به عامر

إذا القلب أقفر في جنة فليس بها منبت ناضر

وليس بها طلعة برزة وليس بها مبسم ساحر

وما كنت في غيرها وادعاً فازْعُمَ أنِّي بها حائر

أراني بعيدًا بكل البلاد إذا ابتعد الأمل النافر

سواءٌ عليَّ أدارُ السجين داري أم الكوكب السائر

أخادع نفسًا تخال الهناء فيما مضى والأذى حاضر

فيا نفسُ لا تَبْرمي بالمكان فكم فيه قد نعم الخاطر

وكم هِمْتِ في رحبه طفلة كما انطلق الصيدح الطائر

فهل ذقت يا نفس من لذة سواها فيذكرها الذاكر

أغرَّكِ برق الغرام الحلوب كما يطمع التاجر الخاسر ؟

كأنكِ لم تبرحي خدره وجرحُك من سهمه قاطر

كأنكِ فزت بما تشتهين وأسعدك الصاحب الغادر

ليالي أحببتها كاللديغ ووجدُك عن جمره زافر

فلا يخدعنْكِ الهوى إذ مضى فإنَّ الهوى قاتل ماكر

ألا إنها خدعٌ كلها وأهونها الخادع الظاهر

يا قمر

فضض الماء يا قمر | وانقش النور في الحجر
وانظم الغصنَ بالندى | والثم الزهر بالشجر
واجعل الكون ضاحكًا | عن سماء من الغرر
وأملك الليل مفردًا | ومع الشمس في البُكَر

***

في مجاليك راحة | راحة النوم والسهر
في لياليك بهجة | بهجة الفكر والنظر
ليس كالليل في الظلام | ولا الصبح في الكدر

***

شاهدَ الليل لا تجمْ | واتل ما شئت من ذِكرَ
قد تناسيت ما مضى | ولنا اليوم ما حضر
من يذق لذة الهوى | يسل لذاته الأخر

حب النفس

ما في الحياة سوى محب وامق | سكن الغرام بكل قلب خافق
في كل قلب صورة معبودة | وكمينُ وجدٍ بالجوانح عالق
لا القبح ينقصه وليس بزائد | حسن الشمائل في هواه الصادق
عشقٌ تملّك كل نفس حية | في الكون والمعشوق عين العاشق

عَذِّب الناس

عـذِّبِ النـاس بـالجمـال ودعـهم　　يـذكرون الجمـال من سـيئـاتـك
ليت شـعري مـاذا يصـيبك يومًـا　　لو غدا العطف وهو بعض صفاتك

خواطر الأرق

يـا ليـل لونـك في اللواحظ إثْمِـد [1]　　إلا لـديَّ فـمـن غـبـار يُـرمِـد
هـا أنـت بـالرؤيـا تضـن لأنهـا　　سـلواي ، حين تركتني لا أرقد
دل الظلام على المـدامع خـاطرا　　أعيي عليه مع الصـباح المورد
كم في الدم المدعوَّ بـالإنسـان من　　زعم يطيش وعـارض يتردد
العـقـل شـيـخ والحـيـاة فـتـيـة　　والعيش بينهمـا شـقـاق مجهد
والطبع يغرينـا ولسـت بواجـد　　كـالطبع طفلا لا يفـارقـه الـدَّد
أوَّاه من عبث الحياة وسوء ما يجني　　الـزمـان وشـر مـا يـتـوعـد
لا أشْـتكيـه فقد أمَرَّ فسـاغ لي　　ما لا يسـوغ وسـرني ما يُكْمِد
وجزعت حتى قيل جُنَّ من الأسـى　　وصبرت حتى قيل صخر جامد
أبـدِي التجلـد والتجلـد في الأسـى　　بعض الرياء ، وبعضـه قد يُحمَد
وخميلـةٍ يجني الغـداف قطفـاهـا　　وتزود حوليها الصلال [2] الشرّد
كرمـتْ عنـاصـرهـا وأينع يومهـا　　حسنًا ، ويوشك أن يطيب لها غد
ظـلـلـتـهـا بـالـنصـح إلا أنـهـا　　لم تلق من يرعى ومن يتعهد
بـاتـت تجـاذبهـا السُّـموم فتلتوي　　طوعًا ، ويدعوها النماء فتجمد
يـا من أصـون جمـالـه وكـأنـه　　خصـمٌ على تلك المحاسـن يحقد
لا شـيء أوجع لامريء من أن يرى　　حَمَلاً يطيب مع الذئاب ويرغد

(١) الأثمد : حجر الكحل .
(٢) الخميلة : هي الشجرة الملتف . والصلال : جمع صل وهو الثعبان الخبيث .

أخشـــى عليـك من البعيدِ وأنـت لا تخشـــى من الداني الذي لا يبعد
وأحوط حســـنـك بـالتمـائم والرّقى وتظـل تنثر عقـدهـا وتبـدد
وتبيـت ريـان الجفون من الكرى والنار حولك والدخان الأســـود
لم تتبع نصـــحي وملـت مع الهوى جهلاً ، وغرّك أنَّ غصـــنَك أملد
والغصـــن تســقط –إذ يميل- ثماره ويـزلّ عنــه الـزهـر إذ يتـأود
إن كنـت تحميك الطراءة والصـــبا شـــرَّ التقصـــف فـالتجرد أنكد
أولى بوجهك أن يضـــيئك حســـنه من أن يحفـك منــه غيم أربـد
هـذي يميني في يمينـك فـاعتصـــمْ أو لا فـأرســلهـا فمـا لك منجد
لو كنـتُ نوحًـا لم تفـدك ســـفينتي إنَّ ابنَ نوح كـان في من ألحدوا
فــاســـتبْقِ ودَّك للـذين عرفتـهم إنـي لـغـيـر الـطـهـر لا أتـودد
مـا كـنـتَ أول نـعـمـة ودعـتُـهـا كلا ، ولســـت مع المودة تخلد
مــاذا علـى الـدنـيـا لـو أن مـغـرَّرًا منهـا يميـل بـه الغواة فيفســـد
لولا المشـــوب لمـا تمحض خـالص منـا ، ولو لم يعتـدوا لم يهتـدوا
مـا كـنـتُ يـومًـا بـالأنـام مـوكـلا فأعد منهم من يضـــل ويرشـــد
إنـي اتـخـذتـك للصـــيـانـة قُنْيـة فعلمـت أنـك بَهْرج لا عســـجـد
فــالآن ألـقـي فـي الـتـراب بـحـلـيـة كـانـت أحـب ذخـيـرة تُـتـقـلـد

الحبيب الملول

إنْ يكن عندك الملال فإني ... أنا من ذلك الملال ملول

أو يكن عندك الجمال فعندي الآن ... للبعد عنك صبر جميل

بيننا الدهر فهو يشفي غليلي ... وهو يوحي إلى الصبا فيحول

إن الحقيقة غادة ... كالغيد يضمرها اللثام

كلٌّ يهيم بها فإن ... لاحت لهم صدوا وهاموا

كم أشرق الحق الصراح ... فأعرضت عنه الأنام

والناس لو تدري خفافيشٌ ... يطيب لها الظلام

لا حقّ إلا أنه ... لا حقَّ في الدنيا يرام

سطوة الجمال

أيُّ نور أزاغ لحظ العيون ... حين شق الدجى بصبح مبين

إن من أودع المحاسن فيه ... أودع الخوف رحمة في العيون

إن عينًا تعشو إلى ذلك الوجه ... لَعَيْنٌ مصابة بالجنون

أيها الناظروه بل تنظرون الله ... جهرًا في نور ذاك الجبين

هذه الشمس لا يلين سناها ... وسنى البدر لين في الجفون

إن وجهًا تستمكن العين منه ... لهو وجه في الحسن غير مكين

كنت فصرت

كـأسَ الحيـاة أعلَيني على ظمـا وبلَّلي بالحُمِّيا طين صـلصـالي

وأســكرينيَ حتى لا يكون ردى إلا كمـا غـاب حِسٌّ بعد جريـال

وفتشـــي في زوايا القلب فاقتدحي ظـنَّـا بظـن وبلـبـالا ببلـبـال

إني حســبـت حيـاتي غير واحـدة من التغيير من حـال إلى حـال

***

ومـا الحيـاة لعمري حين نقرأهـا إلا كـأســطورة من وهم قوّال

يشـــوقنـا ختم فحواهـا ويؤســفنـا أنْ سوف نفرغ منها كاسفي البال

فهـل يعوّض منهـا أن ســنتركهـا يومًا ، ليتلوها من بعدنا تـال ؟

***

إن الحيـاة حيـاة كيفمـا اختلفـت ألوانهـا من مســرات وأوجـال

كم ذا أهبـت بروحي أن تفـارقني ورحـت أجفـل منهـا أي إجفـال

فـالآن أنشـــد آلامـي وأحـمـدهـا كما أحس بروحي بين أوصــالي

***

وكم كلفـت يجـب النـاس لي زمنًـا فاليوم بعضُـــهمُ من خير آمالي

فـالنـاس تحنو على الوادي ويعجزهم جهد التطلع عن ذي القمة العالي

فـاليوم أكبرهم عنـدي كـأصـــغرهم إنَّ الطبيعـة مقيـاســي ومكيـالي

إني لأصـــغِرُ أرضًـــا ليس يعمرها من الخلاق أنـدادي وأمثـالي

يا كتبي

يـا كتبي أشــكو ولا أغضــب ... مـا أنـتِ من يســمع أو يُعتب
يـا كـتـبـي أورثـتـنـي حســرة ... هيهات لا تنســي ولا تـذهـب
يـا كتبي ألبســت جلدي الضــنى ... لم يغنِ عني جلـدك المُـذَهـب
كـم لـيـلـةٍ ســوداءَ قضــيـتـهـا ... ســهرانَ حتى أدبر الكوكـب
كـأنــنـي ألـمـح تـحـت الـدجـى ... جمـاجم الموتى بـدت تخطـب
والـنــاس إمّـا غـارق فـي الـكـرى ... أو غـارق في كـأسـه يشــرب
أو عــاشــق وافـاه مـعشــوقـه ... فـنـال من دنـيـاه مـا يـرغـب
أو ســادر يـحـلـم فـي لـيـلـه ... بيومـه المـاضـي ومـا يعقـب
يـنـتـفـع الـمـرء بـمـا يـقـتـنـي ... وأنـت لا جـدوى ولا مـأرب
إلاّ الأحــاديــثَ وإلاّ الــمــنـى ... وخبـرةً صــاحبـهـا متـعـب
إذا أراني النور قبحًـا فيـا حســنَ ... الـذي يضــمـره الـغـيـهـب

***

يـا كـتـبـي أيـن تُـرى الـمُـنـتـأى ... عن أسْــرِ أرواحـك والمهرب
أنفقـتِ منـي مـا يضـن الورى ... بـه عـلـى اللهِ ولـم يـذنـبـوا
من ضــوء عيني ومن صــحتي ... ســدىً ومن وقتي ومـا أكســب
ومـن شــبــاب فـيـك ضــيـعـتـه ... فمـا أنـا إلا الفتى الأشــيـب
لـو كـنـت كـالـجبـار فـي نـقـمـتـي ... لكـان في النـار لهـا معطـب
فـي ذمـة الـطـرس وفـي حـفـظـه ... عمرٌ تقضـي في شـطره الأطيب
لا رحـم الـرحـمـن فـيـمـن مضــى ... من علّـم الـعـالـم أن يكـتبـوا



من ديوان «وهج الظهيرة»[١]:

كأس على ذكرى

يا نديم الصبوات   أقبل الليل . فهات

واقتل الهمَّ بكأس   سُميت كأس الحياة

خرب القلب فعمّره   بجير الساكنات

خمرة تملأ قلبي   بقديم الذكريات

وشجيٍّ النغمات   وجنيٍّ الثمرات

هاتها كالقطر أو كالتبِر   أو كالجمرات

علني أقبس منها   نفسًا يحيي مواتي

هي تاج للصعاليك   وكنز للعُفاة

وهي فردوس لمن أفرد   في هذي الفلاة

وهي سكر العين باللون   سنيٍّ اللمحات

وهي سكر الأنف بالعطر   ذكيٍّ النفحات

(١) ديوان : «وهج الظهيرة» - القاهرة (١٩١٧م) .

وهـي فـي الـكـأس وفـي الـنـفـس أحـــب الــــنشــــوات
عـــوضٌ عـــمـــا يـــؤاتـــي مـــن هـــوى أو لا يـــؤاتـــي
إن فـــي الـــخـــمـــر لصـــحـــوًا مـــن خـــمـــار الـــحـــادثـــات

***

هـاتـهـا واذكـر حـبـيـب الـنـفـس يـــا خـــيـــر ثـــقـــاتـــي
ودع الـتـلـمـيـح واجـهـر بـــاســـمـــه دون تـــقـــاة
أتـــرى نُـــحـــرم حـــتـــى ذكـــره فـــي الـــخـــلـــوات ؟
صـــفـــه لي ، صـــفـــه ، ومـا كـان بـــمـــجـــهـــول الصـــفـــات
غـيـــر أنـــي أمْـتِـع السمـع بـــحـــظ الـــحـــدقـــات
صـــفـــه فـي عـيـنـي ومـا تـعـدو بـــه وصــــف الأضــــاة [1]
صـــفـــه فـي قلبي لو أســـطـعـت، وتـــرجـــم زفـــراتـــي
أتـــرى ألـــبـــق مـــنـــه بـــاصـــطـيـاد الـمُـهـجـات
أتـــرى أمـــلـــح مـــن خـــطـرتـــه فـــي الـــخـــطـــرات
أتـــرى أصـــبـــح مـــن خـــديـــه بـــيـــن الـــوجـــنـــات
أتـــرى أعـــدل مـــن قـــامـــتـــه فـــي الصـــعـــدات [2]
ذهبيّ الشـــعر ســـاجي الطرف حـــلـــوٌ الـــلـــفـــتـــات
جـــاهـــل بـــالـــحـــب أشـــكـــوه ولا يـــدري شَـــكـــاتـــي
وغـــريـــر الـــقـــلـــب لا يـــفـــهـــم مـــعـــنـــى نـــظـــراتـــي
ودَّ لـــو يســـأل مـــالـــي مســـتَـهـلَّ الـعـبـرات
وإذا قـــلـــت «شـــجـــانـــي مـــن أفـــديّـــه بـــذاتـــي
لـــيـس يـــنـــجـــيـــنـــي وفـــي كـفـيـه لـــو شـــاء نـــجـــاتـــي »

---

(١) المرآة .
(٢) جمع صعدة : وهي قناة الرمح .

قال ما أقساه من جان ... غليظ القلب عات !
هاتها باسم حبيبي ... قاتلَ الله عِداتي
آه لو تعلم ماذا ... في اسمه من عزَمات
أترى الأحرف فيه ... غيرَها في الكلمات ؟
هاتها عشرًا وكرر ... وصفه العذب مئات
صفه غضبان ، وصفه ... لاعبًا بين اللّذات
ضاحكًا كالصبح يمحو ... بالضياء الظلمات
صفه في كل كساء ... صفه في كل الجهات
هو في الروضة إذ يمشي ... أحب الزهرات
وهو في القفر رياض ... من هوّى لا من نبات
تم والله فيا ليت ... به بعضَ الهنات
تم حتى أتعب العين ... بفرط الحسنات
إنَّ بعض العيب حَلّي ... للسجايا والسمات

***

ما به والله من صدٍّ ... ولا منع صِلات
غير أن الناس ، لا كانوا، ... تناهوا في الأذاة
ويلهم يحمون ما لم ... يملكوا من طيبات
علّموه وهو لا يعلم ... ما كيد الغواة
ليتني علمته الوصل ... وتكذيب الوشاة
جمح الوجد بأشجاني ... وضاقت أزماتي
هاتها صرفًا وأغرق ... في طلاها حسراتي
عوضًا عما يؤاتي ... من هوى أو لا يؤاتي

الشيب الباكر [1]

مـا أقبـل الليـل حتى طرتَ بـالقِمَم يا صبح جرت على الظلماء في القِسَم
وما انقضـى شـفقُ الأيام من عُمري فكيف لحـت بفجر منـك متهم؟
لو كنت تحسـب أيامي لما خطرت يداك يا شـيبُ في مسـودَّة اللّمم
دون الثلاثين تعروني؟ وما انصرمت إلا كما تنقضـي الأعوام في الحلُم؟
مـرت بـقـادمـتـيْ نسـر مـولـيـةً وكنـت أعهـد فيهـا ثِقْلـة الرخم
ومـا اعتـدادك بـالأيـام تحسـبهـا وإنمـا أنـت خـدن الـويـل والألـم
إذا ألّمـا بـإنسـان صـحبتهمـا فـانزل فقد نزلا في أعظمي ودمي
مـا أنـت طـارق دار لا رفيق بهـا ولسـتَ مُهرِم قلـب ليس بـالهرم
قد شـبتُ والشـعر مسـودٌّ فما عجبي من واضح الشيب بعد الشيب في القتَمِ
ما كان مسـودٌ شـعري وهو مشـتمل عليـك إلا كـجـلـبـاب من الـكـتـم
قل لابن تسـعين لا تحزن فذا رجل دون الثلاثين قد سـاواك في الهرم
إذا ادَّكرتَ شـبابًا في النعيم مضـى لم يـدَّكر من شـبـاب كـان أو نِعم
وما انتفاعي وقد شـاب الفؤاد سـدى، أنْ لم تشـب أبـدًا كفى ولا قـدمي
وليس مـا يخـدع الفتيـانَ يخـدعني كلاّ ولا شـيم الفتيـان من شـيمي
يا شـيب ضـاقت بك الدنيا بأجمعها فانزل بلا ضـائقٍ بالشـيب أو برم
من لا يبـالـي أفَخْرٌ أنـت تنـذره بالصبح أم أنت ضوء النجم في الظلم
يـا مرحبًا بصـبـاح ليس يسـلبني صـفوًا ، وبعـدًا لليـل فيـه لم أنم

(١) ديوان «وهج الظهيرة» - القاهرة (١٩١٧م) .

بعد عام [(١)]

كـاد يمضـــي العــام يــا حلو التثني أو تـــولّـــى
مــا اقـتـربـنــا مـنـك إلا بــالـتـمـنـي لـــيـــس إلا

***

مـذ عـرفـنـاك عـرفـنـا كـل حســـن وعـــــــذابِ
لـهـب فـي الـقـلـب ، فـردوس لـعيني فــي اقــتــرابــي

***

غـيــر أنــا لا نــرى الــفــردوس إلا رســـمَ راســـمْ
وشـــربـنــا من جحيم الـحـب مُـهلا شـــرب هــائـم

***

لا تــلــمــنــي أنَّ قــلــبــي خــانــنــي أو عشـــقـتُـكْ
لــم يــكــن مــنّــيَ إلا أنــنــي قــد رأيــتــكْ

***

كــان فــي الـدنـيــا جـمــال لا يُـعَـد ثــم لَـــحــتـــا
فـعـددنــا الـحســـن طـرًّا فـهـو فـرد وهـــو أنـــتـــا

***

أيـن حســـن كـان يـجـلـوه الـنـهـارُ هـل لـبســتَـهْ؟
هل ورثـت الصـــبح والصـــبح مُنـارُ أم قــتــلــتــهْ ؟

***

(١) ديوان : «وهج الظهيرة» القاهرة (١٩١٧م) .

تـتـهـادى ويـح قـلـبـي فـي خـطـاك لســـتَ تـدري
لســـتَ تـدري أي نـــار إذ أراك ضِـمْنَ صَـدري

***

ضـــاحكًـا يفْتَرُ نور البشـــر عنكـا كـيـف تـعـلـمْ
أن قـلـبًـا دون قِـيـدِ الـرمـحِ مـنـكـا قـد تـحـطـمْ ؟

***

زده داءً لا شـــفـــى الله جـــواه كـــم أســـاء
من دعـاه للتصـــابي من دعـاه ؟؟ زده داءٍ !!

***

أو فحســـب القلـب مـا طَمَّ وأربى لا تُـــبــده
قـد دعـاه الله لـلـحـب فـلـبّـى لا تـــزده

***

نـحـن قـوم يـا حـبيـبي قـد خـلقـنـا لـلـجـمـال

صـــاغـنـا الله لشـــدو وغـنـاءٍ حـيـث كـنـا
ونـهـانـا عـن جـمـود وجـفـاء فـانـتـهـيـنـا

***

قـال غَنّوا وصـــفوا خلقي الـبـديعُ فـي الـقصـــيـدِ
واطـلـبـوا أجـركُـم عـنـد الـربـيـع والــخـــدودِ

***

لـيـس يُـغْـلـي آي فـنّـي غـيـرُكـم حـيـن تـعـلـو
شـــكـرهـا منكم ومنـهـا شـــكـركم ذاك عـــدل

مـا لـكـم أجـر مـن الـدنـيـا ســـواه فـــاغـــنـــمـــوه
يـا ذوي الحســـن بـذا أوصـــي الإلـهُ فـــاســـمـعـوه

***

قـد وَفَـيْـنَـا دَيْـنَـنَـا فـاوفـوا الـديـونـا هـل رضـــيتم ؟
وشـــدَوْنـا فـتـعـالَـوا أســـعـدونـا لا شـــقـيـتـم

***

مـا أتمَّ العيشَ لو تصـــفو القوافي والـــغـــرامُ
شـــاعر يشـــدو ومحبوب يوافي والســـــلامُ

من ديوان «أشباح الأصيل» :

على ساحل البحر

في ســـاحـل البحر لنـا غربـة عن عـالم الرجس ودار الخراب
يشـــدو لنـا الموج كمـا قد شـــدا من قبل أن تؤ هل هذي الشـــعاب
مضـــطـرب المـتـن وتـرتـيـلـه أخلد من متن الرواســي الصــلاب
والـبـحـر جـبّـارٌ عـلـى أنـه قـد يســـتر الجبـارَ لينُ الاهـاب
أهـولُ مـن لـيـث عـلـى صـــيـده والطفـل في جـانبـه لا يـهـاب
مـا أجـمـل الـقـوة لا تـتـقـي صـــولتها هذي الصـــغار الطراب
فـك قـيـودَ الـعـمـر ســـلـطـانـه وراجع الشّـــيبُ عليـه الشـــبـاب
كـأنـمـا تـعـرى نـفـوس الـورى في الماء عن أجســـاد ها والثياب
فـمـخـلـق الـعـمـر كـمـوشـــيـه ومـالـك الأرض كخـاوي الوطـاب

***

أنتم لداتٌ فالعبوا واطربوا   يا نازلي البحر الفسيح الرحاب
ذوقوا هنا العيش ولا تذكروا   ما مَرَّ في العيش قديمًا وطاب
هل فيكم إلا لعوب له   الموج وثب دائم واصطخاب ؟
جذلان صاحت روحه فرحةً   يا فرحة المسجون بعد العذاب !
ذلا يعلم الناظرُ مَن منكم   يصيب صفو العيش أو من يُصاب
والماء كالخمر له نشوة   ولا كرَوح الماء رَوح الشراب
أغرق طاغي موجه همكم   يا نعم هذا الغرق المستطاب

***

أيحمل الهم امرؤٌ أشربت   أوصاله سطوة هذا العباب ؟
كأنما أركبكم ظهره   مركب (جوبيتر) ظهر السحاب
فأيَّما صعب يراه امرؤ   ربضت له هذي المطايا الصعاب؟
يا راكبي الأمواج مثلَ الدُمى   عوضتمُ البحر ، فنعم الثواب
عوضتموه عن بنات له   كان لها سرب هنا ثم غاب
لا تلمسوا البر بأقدامكم   هذا هو الماء وذاك السراب
ماذا أعد البر فيه لكم   غير الشكايا والوجوه الغضاب ؟
ذوقوا هنا العيش ولا ترجعوا   إلى جهاد مجحف واضطراب
أنتم هنا أطرب من صَيْدح   خلا له الجو ونام العُقاب
لاهينَ كالأنداد لا سائل   عما يريب الناس أو ما أراب
هذي هي الجنة قد أزلِفَتْ   أليس هذا وصفّها في الكتاب؟
وهكذا الأملاك في حضرة   تنزهتْ عن حاجة وارتهاب
ما بالكم تسعون طوعًا إلى   دار تناديكم نداءَ الذئاب
شوقًا إلى الدار تؤُمُّونها   أم أخذت أغلالها بالرقاب ؟

هيهات هيهات فقد خالطت أرواحكم وامتزجت باللباب
فيها لكم ضيم وفيها أذى لكنها الداعي السميع المجاب
ذوقوا هنا الخُلد قليلاً فقد ينفعكم منه ارتشاف الحباب
إن عقار الخلد صعب على من شربه سمٌّ زعاف وصاب
لا عاصم في اللج أو في الهضاب ويهلك الحوت كهلك الغراب

البحر والحياة (1)

لبّيك يا بحر من داع نطوف به ظمأى ، فنروي ، ولم تعذب مساقيه
يا أشبه الخلق بالمولى وقدرته لولا جلالته عن كل تشبيه
تنضو الحياة على شطيك ما لبست في ساحة العيش من غش وتمويه
وتستعيد إذا جاءتك عاريةً عطلاً أحبُّ من الأعلاق عارية
وأنت تكبرنا طورًا وتصغرنا من يُكْبر العيشَ يصغِرْ من دواعيه
وفيك يا بحر عدل الموت مطّرد لكن عدلك فينا غير مكروه
وعند شطك شرع الناس منقطع وفوق متنك شرع الله تجريه
فلا عظيم على الأقوام تعصمه تيجانه من قضاء أنت قاضيه
يا بحر أذكرتني بحر الحياة وما يجيش ما بين ماضيه وآتيه
والمرء يسبح فيه منذ مولده سبحًا يقربه مما يحاشيه
وكم تمنى به الخيرات معجلة فكان عادي المنايا في تمنيه
ومطمح دون قِيدِ الشبرِ همَّ به فصده الموج قسرًا عن أمانيه
وكم قريب نناديه ونسمعه أقصى الكواكب أدنى من أدانيه
فلا تقس بُعْدَهُ بالشبر إنّ له بعدًا يقاس بصرف من غواشيه
لبَّيْكَ يا بحر من وهاب أعطيةٍ الدرُّ أبخس ما تُهدي أياديه

(1) ديوان «أشباح الأصيل» القاهرة (١٩٢١م) .

يعطي النفوس ويرويها وينعشـــها   فـإنـمـا هـي ذخـر مـن غـوالـيـه

والبحر حي ولولا ذاك مـا انطلقـت   فـيـنـا الـحـيـاة إذا عـجـت أواذيـه

ولا انطوى كل صــاف من مسـار به   على عرائس تســبي لـب رائيـه

عرائس الحســن تنشـيها وترسـلها   فـيـه قـرائـح يـحـيـيـهـا وتـحـيـيـه

لم تَخْلَقِ النفس في أمواهـه عبثًـا   تلك الحســانَ ولا الأغوال في التيه



من ديوان «أشجان الليل»

تبكين

تبكين ! والهفَ الفؤاد يذيبه … ذاك الحنين يذوب في خديك

أيراك باكية وأنت ضياؤه … ونعيم عيشي كله بيديك ؟

وعزيزةٌ تلك الدموع فليتها … يقنو قُطيرتَها نظيم سُلَيك

لملأت ثَمّ يدي بأكرم جوهر … من عطف قلبك فاض من عينيك

***

لو أستطيع جمعت كل ذخيرة … في الدهر ضحك يروق لديك

ونغمت أطربَ شدوه وجعلته … بين الكؤيس العذب من شفتيك

فيضج مزدهيًا بفيك وتنتشي … فرحًا قلوبُ الناظرين إليك

ما أحسن الحسن المهذب ضاحكًا … وأحب جلباب السرور عليك

والله ما ضنَّ السرور وما وني … يَشتاق هزته على عطفيك

لو شئت كل مسرة مبذولة … لجثت مسرات على قدميك

زهريات

وردة محزنة

وردتي ! فيم أنت ضاحكة   يلمح البشر منك من لمحا
فيم هذا الجمال يحزنني   رونق فيه كان لي فرحا
كنت أهوى الورود أصلحها   ما لذكى الحبيب قد صلحا
وأخال القبولَ يرمقة   واضحًا فيه كلما وضحا
ثم ولى الهوى وأعقبني   نظرًا يذكر النهار ضحى
فإذا الورد غصة وشجى   يتراءى بالهجر لي شبحا
وإذا الزهر كاليتيم إذا   راق في العين حسنه جرحا
كان للحب زينة فغدا   أثرًا فوق لحده طَرحا
الذبول الذبول أرفق بي   من رواء يزيدني ترحا

زهرة اللؤلؤ

زهرة اللؤلؤ والحسن الضنين   وضح السر فماذا تهمسين ؟
أنا لا أعرف في شرع الهوى   خُلة يندي لها ذاك الجبين
فاملئي القلب بحبك ولا   تحذريه . إنه روض أمين
وإذا أصبحت يومًا وردة   تنفث النار وتذكو بالحنين
فهو ثوب بعد ثوب معجب   ينتقيه الروح ، والروح مصون
مثلما بَدَّل حيٌّ جسدا   -في مقال الهند- حينًا بعد حين

وردة بلا شوك

جردتِها من شوكها ومنحتني ... وردًا بغير شباته يتضوّع
ولمستها بيدي فَلانَ ممسها ... وبمهجتي الحرِّي فباتت تدمع
قولي بحقك وهو في دين الهوى ... قسم تخر له الجباه وتخشع
انزعتِ منها شوكة منظورة ... وتركت فيها شوكة لا تُنزع
أم هكذا الدنيا لكل مسرةٍ ... آلامها ولكل آس مبضع
ولكل سهل جانبٌ متوعرٌ ... ولكل شوق مطمع لا يقنع
فرضاك أن تهبي ، وإن لم تفعلي ... هبةٌ تروّي من رضاك وتُشبع

الوردة المهداة

يا وردةً كم وددتُ لو قُبلَتْ ... منِّيَ حتى أمسيتُ أهداها
زانت بها صدري الجريحَ يدٌ ... يَندى ربيع الدنيا بمسرها
سيبلغ الماء والضياءُ بها ... جهدَ حياةٍ للزهر نرعاها
وتستطيل الأكواب نضرتها ... وتستجدّ الأنفاس ريّاها
حتى إذا حان يومها وثوت ... في الكف مضمومةٌ بقاياها
أحييتها بالدماء من خالص المهجة ... تغزو في القلب ذكراها
فازهرت في الضمر بهجتها ... وأشرقت في الحياة بشراها
ولم تزل بالربيع تطرفها ... إذا شتاء الهموم غشّاها

***

سِيَّان

يا شـــمس ما ضـــرَّك لو لم تشـــرقي　　　يا روض ما ضـــرك لو لم تعبق

يــا قلــب مــا ضـــرك لو لم تخفق　　　ســـيان في هذا الوجود الأحمق

من كان مخلوقًا ومن لم يخلق

منك إليك

أيــهــا الــداعــي عــلــى الله لــنــا　　　مـا ترى في دعوة منك إليك ؟

أنــت لــو تــعــلــم دائــي فــي غــنــى　　　عن نـداء الغيـب والطـبُّ لـديك

تســـــأل الله شـــــفــائــي ولــقــد　　　جعـل الله شــفـائي في يـديـك

وتُــرّجــى نــظــرةً لــي مــن عــلٍ　　　ورجـائي كلـه في نـاظريـك

فــادعُ لي نفســـك أو لا فــادع لي　　　رحمة الرحمن من وجدي عليك

أن قضـــاهــا لـك أو لم يقضـــهــا　　　حســبنـا خطرتهـا في شــفتيك

يفضـــل الصـــحـةَ عنـدي أذني　　　بعض مـا تطوي عليـه جـانبيك

عيوب المحب

لا تــعــدّي عــلــىّ عــيــبًــا فــإنــي　　　لــكِ كلي محـاســـني وعيوبي

وعــيــوب الــمــحــب أولــى بــعــطــفٍ　　　من كمـال فيـه وحســـن وطيـب

هــي كــالــطــفــلــة الشـــقــيــة تــلــقــى　　　من حنان الأبـاء أوفى نصـــيب

الهزيمة المرغوبة

أريـد التي ألقي ســـلاحي وجُنتي　　　إليهـا، وألقـاهـا من البـأس أعزلا

وأطــرح أعــبــاء الــجــهــاد وهــمــه　　　لدي قدميها مغمض العين مرسلا

وأنــت إذا أقبلــتِ أقبلــتِ جحفلا　　　وجردت أســيافًا وشــيدت معقلا

فإنْ تهزميني فاهزمي عن بصـــيرة　　　مريدًا لأســـبـاب الهزيمـة مقبلا

مولد الحب

(١)

وُلد الحب لنا . عاش الوليد ! وحماه الله من كيد الحسود

وبدا في مهده، بل عرشه ، ضاحكًا يأمر فينا ويسود

(هند) ما نرضعه ؟ نرضعه بأفاويق حياة لا تبيد

ولندلله وننشئْه على غبطة العزة والعيش السعيد

وليعش طفلاً على طول المدى هكذا يخلد أطفال الخلود

نتولاه بعطف دائم وأناشيد حسان ووعود

وغذاء من يذقه يبتعد أبدًا عن كبره العمر المديد

أنه من روحنا إنْ نُحْيه يحينا في غده هذا الوليد

(٢)

ولد الحب لنا ، وافرحاه وقضى في مهده ، واأسفاه

مات لم يدرج ولم يلعب ولم يشهد الدنيا ولم يعرف أباه

ليته عاش ! فإما إذ قضى فليكن بردًا على القلب جواه

أشكر الموت واشكوه معًا غال حبي قبلما تنمو قواه

غاله وهو صغير قبلما تكبر البلوى به يوم نواه

كنت أرجوه ليومي كلما عزّني في مطلع الشمس هداه

كنت أرجوه لليلي كلما لجت الحيرة بي تحت دجاه

كنت أرجوه لأمْسٍ ! لغدٍ ! رب أمس لك لا ترجو سواه

للأسى يُسعد ، للخطب يقي ، للمنى من ذاقها باع مناه

فتولى . رحمةُ الله على أمل لاح ولم يبلغ مداه

آه لو تغنى من اللوعة آه ليتني أسمع في القبر صداه

***

ليت ؟ لا ليت هنا . فاغن بما — ستراه اليوم عما لا تراه
سترى الشمس على دارتها — وترى البدر فريدًا في علاه
وترى النهر وما أطربه — وترى الزهر وما أحلى شذاه
وترى الطير لعوبًا لاغيًا — بالذي يشجوك من لحن لغاه
وترى ألف محيًا باسم — لا يصاديك إذا رُدْتَ حماه
فاغتنمها فهي في مولدها — شبح فان وفي الخلد إله
وهي لا مبكيةٌ عينَ أمريء — لا ولا سالبةٌ منه نهاه

أهجوك (١)

أهجوك يا أكرم من أمدح — ومن بإطرائي لها أصدح
أهجوك والتسبيح أحرى بما — أَجِدُّ فيه اليوم أو أمزح

***

ظالمةٌ أنت ويا ويلتي — من دولة تطغى ولا تُفصح
وأكبر الظلم لمن ذاقه — ظلمٌ به مظلومه يسمح

***

قاسيةٌ أنتِ ولكنني — أقبّل الكف التي تجرح
وأعظم القسوة تلك التي — يلهو بها المجروح ، بل يفرح

***

قريبة أنت إلى خاطري — بعيدة مني . فهل أصفح ؟
فالقرب والبعد على لوعة — كلاهما ذنب لمن يطمح

***

(١) قيلت هذه الأغنية في الآنسة «مي زيادة» (١٨٨٦- ١٩٤١) في بداية قصة حبهما .

بـخـيـلـه ! والـدهـر لـو أنـنـي سـألـتـه مـثَـلـكْ لا يـمـنـح
واهًـا لـه بـخـلاً شـقـيـنـا بـه كـالسـدّ لا يُرقى ولا يُفتح
أواه لـو تـنسـيـنـه بـرهـة أو لـحظـة أو لـحمـة تَـلـمـح
ثـم تـعـودين إلـيـه فـمـا ينقص هـذا البخـل أو يبرح !

***

هـذا هـجـائـي فـيـك فصّـلـتـه ولـيـتـهـا «تـجـربـة» تـفـلـح
فـأي ثـوبـيـك وقـد أسـبـغـا عليـك يـا صـاحبتي أملح
ومـا سـؤالـي والـهـوى فـتـنـةٌ لكـل ثوب لم تزل تصـلح ؟

استكشاف

مـا كـان حـبـك عـطـفًـا ولا غـرامًـا كـمـيـنـا
لـكـنـه مـن طـمـاح يُمنى بهـا الكـاشـفونـا !
رأيـتِ قـلـبًـا خـفـيًّـا بـمـا يُـكِـنُّ ضـنـيـنـا
فـقـلـت هـل هـو سـال أو مشـفـق أن يُـبـيـنـا
أو عـاشـق غـيـرَ حُسْـنـي حسـنًـا يشـوق الـعـيونـا
فـحـيـن أبصـرت قـلـبـي سـهـولـة والـحـزونـا
ولـم تـري فـيـه حصـنًـا عـلـى هـواك حصـيـنـا
رجـعـت تـنـأيـن عـنـي حـيـنًـا وتـدنـيـن حـيـنـا
وخـلـتـه لـك فـتـحًـا مـتـى أردت مصـونـا
ولـم تـريْـه خـلاءً يـبـاح لـلـعـابـريـنـا

درجات

يـا فـؤادًا يـقـول لـي كـلَّ شـــيء | من صـــريح الهوى ومحض الوفاء
ولحـاظًـا تبوح لي وهي ســكرى | بحـديـث يُحْيي رميمَ الرجـاء
ولســـانًـا مـا قـال لـي قـط إلا | همســـات كالومض في الظلماء
درجـات مقـدَّرات من الصـــمـت | إلـى غـايـة مـن الإفشـــاء
واختلاف ، فموضـــع القول فيـه | آخـذ منـه موضـــع الإفشـــاء
إن أكنْ صـــادق البيـان عن القلب | أمينًـا في الســمع والإصـــغـاء
فـالزم الصـــمـت يا لســـان حبيبي | وانـطـقـي يـا لـحـاظ بـالإيـمـاء
إنـمـا أنـتـمـا رســـولا ســـمـاء | حســـبنـا منكمـا بلوغ الســـمـاء

أنت هي الدنيا [1]

مـاذا من الـدنيـا –لعمري ، أريـد | أنت هي الدنيا ، فهل من مزيد ؟
فـيـك لـنـا نـور ونـار مـعًـا | وأنـجـم زهـر وأفـق بـعـيـد
وفـيـك روض مُسْـــفِرٌ عـاطـر | وجـوهـر حـر ودر نضـــيـد
ونشـــوة الـخـمـر إذا قـوبـلـت | بـنشـــوة منـك متـاع زهـيـد
والـفـن إن لـم تـك نـجـواه مـن | نجـواك لـغوٌ بـاطـل لا يـفيـد
وكـل مـا فـي الـكـون مـن روعـة | لـهـا نـظـير فيـك حيٌّ جـديـد
بـل أنـت دنيـا غير هـذي الـدنيـا | وكـل حـب فيـه «كون» وليـد
لـلـمـرء دنـيـاوان : مـطـروقـة | فوضـــى وأخُرى هو فيها فريد
وهـذه ، لا تـلـك ، مـا يشـــتـهـي | وهـل لـه الموئـل وهو الوجود

(١) قيلت في الآنسة مي زيادة في بداية حبهما الذي لم يكتمل .

وساوس الهجر

قلـت للـقـلـب وهـو جـدّ عَـجـول ... يشـــتكي بُعدها ويبغى الشـــفاء

إن يـكـن عـنـدهـا هـواك فـدعـهـا ... ســـوف ترجو كما رجوتَ اللقاء

أو يـكـن عـنـدهـا قـلاك فـدْعـهـا ... تضـــمر القرب أو تطيل الجفاء

لســـتَ يا قلب خـاســـرًا إن تولت ... ولـك الـغُـنـم إن أجـدَّتْ ولاء

قـال لي القلـب وهو يعرض عني ... من نفـار ومـا يطيق الـدعـاء

إن فــي قـلـبـهـا ذَمـاء غــرام ... أتراني أســلو فـأردي الـذمـاء ؟

ايـه يـا نـاصـــحي لـك الله دعني ... أترجَّى وإن أضـــعـت الرجـاء

ســـوف أشـــقى برجعة الحب حتى ... أبصـــر الحـبّ ميتًـا لا مراء

صافحيني

صـــــافحيني ألا مصـــــافحـةَ اليوم ... ولا قبلـة على الكف عجلي

اغضـــــابًـا تـحـمـيـنـهـا أم دلالاً ... أم حذار الرقيب تنأين خجلي ؟

ذبعـد لأي مـدت بيســـري يـديهـا ... كرمًـا ، أو لـعلـه كـان بخـلا

حـذرت من حيـالهـا واطمـأنـت ... من حيالي ، فكان صدًا ووصـلا

غـيـر أن الـيســـرى أبـرُّ وأنـدى ... وأراهـا بقُبلـة القلـب أولـى

هي أدنى إليـه من أختهـا اليمنى ... فـأنْـعِـمْ بـهـا وأهـلاً ســـهـلا

تهنئة بعام جديد

هنِّئتِ بالعام الجديد وعيده   يا خير من زان الجديد وزينا
لك في سمائك كلَّ يوم رحلة   تطوينها علّوًا وتبتدئينا
وهي القلوب مؤرخات زمانها   لا النجم يذرع في الفضاء سنينا
إن الذين يؤَرخون حياتهم   بمطالع الأفلاك لا يحيونا
وخذي التحية من أخ لم يكن   لِيُخَصَّ عندك بالتحية حينا
يرجو لقلبك موقع خفقة   عيدًا جديدًا بالسرور قمينا

العزاء

خل عني عزاءك اليوم إني   اتحدّى الشقاء بالكبرياء
إن نفسًا ترى العزاء قريبًا   لهى نفس في غنية عن عزاء

ليلة على النيل

(١)

«جرت قصة هذه القصيدة في زورق على النيل في ليلة من ليالي الصيف . وقد أسلم الزورق إلى صبي صغير فنام ويده قابضة على السكّان واستغرق في النوم فلم يستفق حتى رُش على وجهه من ماء النيل (معين الحياة) والبيت الأول من نظم أحد الأدباء وضعه مقترحًا وأتم الناظم القصيدة ».

«نام رباننا الصغير لغوبًا   ورقدنا نصغى لصمت الوجود
نام رباننا الصغير ونمنا   لو حسبنا أحلامنا من هجود
بل شهدنا في يقظة الحب مالا   تشهد العين في المنام السعيد
وأتى النوم طائعًا فبذلناه   لربان فلكنا المجهود
وإذا ذقتَ من موائد هذا الحب   فالنوم من فتات العبيد
يقظة الحب من خلود وماذا   يصنع النوم بين أهل الخلود؟

نـام ربـانـنـا وهِـمْـنـا بـعـيـدًا فـامض يـا فلك في يدي (كوبيد)

واتّبعـه فـالكون أجمع يـا فلـك لَـقـيً فـي يـمـيـن هـذا الـولـيـد

هـو ربـان هـذه الأرض فـأمـنـه على ملكـك الصـــغير الزهيـد

وتعلّم منـه عبور الســماوات فمـا دون ســبحـه من بعيـد

***

أين يمضي بنا !؟ في مسرب النيل؟ فمـا النيـل هكـذا بـالمـديـد !

كم علونـا من دارة بعـد أخرى وطوينـا العهود بعـد العهود

نـتـرقـى عـلـى هـدى قـبـلات لا تمل الصـعود بعد الصـعود

هي منطـادنـا ، ومـا هو بـالجـامح فـي ســبحـه ولا بـالـوثـيـد

كـلـمـا غـردت لـنـا بـعـد وهـن قـبـلـة بـلـبـلـيـة الـتـغـريـد

خـاف خلي من ذلك النـائم السَّـا هـي وأنـحـى علـيّ بـالـتـفـنـيـد

لا تـلـمـنـي ، ولا تـخـفـة ، فـإنـا في السماوات وهو تحت الصعيد!

***

إيـه «كوبيـد» لاعـدمنـاك ملاحًـا رخيّ التصـويب والتصـعيد

كنـت نعم الحـادي ومـا من عجيب أن يســرَّ النفوسَ حـادي الوجود

لم تقصّــر فيمـا حـدوت ولكن قصّــرت طينـة الفنـاء البليـد

عـجـبًـا لابـن آدم كـيـف يشـــقـى بســدود مـن عـنـده وجـهـود

ويـنـادي الـرقـيـبَ إن نـام عـنـه قـم فـاحكم علـيَّ لفَّ القيـود

أين منـا هـذي الأمـانيُّ والنفس تـخـاف الـذرى بـغـيـر حـدود ؟

أين منا ؟ والجسم ما انفك في الأرض يـنـادي يـا أيـهـا الـنـفـس عـودي

فـأهبنـا بـذلـك النـائم الســاهي أمـا قـد مللـت طول الرقود ؟

ودعـونـا بـه . فـلـلـه عيســى ! كيف أحيا من قبل صرعى اللحود ؟

ورددنـا لـه الـحـيـاة بـمـاء　　من معين الحياة عذب بَرود
أيـهـا الـراقـد الـخـلِـيُّ تـنـبـه !　　عـاد ركب السـماء غيرَ طريد
عـاد مسـتفتحًـا بكفيـه بـابًـا　　فوق هذا الرغام جهمَ الوصـيد
أوَ مـا هـكـذا تـولـى أبـوهـم　　آدمُ عـن نـعـيـمـه الـمـفـقـود ؟

***

وطـفـقـنـا نـقـول كـان وكـانـت　　وهي في قربهـا كحبـل الوريـد
أيـهـا الـنـيـل عـد بـنـا وأعِـدْهـا　　من جـديـد لا زلـت خير معيـد

ليلة على النيل

أيـهـا الـبـاحـثُ عـن كـوثـره　　في السماوات . لقد شطّ المزارْ
إنّـمـا الـكـوثـر ثـغـرٌ بـاسـمٌ　　من حبيـبٍ لـكَ مـأمون النِّفـارْ
إن تَسَـلْ عـنـه فـإنـي ذُقـتُـه　　خير ما يُسـقى ويُجنَى ويُشـارْ
لا تَقُـل شـهـدٌ فـللشـهـد أذًى　　أو تَقُـلْ خمرٌ فـللـخمر دُوَار
هو إن شـئـت سـمـاويُّ الغنى　　وهو إن شـئت سـماويُّ الديار
وابِـلٌ مـن قُـبَـلٍ تـمـطـرهـا　　من سـماء الحبّ أخلافٌ غِزار
جـزلـةُ الـمسِّ شـهـيٌّ شّـمـهـا　　حلوةُ المزْجَيْنِ من مـاءٍ ونـار
سـقـيُـهـا مـحـضُ ولاءٍ خـالـصٍ　　لم يُكـدِّره من الـدنيـا اعتكـار
وكـذا الإخـلاصُ حـرٌّ مـطـلـقٌ　　كصـفات الله ما فيها اضـطرار
رَوِّ مِنه النفسَ واضـحك سـاخرًا　　إن طغَى الدَّهر بأيديه القصـار
ها هنا لا العيشُ محسـوس الخُطى　　لا ولا الوقـتُ بمحـدود المَطـار
قـد عَبرنـا الـوقـتَ طـولاً ومـدَى　　وبـلـغـنـاه إلـى عُـمـق الـقـرار
مُـذكـري بـالـنـيـل والـبـدرِ ومـا　　بين هـذين من الكون المنـار

ومـنـحـيّ بـهـا عـن ثـغـره   وهي لا تغني ولا تشـفي الأوار
قـائـلا : «لا تـنـس أن تـوفـيـهـا   حقها من نظر أو من سـرار»
لا تـذكـرنـا بـمـا لـم يـأتـنـا   خبر عنـه ولم يرفع سـتـار
نحن في بحبوحـة الحـب وهـل   غير هذا الحب في الكون مَدار
نـحـن فـي آزالـنـا الأولـى وهـل   خلقـت بعـد نجوم وبحـار ؟
مـا تـراهـا وهـي لـمَّـا يَكسُـهـا   من وجود ذلـك الثوبُ المعـار
كـرسـوم مـن ظـلال مَـثّـلـت   هيئة الخلق ، سـكوتًا في انتظار
ضـمـهـا لـيـل من الـنـيـة لـم   يـتـبلّـج في دجـاه عن نـهـار
فـتـملَّ الـحسـن مـنـهـا ولـتكن   لي منها نشـوة تنسـي العقار
وكـذاك الخمر من يسـكر بـهـا   فهو عنهـا في ذهول بـالخُمـار
والـجـمـيـل الـحـق مـا يـذهـلـنـا   عنـه ، لا مـا فيـه للحس أسـار

معنى جديد

قد شـهدت الزمـان في كل وجـه   وبلوت الحيـاة في كـل معنى
وختمـت الـدنيـا ! فمـا من قـديم   كـان إلا يعـاد وصـفًـا ولونـا
ذاك معنـاك أنـت حين وهبت القلب   نورًا من طلعة الشـمس أسـنى
ومـنـحـت الـحـب الإلـهـي حـبًـا   وكسوت الحسن السماوي حسنّا

أسماء

تقول لهـا أحبـك وهي غضـبى   أتـقـلاهـا إذن لـتـلـيـن قـلـبـا ؟
ومـا بـيـديـك أن تـقـلـي ولـكـن   تحـب ولا تسـمى الحـب حبـا

بين الروية والارتجال

تـفـكـريـن طـويـلاً إن أردتِ جـدًى   وتمنعين ارتجـالاً دون تفكير
فليـت رأيـك في الحـالين مختلف   جود ســريع وبطء في المعاذير

لعب أم جد

أتـلـعـبـيـن بـحـبـي أم تـجـديـنـا   وتضــمرين الهوى أم أنت تلهينا
وبين جفنيـك مـاء الحـب نبصــره   أم الســراب الذي بالماء يغرينا
إنــي لأعـلـمُ أن الـهـزل يـتـبـعـه   في الحب جد وأن ماريته حينا
فــالهي أو فجـدي لســت نــاجيـة   منه وإن رُغْت منا ما تروغينا

ما الحب

مـا الحـب ؟ مـا الحـب إلا أنـه بـدل   من الخلود ؟ فما أغلاه من بدل!
نُزهى به حين يزهى الخالدون بما   نــالوه من أبـد بـاق ومـن أزل
داموا ، فلما تقاضــينا الدوام لنا   قالوا لنا : حسـبكم بالحب من أمل
داموا ، وقد حســدونا في ســعادتهم   على السـعادة بين الموت والقبل !
داموا ، وقد منعونـا أن نســاويهم   إذا عشــقنا ، بشـيطان من الخجل
أنشــتري الحب بالدنيا وما رحبتْ   ولا نحـب ؟ لهـذا أبْيَنُ الفشــل
ألا ســعــادةُ خـلاّق نُـدل بـهـا   ولا ســعـادة مخلوق إلى أجل ؟
يـا نظرةً منـك عن قرب أبيع بهـا   حظ السماء ، أطِلّي واهبطي وصلي
صــلي ولا تُمهِلي بخلاً ولا ســرفًا   إن الليـالي لا تمشــي على مهل

الساهد السعيد

سـهَّدنِـي حُـلّمي السـعيـد وجـلَّ حلـمي عـن الـهجـود

فـي يـقـظـة الـحـب أيّ نـوم يـرقـى إلـى سـاحـة الخلـود

وأي حـلـم فـي الـنـوم يُـغـنـي عن حُلُم العـاشـق المـديـد

يـا مغمضـي العين بين ليـل غـاف وصـبـح لـهم جـهيـد

خـذوا ، خـذوا النوم واتركوا لي تـيـقّـظ الـعـاشـق الـفـريـد

من كـان بـالسـهـد في شـقـاء فـإنـنـي السـاهـد السـعيـد

***

إخالك

إخـالـك لو نشـأتِ بغير أرْضِـي وفـي جيـل تقـدَّمَ غير جيلـي

لَـحـنَّ إلـيـكِ مـن حـبَّ فـؤْداي وطـال عليك من شـوق غليلي

فـكيـف ونـحـن يـجـمـعـنـا زمـان وجيرة مـوطـنٍ وهـوى ميـول

وكيف ومنـك في نظري وسـمعي متـاعهمـا من الحظ الجميـل

تـقـاربـنـا فـأي حـجـاز وهـمٍ بيتّ سـبيل قربك من سـبيلي

سـأنشـدك الـوداد بـكـل لـحـن وحسبي من رضـى أن تسمعي لي

إلامَ التجني؟

إلامَ التجني ؟ أوشـك القلب يبردُ وكـادَ معين العذر ينأى ، وينفد

وأصـبح إيمـاني بحبـك دانيًـا إلى الشـك منه كلُّ ما كان يبعد

هبيني امرءًا في قِبْلة الوحي قائمًا طوالَ الليـالي قـانتًـا يتهجّـد

رأى قَبسًـا يعتـاده ثم أطبقـت عليـه سـتور ، فهو لا يتوقـد

ونـادى ، ولامن يسـتجيب نداءه وضلّ ، ولاَ من في الدياجير يرشد
ألا يعتريه الشـك والشـك قاتل ؟ ألا يحتويه اليأس واليأس ملحد؟
فجودي بـإيمـان علـىَّ موطـد وإلا بـكـفـر فـيـك لا يـتـردد
إلى حبك الباكي الذي بات هافيًا إليـك كمـا يهفو الوليـد الملـدَّد
إلى حبـك الغـالي علىَّ فـإن يكن رخيصًا عليك اليوم فالهجر أحمد

***

الرغبة المجهولة

سـائـل فـؤّادك إنـه لـمـعـذّب لم يـدر أين رجـاؤه المنشـود
يخشـى الفراق ، ويرتجيه ، ويدَّعي حـذر اللقـاء ، وليس عنـه يحيد
بـلـواك أن تـهوىَ وأن تُـقْلـى معًـا وتريد تسـلوها ولسـتَ تريد

لوم وعذر

ألـوم فـؤادي وهـو يـعـرف ذنـبـه ولسـت على لومي له أجهل العذرا
«دللت على الحصـن الذي فيك طائعًا وتنكر أسـرًا من حبيبك أو قسـرا !
لقـد كنـت تبقيـه على القرب آمنًـا لو أنك لم تُسـلم زمـامك مغترًّا»
فقـال : « ولكني أحـب وأصـطفي لأسِـلمَ سِـرِّي لا لأبْقِيَ لي سـرا
إذا لم يكن حصـني بحبيّـه عـامرًا فلا حـلَّ فيـه الأمن يومًـا ولا قرًّا
ولا كـان ذاك الحصـن أوصِـد بـابه إذا لم يكن يحويه في طيه ذخرا »

النعيم المفقود

جحيم موجود

فيمَ اجتنابك ظلّها الممدودا ... ولم اتقاؤُك يومها الموعودا
ولأي طارقةٍ كرهت مزارها ... وذممت طالعه ، وكان حميدا
تلك المآلف كنت تهتف باسمها ... كيف اجتويت جنابها الممهودا
تخشى اللمام بها وتفزع أن ترى ... شفةً تردد ذكرها ترديدا
كانت سماءكما فأصبح وردها ... كالقبر يغشاه النزيل وحيدا
وغدتْ كأنك حيث تُقبل واجدٌ ... شَبحًا هنالك للنعيم شريدا
الآن فاستقبلْ بكل محلة ... رصدًا يَرُدُّك هائمًا مزؤدا
وأقم لنفسك في منازل لهوها ... منفي على قرب الديار بعيدا
لا النيل مطروق الرياض ولا حمى ... خوفو على تلك الذرى مقصودا
وترى دواعيَ (عين شمس) بُدِّلت ... لعنات شؤُم ينتحين طريدا
يجني عليه بشوشها ، ويذوده ... ما كان يجذبه إليه سعيدا
وجَد الجحيم بكل أرض من رأى ... في حيث سار نعيمه المفقودا

سكون لغوب

يقول المتنبي :

وللواجد المكروب من زفراته ... سكون عزاء أو سكون لغوب

وقد كان ترديد هذا البيت باعثًا إلى نظم الأبيات الآتية :

لك الله من آس على الداء غاشمٍ ... برغمي أراه اليوم غير مصيب
أتعلم أني بتَّ تسعين ليلة ... على حُرَق موصولة وكروب
أطيل عزاء النفس وهي مُشيحة ... وأَخفي أوار القلب وهو يشي بي

وأستدفِعُ البلوى وليس بنافعي دفاع لجوج أو دفاع أريب
أرى كلَّ ما يشفي من الداء موغرًا جروحي التي داويتها وندوبي
إذا قلت هذا سلوة عاد مسُّها يشبُّ ليّ الذكرى أحر شبوب
وأمسيت بعد السهد والأيْنِ لم أجد سكون عزاء أو سكون لغوب

***

أبا الطيِّب اغفر لي وليس بغافر ذنوبَك في البأساء مثلُ لبيب
أصبتَ ولكني نسيت لشقوتي سكونَ لغوب في التراب قريب

تدبر!

تدبر ، فؤادي ، إنه الهجر والقلى ومبدوءُ أمرٍ لا تُرَد عواقبه
فما كان هيْنًا مطلب تستهينه ولا كان أمنًا مركب أنت راكبه
وللقلب حالات وللحب نكسة ومجهول غيب لا تماط غياهبه
قليلٌ غناء الصبر عنك إذا غدا حبيبك يزوي قلبَه عنك سالبه
وترعاه محسورًا وتدعوه يائسًا ويغلبك الشوق الذي أنت غالبه

شقاء الخبرة

ماذا لقيتُ من الحياة وخبرةٍ بالعيش تمنعني وُرود جنانه
أشقى بنقمته وأجنُبُ طيبَه حذرًا لما عُودّت من فقدانه
فالعيش بين نعيمه وجحيمه لاحظّ لي منه سوى أحزانه

نبئيني

يـا رجـائـي وسـلـوتـي وعـزائـي ... وألـيـفـي إذا اجـتـوانـي الألـيـف

نـبـئـيـنـي ، فـلـسـت أعـلـم مـاذا ... منـك قلبي بحسـنـه مشـغـوف

كـل حسـن أراك أكـبـر مـنـه ... أن مـعـنـاك تـالـد وطـريـف

لسـت أهواك للجمـال وإن كـان ... جـمـيـلاً ذاك الـمـحـيَّـاالـعـفـيـف

لسـت أهواك لـلـذكـاء وإن كـان ... ذكـاء يُـذكـي الـنـهـي ويشـوف

لسـت أهـواك لـلـدلال وإن كـان ... ظريفًـا يصـبو إليـه الظريف

لسـت أهواك للخصـال وإن رفّ ... عـلـيـنـا مـنـهـن ظـلٌّ وريـف

لسـت أهواك للرشـاقـة والرقـة ... والأنس وهو شـتـى صـنـوفُ

أنـا أهواك «أنـت» أنـت فلاشـيء ... سـوى «أنـت» بـالفؤاد يطيف

ان حبًـا يـا قلـب ليس بمنسـيـك ... جمـال الجميـل حـبٌّ ضـعيف

أتعلمين؟

أتعلمين بحسـن في مطـالعـه ... أجلى من الحسن مجلُوَّ الرُوحين ؟

أتـحـلـمـيـن بشـيء كـامـل أبـدًا ... أتم من عالم في قلب صـبيين ؟

إن السماوات والأرض التي ضمَّت ... خليقـة الله في ثوب الجـديـدين

لفي انتظـار هوانـا كي تلوح لنـا ... في خير ما أشـرقت يومًا لعينين

حسـب الهوى ألفة القلبين وحدهما ... فكيف لو تم في روحين حرين ؟

شوق إلى الظمأ

ضِـــنِّي بيومِـك إنْ بـدالـك واتركي   لي من رضـاك غدًا علالة طامع
ليس ابتعـادك عن هواي بمبعـد   عني هواك ، وليس منعك مانعي
إنــي لألـتـذ الصـــدى وأطـيـلـه   شـــوقًا إلى برد الشـــراب الناقع

صبرًا

صــــبرًا على ليلتـك الســـاهرة   صــــبرًا على عبرتـك الحـائرة
بـعض الـذي أنـفقتَـه فـي الـمنـى   أنْفِقْـهُ في هجر المنى الجـائرة
ودون ذاك الصــــبر يـغـنـيـك فـي   حســـرة يـأس بـالحشــا ثـائرة
الــحــبُّ أبــلاكَ ولــم تُــبــلــه   ونفسُـــك الراضـــية الشـــاكرة
ويـحـك إن لـم تســـتـطـع فـقـده   خـذه من القلـب إلى الـذاكرة
مــا أصــــعـب النَّـقْـلَـةَ لـكـنـهـا   أهـون مـن مـحـبـوبـة نـافـرة
قـد ذقـت فـي الـدنـيـا مـراراتـهـا   أضــــف إلـيـهـا هـذه الآخـرة

طلب صورة

أدعوك باسم على ما فيه من صِـغَر   وافي المسـمّاة من حسـن ومن طيب
فيه اختصـــارٌ فلم يُخلق لحاشـــية   تـزيـده ، بـل إيـجـاز وتـحـبـيـب
كجوهر في يد اللآل قد نفِســـت   بــه أنــامـلـه عن كـل تـركـيـب
وإنّ لي رغبـة تدعوك ضــــارعـة   فلا تضــــنّى بها يا خير مرغوب
الله فـي الكون خــافيــه وظــاهره   لم يُخله الحس من وصف وتقريب
وفــي الـهـيـاكـل آيـاتٌ تـمـثّـلـه   وهو الممثّل في شــتى الأســاليب
وأنت أقرب من أرعاه ، ما ظفرت   عيني بتمثال حســـن منك مرقوب

تمضـي الأسـابيع بالسـاعات أحسبها ... ولا مـلاقـاة إلا بـعـد تـغـيـيـب

إذا ارتوى القلب من ذكرى يُعَلُّ بها ... فـالعين في عـالم كـالقفر مجـدوب

فليت لي منـك طيفًـا . إنّ لي حلمـا ... رحب الجوانب مَوْشِـيٌّ الأعاجيب

طيفًا على صفحة القرطاس مرتسمًا ... للّحْظ منه نصـــيب غير مكذوب

إذا أطـل على الأحلام حـلّ بهـا ... كصـورة القدس حلت في المحاريب

لئن ســخوت بهـا لن تنـدمي أبـدًا ... على اعتقـادك في برى وتجريبي

إني كعهـدك «طمـاع» فلي أمـل ... مُغري بـأجمـل وهَّـاب وموهوب

عهد بين عامين

أحـبّـكِ فــي الســـنـة الآتـيـة ... كحبيبك في الســنة الماضـــية

ويـكـبـر شـــوقـي بـطـول الـمـدى ... كمـا تكبر الـدوحـة النـاميـة

«ســعـاد» ويـا حســـن هذا النداء ... إذا مـا وجدتـك لي صـــاغيـة

نســـيـتُ الـتـواريـخ إلا الـتـي ... تـعـود بـذكـرك لـي راويـة

فـأنـت الـزمـان وأنـت الـمـكـان ... وأنـت غني النفس يـا غـانيـة

ولســـت أعـدُّ حســـاب الســنين ... بـالشـــمس طـالـعـة خـافيـة

ولـكـن بـوجـهـك لـي مـقـبـلاً ... ونظرتـك الحلوة الســـاجيـة

فـيـوم الـرضـــى عـالـم حـافـل ... من الحـب والـذكرة البـاقيـة

ويـوم الـنـوى عـالـم مـظـلـم ... تَضـــل الشـــموس بـه هـاويـة

***

فـعـيـدي بـقـربـك لا يـنـقضـــي ... وأعـيـادهـم كـلـهـا فـانـيـة

إذا انـتـظـروا الـعـام لـم انـتـظـر ... ســوى لمحـة منـك لي كـافيـة

فـهـاتـي ســرورك لـي صـــافيًـا ... وجـودي بـأعـيـادك الـغـالـيـة

ودمـت لـعـبـاســـك الـمـرتضـــى ... ومتّـعـت بـالحســـن والعـافيـة

اعتراف

قل للمليحة مالها غضبي تحرّمني الرقاد
تنسى وتجهل قدرها في القلب ، وهو لها مهاد
هذا اعترافي يا مليحة فاغفري ذنبي المعاد
أنا إن خدعتك فاعلمي أن الخداع إلى نفاد
فخذي الحقيقة كلّها مني ، على رغم السداد
قلبي ، فداك ، القلب بين يديك مسلوب القياد
فاطغْي عليه واحْكمي حكم المليك على العباد
أنت الأعز من الحَياةِ، وما الحياة بلا وداد ؟
بخلتْ ببعض مرادها ومنحتني كلّ المراد

***

هذا اعترافي يا مليحة ليس ينقص أو يزاد
حصني أبوح بسرِّه لك ، وهو مرفوع العماد
وأريك كل مقاتلي وأخون نفسيَ في الجهاد

***

وإذا جفوتك مرة والغيظ يلعب بالرشاد
وهواك يغلبني فلا أدري الوصال من البعاد
قولي : « فؤادُك لي أنا » «هيهات مالك من فؤاد ! »
«أنا إن أردتُ أعدته أو لا أريد فلا معاد »
«فاحفظ غضابك أو رضاك لما ملكتَ من العتاد»
وأنا المليكة ها هنا حكمي يسود ولا يساد»

ذكرى ميلاد

قل لدنيا بعد دنيا لم تزل   تبهر اللب بأرض وسماء

أقبلي أو اعرضي – مهما يضيء   فيك من أقمار حسن وضياء

فلقد زادك نورٌ ساحر   منذ عامين وعشرين سواء

نور من أهوى وما لي غيره   من دليل في صباح أو مساء

فيه للعين وللقلب هدى   ولهُ في البعد والقرب بهاء

صانه الله على طول المدى   وحماه من عيون الرقباء

إن يدم لي القرب في مولده   كل عام فعلى الدنيا العفاء

الحسرة الباقية

أولى الأنام بحسرة   في النفس باقية السعير

من ليس يغنيه الجليل   لديه عن حظ يسير

من يملك الدنيا ويعلم   أنه دون الفقير

ذاك الذي نعماؤه   بؤس ومتعته غرور

وكأنما مُنح الكثير   ليمقت الحظّ الكثير

المرأة والخداع

خلّ الملام فليس يثنيها،   ...حب الخداع طبيعة فيها

هو سترها ، وطلاء زينتها،   ورياضةللنفس تحييها

وسلاحها فيما تكيد به   من يصطفيها أو يعاديها

وهو انتقام الضعف ينقذها   من طول ذل بات يشقيها

أنت الملوم إذا أردت لها   ما لم يرده قضاء باريها

رواية

ما غرني إقناعها ... كلا ولا إمتاعها

ماذا تخبئ طفلة ... رقت ورق قناعها

بل غرني علم الطباع، ... وللنفوس طباعها

أو ليس علما بالحياة ... يهون فيه صراعها

إني أشاهد كيف يفطم ... في القلوب رضاعها

أو كيف يسري في النفوس ... الواعيات خداعها

أو كيف ينهض بعد طول ... سباته دفّاعها

أو كيف يومض بعد ما ... خفت السراج شعاعها

دعني فتلك رواية ... شاقت وشاق سماعها

ألمي الوجيزُ رقاعها ... إن قيل أين رقاعها؟

وانا العليم ، وقد علمت، ... متى يكون وداعها

لغيرك !

لغيرك غفران تلك الخطايا ... وغض الجفون وستر الخفايا

لغيرك ، لا لك ، صبري على ... مساوئ يُتحسنَ عندي مزايا

لمن أرسلتك ، ومن جملتك، ... ومن حبُّها كامنٌ في حشايا

ألست رسولَ الحياة الأمين ... بأسنى الهبات وأغلى الهدايا

فهاتي الرسالة واستغنمي ... ثنائي ، ولا تعجبي من هوايا

إذا الرسل أفضت بما عندها ... فما حيلتي في اختلاف الوصايا

سواء لدينا بريد الوجوه، ... إذا حسنت ، أو بريد الطوايا

ما استفدت ؟

برئت من غش نفسي ولا أقول انتبهتُ
قد كنت ساهر عين مستيقظًا ما غفوتُ

***

برئت من غش نفسي وليتني ما برئت
ما العمر محض نهار! في العمر للغمض وقت

***

ها أنت يا عين يقظي وها أنا قد نظرت
ماذا استفدت لعمري وما عساني استفدت ؟!

طلعة الحلم

يا طلعة الحلم متى ألقاك ؟ فداك كل طلعة فداك
ما النور من شمس ولا أفلاك جلاّكِ لي : كلا ولا حلاّك
أنت ارتفعت بي إلى علاك وهبتني نورًا به أراك
لو لم أكن أصغي إلى خُطاك قلتُ خيال من قوام زاك
في لجة النور بدا يُحاكي صورتَه في عالم الأملاك
في معزل عن ضاحك وباك فوق غرام النفس مشتهاك
إذا المنى حامت على ذراك فإنما تصبو إلى معناك
وبالتسابيح تمنياك وكل حسن يُشتهى سواك
تعاليًا عن تلكم الشباك حاشاك من دنيا الهوى حاشاك

لفاع [١]

لفاعك في عنقي كالوفاء يطوّك جيدَ السميع المجيب
مكانُ ذراعيك أولى به نسيجُ يديك السخي القشيب
إذا فاتني منك طيب العناق فسلواي منه بديلٌ قريب
فلا أحرم الدفء عند اللقاء ولا أحرم الدفَ عند المغيب

رأيت

رأيت النهر ظمآن إلى البيداء يرويها
رأيت الزهر مشتاقًا إلى الأطواد يحليها
رأيت الليلة الليلاء والكوكب حاديها
رأيت الحان تنساب إلى أفواه حاسيها
رأيت العجب العاجب في الدنيا وما فيها
شبابًا هام بالهامة قد شابت نواصيها
إخال الحب يستحدث ترويحًا وترفيهًا
ألا فليْلَه ما شاء فما تفنى ملاهيها

من لبنان إلى مصر

غريبةَ الدار عند النيل –تذكرةً من وامق في ربى لبنان مغترب
بتنا بديلين والدنيا تبدّلنا فيا لنا من شريكي موطنٍ عجب
كلاهما نازح في دار صاحبه وداره في الهوى موصولة السبب
يا بنت لبنان أقريك التحية من هضاب لبنان ، بين البحر والشّهُب

(١) اللفاع هو ما يعرف بالكوفية ويلف حول العنق في الشتاء .

لا يمنع القلبَ عنها حين يرسلها — بعدٌ من البين أو بعدٌ من الغضب

أمسيتُ ضيفك في أرض درجتِ بها — طفلاً صغير الخطى مأمونةَ اللعب

وذقتِ أوَّل نشوات الحياة بها — وكنتِ نشوةَ أم برَّة وأب

لقلّما علم الراؤوك يومئذ — من ذا يذوق الجنى من ذلك العنب

وأنَّ لبنان يسقي كرمه لفتى — بجانب النيل صادي القلب مكتئب

***

أمسيتُ ضيفك في أرض لبستِ بها — وشى الصبا وبرود الحسن والطرب

أرى مثالَك فيها حيثما طمحت — عيني ، وأخلو به في كل مرتَقَب

فأنت لبنان في زهر وفي ثمر — وأنت لبنان في ماءٍ وفي عشب

وفي نقيضيه من وعر ومن دمث — وفي مزيجيه من نور ومن سحب

وفي استقامة مرآه لناظره — على التفاف النواحي فيه والشّعب

وفي نسيم أعاليه ومهبطه — يبلو الصدور ابتلاء النار للذهب

فليت لبناني يغنيني إذا نظرت — عيني ولم تر تلك العين واحربي

وليت لبنان يرويني إذا ظمئت — روحي ، وثغرك ناء غير مقترب

***

لبنان ! لبنان !لا عيبٌ لديك ولا — عتبٌ عليك ، ولكن لست مطلبي

ما حيلة الجنة الزهراءُ إن صفرت — من زهرة هي عندي منتهى أربي

ساحات رضوان غيري فيك يبصرها — ولا أرى غير قفر ثمَّ منتقِب

ورب جدب خضير اللون مزدهر — كالشيب يحكي الصبا في رأس مختضب

قد ضاقت الأرض بي طرا فلا عجب — إذا وجدتك في بلواي أضيق بي

***

يا طالب البرءِ دعوّى غير صـــادقة — شـــفيت داءك يـا مخـدوع بـالكـذب

لا أنت تسلو ولا ترض-ى السلوَّ إذا — طوى إليـك المـدى عفوًا بلا تعـب

في غير لبنـان تســـلو ريح جنتـه — لو التمســت نصــيح الطب من كَثب

الفهرس